التعريف بالأنثربولوجيا الإجتماعية
وعلاقتها بالخدمة الإجتماعية

تأليف
الدكتور/ محمود حمدي عبد الغني
كلية الآداب - جامعة حلوان

ملتزم الطبع
دار نوار للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ت : ٣٧٨٢٨٩ / ٠١

١٩٩٨

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

التعريف بالأنثربولوجيا الإجتماعية
وعلاقتها بالخدمة الإجتماعية

تأليف
الدكتور/ محمود حمدي عبد الغني
كلية الآداب ـ جامعة حلوان

ملتزم الطبع
دار نوار للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ت : ٣٧٨٢٨٩ / ٠١

١٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا﴾

صدق الله العظيم

(سورة الكهف آية ١٠)

الإهــداء

إلى عميد الأنثربولوجيين العرب ورمزهم.

إلى هذا النبع الانسانى والعلمى الفياض الذى رعانى وطوع حياتى وعلمنى أجمل ماتعلمت من معان دون أن يُتح لى الفرصة لشيمه العظيمة لأن اشكره.

إلى أستاذ الاجيال والعالم الجليل أحمد أبو زيد اهدى هذا الكتاب اقراراً بالفضل واعترافا بالدين الذى لن أقدر على رده قط.

وتبقى الكلمات دون مافى القلوب.

المؤلف

المحتويات

الفصل الأول

التعريف بالأنثربولوجيا الإجتماعية

الفصل الثانى

الأنثربولوجيا الاجتماعية والتغير الاجتماعى

الفصل الثالث

منهج البحث فى الأنثربولوجيا الاجتماعية

الفصل الرابع
الأنثربولوچيا الاجتماعية والخدمة الاجتماعية

الفصل الخامس
نحو فهم الآثار الإجتماعية للتقاعد

تصديـــر

اعترف عن طيب خاطر أن هدف هذا الكتاب ليس هو تقديم بعض أخبار الأنثربولوجيا الاجتماعية، بقدر ماهو تقديم الوجه النقدى «الغائب» فى الممارسات الناطقة بالعربية للأنثربولوجيا الاجتماعية. وعلى ذلك يخطىء من يظن أن هذا الكتاب هو مجرد ترديد لبعض المعلومات أو الممارسات الخاصة بهذا الميدان فى اللغة العربية، وانما هو محاولة مقصودة للنظر إلى الممارسات الأنثربولوجية «الأجنبية» فى سياقها التاريخى واللغوى الخاص. وهذا معناه أن الكتاب الحالى ينظر إلى الممارسات الأنثربولوجية الأجنبية بوصفها طريقة فى التفكير التأويلى أو النقدى الخاص الذى يتجاوز أى تصوير أو أى سرد مفتعل لها يمكن أن يظهر فى اللغة العربية أو فى أية لغة تختلف عن اللغة التى كتبت فيها تلك الممارسات فى الأصل. وهذا معناه أيضا أنه لايمكن الاكتفاء بترجمة الممارسات الأنثربولوجية الأجنبية إلى لغتنا العربية والإحالة إليها دون الانتباه إلى أن الممارسات الأنثربولوجية الأجنبية والإحاله إليها فى خطابنا الأنثربولوجى الناطق بالعربية يمثلان فى الواقع مجالين تأويليين أو نقدين مختلفين. وعلى الرغم من ذلك فقد اعتدنا وللأسف فى خطابنا الأنثربولوجى الدارج إلى عدم الالتفات إلى هذا الفارق النقدى المهم، وهو أمر أدى - فى رأينا - إلى فقداننا لأهم مافى الخطاب الأنثربولوجى سواء الأجنبى أو العربى من فضائل. وعلى أى حال ونظرا لأهمية توضيح الوضع النقدى أو السردى الذى ينمو فيه هذا الكتاب يجب علينا أن نعرض بايجاز مانعنيه من تعبير «الوجه الغائب» فى الخطاب الأنثربولوجى الناطق بالعربية.

بشكل عام يمكن التفرقة بين ممارسات الأنثربولوجيا الاجتماعية فى سياقها البريطانى (وسوف نقصر حديثنا فى تلك المقدمة على هذا السياق) وبين الوضع السردى أو التصويرى الذى يتخطاها بشكل أو بآخر ليقرر فى الإحالة كيفية

استجابتنا الخاصة لها فى لغتنا العربية. ومن الثابت أنه قد سبق وكان للممارسات البريطانية وجوداً تاريخيا ولغويا كاملاً كفل للمتخصصين فى الأنثربولوجيا الاجتماعية الاضطلاع بمسئوليتهم المهنية بلسان حالهم وبضمير المتكلم، ولقد أعطانا التأمل السيميائى Semiotic فى هذا الوضع شعوراً عميقاً بأن تلك الممارسات المهنية كانت ولازالت تمارس وتعبر عن نفسها تحت ضغط الوضع التاريخى واللغوى الذى وجدت نفسها فيه، مستقلة تماما عن أية «قراءة» أو «كتابة» مفتعلة يمكن أن تظهر حولها بضمير الغائب أو بصيغة المبنى للمجهول فى أية لغة من اللغات الأخرى. فقد قامت ممارسات الأنثربولوجيا الاجتماعية فى سياقها البريطانى على مقومات سيميائية خاصة، وهى المقومات التى تقوم عليها العلامة اللغوية Linguistic Sign، هذا إذ جاز لنا النظر للأنثربولوجيا الاجتماعية فى سياقها البريطانى بوصفها علامة أنثربولوجية عملاقة. وهى «الدال»، و «المدلول»، ثم «الموضوع الخارجى المحالين عليه». فعلى أساس من هذا القياس التمثيلى يمكن تفكيك ممارسات الأنثربولوجيا الاجتماعية فى سياقها البريطانى إلى:

١- النصوص التى كتبها المتهنون البريطانيون للمهنة.

٢- الأفكار التى تضمنتها تلك النصوص والتى تشكلت فى الأصل فى ضوء القواعد النظرية والمنهجية الأساسية للعلم.

٣- الموضوعات الأنثربولوجية التى شكلت ميدان الإحالة فى تلك النصوص.

والسؤال الآن:

ما المقومات السيميائية الثلاثية المميزه لخطابنا الدارج فى الانثربولوجيا الاجتماعية الناطقة بالعربية؟

بطبيعة الحال لقد انشغلنا منذ فترة بالتأملات العامة فى النصوص الأنثربولوجية الأجنبية، وبإعادة ابداع تلك النصوص من جديد فى اللغة العربية، ولكن فعلى

الرغم من أن عملية إعادة ابداع «خطاب» أحد فروع المعارف الانسانية فى احدى اللغات الاخرى ليست مجرد عملية «سردية» أو «اخبارية» يمكن ممارستها بأسلوب المؤرخ وبالإحالة للمبنى للمجهول، وانما هى عملية نقدية موضوعية يجب أن تمارس من منظور الوعى الذاتى للمتكلم الذى يتمسك باعادة ترتيب القضايا أو النقاط الحيوية، وبرؤية «الذات» فى مقابل رؤية الآخرين. وعلى الرغم من أنه لم تكن ينقصنا الرؤية النقدية الخاصة إلا أننا وللأسف وقعنا فى النصوص الأجنبية بوصفها المصدر الوحيد للحكمة الشافية، وهو وضع مؤذ قادنا إلى ترقيع خطابنا النقدى بعد أن اصبحنا منحازين للقواعد النقدية للآخرين. والاكتفاء بممارسة لعبة «المرايا السردية»، فكل ماقمنا بوضعه على الورق الناطق بالعربية لم يكن سوى استثماراً متجمدا واستعارة «لاذاتية» للخطاب الأجنبى بكل مايتضمنه ذلك من مراعاة لأسئلته النقدية، وإجاباته الخاصة ومعاجمه التصويرية التى تعبر عنها. دون أدنى احساس بالمسئولية الفكرية أو النقدية، وهو أمر لو قدر له أن يتحقق لصرنا إلى وضع أكثر كمالاً وأكثر إحاطة بمدخلنا الانثربولوجى العام بين مداخل الآخرين.

ولقد أدى هذا الوضع إلى تحطيم خطابنا الانثربولوجى الناطق بالعربية، أقصد تحطيم المقومات السيميائية الثلاثية التى كان يمكنها وضع خطابنا هذا بين خطابات الآخرين، فقد اكتفينا بترجمة النصوص الاجنبية والاحالة إليها فى لغتنا العربية، وهذا معناه أننا قمنا باستبدال «الدال» الناطق باللغة الأجنبية فى مثلث الخطاب الأجنبى، بدال آخر ينطق باللغة العربية مع ترك العنصرين الآخرين الباقيين فى مثلث الخطاب الأجنبى دون تغيير. وهو أمر أن عبر عن شىء فإنه يعبر عن فشلنا البالغ فى فهم الطبيعة السيميائية الخاصة بالنصوص الأجنبية التى حرصنا على ترجمتها واعادة اقتباسها، وعلى الأخص الفشل فى فهم الطبيعة الخاصة بهذين العنصرين السيميائيين قبل أن يستقرا فى النصوص الأجنبية والعربية على حد سواء. وهكذا وقعنا فى «الابتهال» للنصوص الأجنبية، و[illegible] ـابنا

الانثربولوجى من أية أفكار أو مسلمات نقدية يمكن أن تحلق بنا لتضعنا بين الآخرين.

وإن كان هذا التعليق لا يعنى بطبيعة الحال خيبة أملنا فى الممارسات الانثربولوجية الجادة فى لغتنا العربية، أو حتى التقليل من شأن الأسماء الخفاقة والجهود المخلصة التى بذلتها فى ارساء دعائم تلك الممارسات من قبل أن نتعلم كيفيه تهجية حروف «الانثربولوجيا الاجتماعية»، وعلى رأسها الجهود الفائقة التى بذلها أستاذنا الجليل أحمد أبو زيد وآخرون على مدار نصف قرن من الزمان، وإنما يعنى بالتحديد حتمية التفكير فى الوجه «الدلالى» الغائب للانثروبولوجيا الاجتماعية، لأننى أشعر أننا نتحدث فى هذا المجال كما يتحدث الاخرون عنا. وأن كنت على يقين أن انجاز تلك المهمة يتطلب بذل الجهود المحكمة لإعادة القراءة السيميائية للخطاب الأنثربولوجى الأجنبى ذاته قبل أن نفكر فى كيفية تحديد المواصفات الحاكمة لإعادة إبداعه فى لغتنا العربية، وهى جهود تتجاوز ما يمكن أن يقوم به «قلم» رجل واحد بطبيعة الحال.

ولهذا السبب فإننى أشعر بالعرفان والامتنان لهؤلاء الطلاب النابهين الذين كانوا يلحون علىّ دائما بأسئلتهم البريئة التى لم تكن تخلو من العمق والتركيز طوال فترات إلقائى للمحاضرات بمدرجات كليتى الآداب بجامعتى الإسكندرية وحلوان، فقد استفدت من أسئلتهم الصغيرة الكثير الكثير، الأمر الذى دفعنى للبدء فى معالجة الموضوع معالجة تفصيلية فى دراسة لنا بعنوان: «صناعة الانثربولوجيا السوسيولوجية فى لغتنا العربية» أرجو أن تظهر للوجود قريبا، فإلى هؤلاء الطلاب وأمثالهم اتشرف بتقديم هذا الكتاب، راجيا أن يكون له قيمة لكل من يتفضل ويجد الوقت لقراءته.

والله من وراء القصد.

الإسكندرية فى ١٩٩٨/٣/٧. **المؤلف**

الفصل الأول

التعريف بالأنثربولوجيا الإجتماعية

أولاً: الكتابات النظرية المبكرة.

ثانياً: بداية الأنثربولوجيا الوضعية.

ثالثاً: الأصول الفكرية للانثربولوجيا الإجتماعية.

١ - الجذور الفلسفية.

٢ - الأسس العلمية لعلم الإجتماع الفرنسي.

٣ - انثربولوجيا البناء الإجتماعي.

٤ - الأنثربولوجيا الاثنوجرافية.

الفصل الأول
التعريف بالأنثربولوجيا الإجتماعية

من الصعب الحديث عن العلم، قبل أن يصبح هذا العلم علماً أكاديميا مستقلا، وقبل أن يدرس في الجامعات، وبهذا المعنى تعتبر الأنثربولوجيا الإجتماعية أحد العلوم الأكاديمية الحديثة جدا، وذلك لأن الكثير من جامعات العالم لم تعرف هذا العلم إلا منذ عهد قريب جدا، ولكن فعلى الرغم من حداثة الأنثربولوجيا الإجتماعية، إلا أن المرء لايكاد يلمح أية جامعة من جامعات العالم في الوقت الحاضر إلا وأعطت الدراسات الأنثربولوجية أهمية قصوى.

والأنثربولوجيا «علم» موضوعة الإنسان، ومن المفترض في الشخص الذى يختار أن يكرس نفسه لدراسة الإنسان أنه قد تعهد شيئا جديراً بالإهتمام، وعلى الرغم من ذلك فمن المحتمل أن لايكون لذلك الشخص وجهة نظر واضحة حول الهدف من دراسة الإنسان، في هذه الحالة من الطبيعى أن تشكل الإدعاءات السابقة و المعاصرة له وجهة نظرة أو قاعدة ضبط تأويلاته، ومن هذا المنظور سوف تختلف قاعدة ضبط علم الإنسان في العصر الذى يهتم بالصفات المميزه للسلالات البشرية عن قاعدة ضبط العلم ذاته في العصر الذى يهتم بفهم الطبيعة البشرية أو طبيعة الجنس البشرى.

ولكل خطاب علمى موضوعه الإنسان عناصر توحده وقد يبدو للناظر أن تحديد الخطاب الأنثربولوجي تحديداً نظريا قد يسير تحديد الممارسات العملية لهذا العلم، وعلى الرغم من ذلك فإن فهم البنية النوعية للخطاب الأنثربولوجي يقتضى منا ترتيب الأمور من حيث المنطق ترتيبا يخالف ماهو عليه من حيث الحاصل. وذلك لأن فهم المقومات الأساسية التى يرتكز عليها الخطاب الأنثربولوجي لن يتسنى لنا إلا بالإستناد إلى فهم التطور التاريخي للممارسات الأنثربولوجية ذاتها، وقد يستغنى فهم العملية الثانية عن العملية الأولى والعكس غير صحيح. وعلى

الرغم من تناولنا لهاتين العمليتين كما لو كانتا تمثلان مجالين نقديين مختلفين إلا أنهما يمثلان فى الواقع مظهرين أو وجهين لعملة نقدية واحدة، ولقد اكتسب الخطاب الأنثربولوجى الكثير من عناصره ومقوماته طوال كل مراحل تاريخه فى ضوء هذين المظهرين والإرتباط الوثيق القائم بينهما.

أولاً: الكتابات النظرية المبكرة:

يمكن نسب شجرة نسب الأنثربولوجيا الإجتماعية إلى أفكار عصر التنوير، فالأنثربولوجيا الإجتماعية ذاتها هى وليدة عصر التنوير، وعلى الرغم من ذلك فقد اتسمت عملية الولادة ذاتها بالتعقيد الشديد، لقد كان حلماً جميلاً أن يكتشف المفكرون الأوربيون أن هناك بشر آخرون يختلفون تماما عنهم ويعيشون خارج التاريخ، وبعد أن لبس هؤلاء المفكرون زمنا ثوب البدائيين وحكوا لغاتهم،وبعد جولات من التحامل والتحيز الواضحين (كما ظهر على سبيل المثال عند جون لوك J.Locke (١٦٣٢ - ١٧١٤) الذى كتب حول الهنود الحمر الذين يقطنون نيو انجلند ويعيشون على قنص الحيوان)[1] اكتشف المفكرون الأوربيون أن هؤلاء البشر ليسوا بدائيون متخلفون كما صورتهم الكتابات فى عصر التنوير، وإنما هم شعوب لهم قيمهم ومنطقهم ومبادىء ايمانهم الخاص وطريقتهم فى الحياة التى تختلف عن الأوربيين.

كانت الحياة البدائية فى كتابات عصر التنوير دليل على الحياة الطبيعية السعيدة التى يعيشها الإنسان البدائى، فطالما كانت الأرض خصبة والمياة جارية وطالما أن الثمار تتساقط فى تلقاء نفسها، فإن الإنسان البدائى يعيش فى رغد من العيش وفى سعادة وعلى هذا الأساس نظر جيمس ستيوارت J.Stewart وآدم سميث A.Smith إلى المجتمع البدائى بوصفه نسقاً طبيعياً Natural System

(1) M., The Rise of Anthropological Theory; Crowell, N.Y 1968.p. 35.

ويقصدان بذلك أنه نشأ من الطبيعة البشرية Human Nature وليس من العقد الإجتماعى على ماذهب «لوك»[١].

كانت المجتمعات البدائية فى الواقع لاتمثل بالنسبة لمفكرى القرن الثامن عشر إلا نقطة الصفر التى يمكن فى ضوئها شرح نظريات الإقتصاد السياسى الكلاسيكى. وقد شكلت قضية أصل النظام الرأسمالى حينذاك القضية الرئيسية فى تفكيرهم، ومع ذلك لم تبحث هذه القضية بوصفها قضية تاريخية، وإنما بحثت بوصفها قضية فلسفية. وقد انشغل المفكرون بتلك القضية بغاية إلقاء الضوء على الطبيعة البشرية، ولكن فعلى الرغم من استشهادهم بالزمن وهو أمر كان شائعا فى ذلك الحين (أى بتفسير أصل الشىء يكون المرء قد قام بتفسير طبيعته) إلا أن هذا الإستشهاد لم يكن بمقاييس تفاصيل أى مشروع تاريخى، وإنما كان خيالاً تفسيريا An Explainatory Fiction ، وقد جعل هؤلاء المفكرون من أنفسهم - باستشهادهم بالتاريخ الخيالى - موضوعاً للانتقاد. ولقد أطلق دوجالد ستيوارت D.Stewart على تلك الممارسات اسم التاريخ الظنى Conjectural، ويقصد به أنه نوع من فلسفة التاريخ الذى يحاول ابراز الإتجاهات التاريخية الفرضية وإغفال الأحداث الجزئية الفعلية على اعتبار أنها أحداث عرضية قليلة الأهمية[٢].

بإيجاز شديد يمكن للمرء القول أن الممارسات الأنثربولوجية الظنية فى القرن الثامن عشر كانت مثالاً فجاً للواقعية التاريخية، وقد كان غياب البعد الزمنى بالتحديد هو الذى ازعج علماء الأنثربولوجيا فى القرن التاسع عشر، لأنه إذا كانت لدى المرء رغبة صادقة فى فهم المراحل التى مر بها التقدم التقنى عند الإنسان،

---

(1) Evans - Pritchard, Ex.; Social Anthropology: Past and Present; in E. Evans - Pritchard; Essays in Social Anthropology ; Faber Edition, London 1969 (pp 13-29)

(2) Evans - Pritchard, op.cit.

فلايكفى لهذا المرء أن يقتصر على افتراض المبادىء الكونية للتطور، وإنما يجب عليه أن يناقش كيف يتشكل التقدم فى المجتمعات الإنسانية ويتطور.[١] وعلى أية حال فقد كانت تلك الممارسات «الفرضية» تمثل فى الواقع الخطوات الأولى للإهتمام بالمجتمعات البدائية، وهو الإهتمام الذى اتيح له أن يتطور فى القرن التاسع عشر، فابتداء من هذا القرن بدأ الخطاب الأنثربولوجى فى الالتفاف حول المجتمعات البدائية لتشكيل موضوعة الخاص، وأصبح الإنسان البدائى يمثل فى هذا القرن موضوعاً للمعرفة الإنسانية، ولم يعد فهم الإنسان البدائى له أية علاقة بالتفسير الفلسفى للطبيعة البشرية، وإنما أصبح له صلة وثيقة بتطبيق مناهج الفهم الاستقرائى على مجال محدد من الواقع. ولقد كان المنهج المتبع هو المنهج التاريخى المقارن، وكان الهدف المنشود هو اثبات الصلات القرابية التى تدل على وحدة الجنس البشرى، وكان التصور السائد هو اثبات التشابهات القائمة بين الانساق الإجتماعية بوصفها المعيار الرئيسى لوجود العلاقة التاريخية[٢].

لقد كان من المحتم فى القرن التاسع عشر قطع الصلة بين دراسة الإنسان البدائى ومنهج التاريخ الظنى، وقد كان التحول من الاهتمام بالأصول «الفرضية» للجنس البشرى إلى الإهتمام بالمجتمعات البدائية الحية من أكثر الموضوعات صعوبة على ممارسات القرن الثامن عشر. ومع ذلك فقط أصبح المجتمع البدائى يدرك الآن بوصفه موضوعا للعلم الوضعى، موضوعاً وضعياً يمكن تشريحه (أو تحليله) مثل تشريح أى نبات أو حيوان، ولقد كان لدى مفكرى القرن التاسع عشر رغبة ملحة فى تخليص دراسة المجتمعات البدائية من التفكير الفلسفى «الفرضى» وقد كانوا يعتقدون فى امكانية تحقيق ذلك باستخدام المنهج الوضعى، وهو المنهج الذى حدده أوجست كوبت A.Comte فى كتاب «دروس فى الفلسفة الوضعية» Cours De

(١) عبد الغنى ، محمود حمدى ؛ علم اللغة وأسئلة علم العلامات، دار نوار للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٨.

(٢) عبد الغنى، محمود حمدى ؛ المرجع السابق.

Philosophie Positive (١٨٣٠) ففي هذا الكتاب ذهب «كونت» إلى أن هدف الفيزياء الإجتماعية إنما ينحصر في البرهنة على قيام علاقات التساند أو الاعتماد الوظيفي المتبادل بين الأطراف التي تدخل فيه. فالعلاقات القائمة بين الوقائع الإجتماعية المعقدة – في راى كونت – إنما تقوم على العلاقات الوظيفية، ويمكن التحقيق من تلك العلاقات بإستخدام طريقة التلازم في التغير، وهي طريقة معروفة في المنطق، إذ انها الطريقة الوحيدة التي يمكن اتباعها في دراسة الوقائع الإجتماعية المعقده التي ليس من السهل فيها الفصل بين المتغيرات البسيطة أو التمييز بينها. ولقد اعتقد كونت في أسبقية اكتشاف القوانين التاريخية Diachronic على اعتبار أن هذه القوانين هي التي يمكنها وحدها اضفاء الشرعية على القوانين الوضعية (التزامنية)(١).

وبطبيعة الحال لقد كان لمثل ذلك النوع التفكير مبرراته: نموذج الكائن الحي المهيب الذى كان يتطلع إليه علماء الأنثربولوجيا في ذلك الحين، تلك الكينونة الحية المكتفية بذاتها، والتي نمت وتطورت وفقا لقوانين عامة. لقد وجه التشريح المقارن علماء التاريخ الطبيعي للبحث عن البناء العضوى للكائنات الحية، وقد استطاع هذا العلم الربط بين البناء العضوى للحيوانات في ضوء السبل المختلفة التي تسلكها في اشباع وظائفها الأساسية (كالتنفس والتناسل والهضم والحركة والانتقال)، وهكذا نجح علماء التشريح المقارن في تقديم التصنيفات العضوية التاريخية للكائنات الحية، وهي المشروعات التي استخدم فيها علماء التاريخ الطبيعي المنهج المقارن لتبويب أو تصنيف التشابهات والاختلافات القائمة بين الانساق العضوية الحية وتفسيرها، والتي ترأست في الوقت نفسه تحويل ممارسات التاريخ الطبيعي إلى ممارسات علم الحياة(٢).

---

(1) Evans - Pritchard, E.; Anthropology and History; in E.Evans - Pritchard, Essyays in Social Anthropology; Faber Editions London 1969 (pp. 46 - 65).

(٢) عبد الغنى، محمود حمدى ؛ المرجع السابق.

في بداية القرن التاسع عشر كان الأساس المشترك الذى يجمع بين علم الإنسان وعلم الحياة كالآتى: أن العلمين كلاهما انشغلا بالإنفصال عن فكرة الدوام التاريخى الخيالى Fictional، فقدكانت الطريقة السائدة لتقديم تصنيف تاريخى معترف به تقوم على التخاصم الاستهلالى مع فكرة التاريخ «الظنى».

في علم الحياة تمت معالجة الأنواع الحية بوصفها كينونات مستقلة يمكن وصفها ومقارنتها فيما بينها بوصفها وحدات كلية مستقلة، وبمجرد انتهاء علماء الحياة من تحليل النوع الحى بوصفه نوعا قادراً على إيجاد الأساليب الخاصة بإشباع وظائفه الأساسية، يتم اخضاع هذا النوع الحى للتحليل فى ضوء الشروط العضوية التى مكنته من امتلاك تاريخ، وهذا معناه أن تاريخ النوع الحى فى علم الحياة أصبح بمثابة سرد لقصة الأسلوب الذى قام بها لأشباع وظائفه الأساسية، وسرد قصة التغيرات العضوية التى صادفها هذا النوع الحى للحفاظ على وجوده وبقائه، وقد أصبحت تلك الوظائف الأساسية هى الأساس السائد لتقديم أية سلسلة تاريخية للأنواع الحية. وهكذا أتاح علم الحياة «اللاتاريخى» ظهور نظرية داروين Darwin أصل الأنواع[١].

ولقد حمل علم الإنسان فى ذلك الحين الكثير من بصمات علم الحياة، فقد قدم هذا العلم النموذج التفسيرى لعلم الإنسان، واستعار علماء الإنسان الكثير من مصطلحات علماء الحياة، وهكذا رسم علماء الإنسان القياس التمثيلى بين الكائن الإجتماعى الحى ونظيره البيولوجى. وانطلاقاً من هذا القياس التمثيلى نظروا إلى المجتمع بوصفه كائناً حيا معقدا إلى أبعد الحدود، وإلى أنه مؤلف من العديد من الأجزاء، يعتمد كل جزء منها على الأجزاء الأخرى، بحيث يمكن تحديد وظيفة كل جزء منها فى ضوء الإسهام الإجمالى الذى يقدمه فى المحافظة على بقاء المجتمع ككل: ومعنى ذلك أن منظور المماثلة البيولوجية Biological Analogy قد نظر للمجتمع بوصفه مؤسسة عضوية حية، تتغير فقط بقدر مقتضيات الحاجة للبقاء أو الاستمرار فى الوجود[٢].

---

(١) عبد الغنى، محمود حمدى؛ المرجع السابق.

(9) Appelbaum, R.P.; Theories of Social Change; Rand McMally Collage Publishing Campany, Chicago 1970. p. 126.

ولقد اقتضى هذا القياس التمثيلى أو التناظر الوظيفى بين الكائن الاجتماعى الحى ونظيره البيولوجى تفسيراً تاريخيا من أجل شرح الشجرة التطورية ولذلك فقد استعان علماء الإنسان بالنظرية الداروينية Darwinian كنموذجاً للتفسير(١)، فقد شرحت النظرية الداروينية التطور بوصفه التغير الناتج عن التكيف مع البيئة، ولقد أكد «دارون» أن التغايرات الاحيائية المحتمله، أو الميكانيزمات البيولوجية الدقيقة للتكيف قد تظهر خلال لفترات زمنية طويلة جداً، ولسوء الحظ لم يكن هناك ميكانيزما متاحاً لعلم الإنسان الوليد. وعلى هذا الأساس يمكن فهم الحشو الكامن فى الصياغة الإجتماعية لمبدأ «البقاء للأصلح»، وهو المبدأ الذى أصبح بديهية فى القياس التمثيلى الأنثربولوجى. ونتيجة لذلك نظر علماء الإنسان للأشكال الإجتماعى المبكرة بوصفها أشكال ناشئة فى إتجاه المجتمع الصناعى فى القرن التاسع عشر، وعلى هذا الأساس تم التنبوء بأن المجتمعات الأقدم تميل للسير فى إتجاه المجتمع الصناعى الحديث(٢).

بإيجاز شديد لقد نظر علماء الإنسان للمجتمع بوصفه كائناً حيا، ذات بناءات (وهو المصطلح الذى وضعه علماء الإنسان محل مصطلح الأعضاء) مختلفة متخصصة فى مختلف مظاهر البقاء، ولأن المجتمعات البشرية تؤدى وظيفتها بطريقة ملساء نسبيا، فإن بعض البناءات تتخصص أثناء حدوث التماسك بين الأشياء (أى التكامل)، ولأن المقتضيات البيئية قد تصل إلى حد تهديد بقاء المجتمع (إما نتيجة الصراع مع المجتمعات الأخرى، وأما نتيجة تزايد السكان وعجز المصادر الطبيعية عن سد حاجتهم) فإن البناءات القائمة تصبح غير ملائمة للقيام بالمهام المخصصة لها. وهنا يحدث التغير، فمثل «الخلية الجنينية» فى الإنسان تنقسم البناءات الإجتماعية إلى بناءات جديدة ومع ظهور كل بناء إجتماعى جديد يتزايد

(١) وذلك على المقابل من علماء الفيلولوجيا المقارنة الذين مالوا للاستعانة بالنظرية اللاماركية Lamarkian فى التطور.

(2) Appelbaum, op.cit .p. 127.

التخصص عن أصله أو مصدرة ومن ثم يتزايد تكيف المجتمع مع البيئة. وفى الواقع فإن الوظائف التى كان يتم تأديتها بطريقة غير ملائمة فى البناء المصدر، يتم تأديتها الآن بطريقة فعالة فى البناءات الجديدة، وكلما تم استثمار هذه العملية خلال الزمن كلما أصبحت المجتمعات البسيطة (أو البدائية) مجتمعات حديثة معقدة، لها بناءات عديدة متخصصة تقوم بوظائف متميزة لاتعد ولاتحصى(١).

إلا أن اقرار التباين والتكامل الجدلى بهذا المنوال تحت تأثير المماثلة البيولوجية لم يكن جائزا فى البيولوجيا ذاتها. فلقد أدت هذه المماثلة إلى فهم المجتمعات كما لو كانت قد نشأت فى الأصل تلبية لأغراض تطورية غرضية فى إتجاه البقاء، وكما لو كانت قد تكيفت عن عمد للتغيرات التطورية، وذلك لأن داروين نفسه أثبت أن أية قصدية فى التطور البيولوجى للأنواع الحية لاتكمن فى التغيرات البيولوجية ذاتها بقدر ماتكمن فى عملية الانتخاب الطبيعى Natural Selection وهى عملية تزامنية Synchronic أساساً. وهكذا فقد شاع الخلط فى علم الإنسان بين الحقائق التزامنية والحقائق التاريخية الجدلية(٢).

وفى منتصف القرن التاسع عشر عرفت الأنثربولوجيا طفرة جديدة، فابتداء من العام ١٨٦٠ ظهرت مجموعة من المؤلفات مثل كتاب سيرهنرى مين Sir H.Maine القانون القديم Ancient Law (١٨٦١)، وكتاب باخوفن Bachofen حق الأمومة Das Mutterecht (١٨٦١)، وكتاب فوستيل دى كولاغ F.DeColanges المدينة العتيقة La Cite Antique (١٨٦٥)، وكتاب ماكلينان Mclennan الزواج البدائى Primitve Marriage (١٨٦٥)، وكتابى تايلور Taylor أبحاث فى التاريخ المبكر للجنس البشرى. Researches into The Early History of Mankind (١٨٦٥) ثم الثقافة البدائية Primitive Culture

---

(1) Appelbaum, op.cit .p. 128.

(٢) عبد الغنى، محمود حمدى؛ المرجع السابق.

(١٨٧١)، وكتابي لويس هنري مورجان L.H.Morgan أنساق القرابة والمصاهرة في العائلة الإنسانية (١٨٦٩) ثم المجتمع القديم The Ancient Society (١٨٧٧) .وعلى الرغم من أن معظم هذه المؤلفات لم تضع دراسة المجتمع البدائي في المقام الأول، وإنما اهتمت بمقارنة المراحل المبكرة لتطور المجتمعات في العصور الكلاسيكية اعتماداً على النصوص المتداولة حينذاك إلا أنها تعد من أمهات الكتب الكلاسيكية في الأنثربولوجيا.(١)

وفي الواقع يعتبر ماكلينان وتايلور من أوائل العلماء الذين نظروا للمجتمعات البدائية بذاتها على أنها موضوعاً جديرا بأن يقصر العلماء عليه جهودهم، وقد كانا أول من اهتم في القرن التاسع عشر بتجميع المعلومات المتداولة حول المجتمعات البدائية وقدمها في صورة منهجية منظمة. والحقيقة أن طريقة اختيارهم للمعلومات البدائية وتصنيفهم لها قد زودهم بالحقائق الأثنوجرافية التي لم تتوفر لغيرهم، والأهم من ذلك هو حرصهم على عدم الإنزلاق في البراهين الجدلية الفرضية التي انزلق إليها في أغلب الأحايين أسلافهم. ولذلك تميزت كتاباتهم بصبغة نقدية قوية لانعثر عليها في كل الكتابات المعاصرة لهم، هذا بالإضافة إلى أنهم قاموا بتفسير النظم الاجتماعية في ضوء النظم الاجتماعية الموجودة في المجتمع في الوقت نفسه و في فترة سابقة من تاريخه فقد كانوا يشايعون بلا مواربة المنهج السوسيولوجي في التفسير كما سيتطور فيما بعد على يد أميل دوركايم.

ولكن ذلك لايعني أن الكتابات الأنثربولوجية في العصر الفيكتوري كانت كلها صحيحة أو صائبة دائما، لأن معظمها كان ساذجاً حتى في ضوء المعلومات البدائية المعروفة والمتداولة على أيامها، وكان الكثير من الأخبار البدائية التي تناولتها سطحية وضحلة وتعبر عن آراء فيها الكثير من التحيز والهوى. فقد أعتقد الأنثربولوجيون الفيكتوريون أنهم يسجلون التاريخ القديم، ولذلك فإنهم لم يهتموا

(1) Evans - Pritchard: Social Anthropology: Past and Present ; op.cit.

بالمجتمعات البدائية لذاتها، وإنما لاستخدامها فى إقامة النماذج «الفرضية» للتاريخ المبكر للجنس البشرى، ولتاريخ المجتمعات الأوربية بوجه أخص. ولذلك اتجهت تلك الكتابات اتجاها نشوئيا Genetic بتأثير الفيلولوجيا التاريخية ومع ذلك فقد اخفقت المراحل التطورية التى كانت تتحدث عنها فى التعادل مع الحقائق أو الوقائع الأثنوجرافية(١). والأهم من ذلك فقد أثارت المسلمة المحورية التى ميزت الكتابات الفيكتورية (التى تذهب إلى أن المجتمعات البشرية تتطور فى إتجاه التكيف المتزايد من خلال عملية التباين البنائى الوظيفى وتصبح أكثر تعقيدا بمرور الزمن) الكثير من التساؤلات فى ضوء المعطيات الأنثربولوجية التى أصبحت فى متناول الأيدى للمرة الأولى فى بداية القرن العشرين. والأهم من ذلك فلقد أثارت الصياغات الفيكتورية التطورية السؤال الرئيسى الذى يدور حول الأسس الأمبريقية للبحث الأنثربولوجى، وهو الموضوع الذى قدر له أن يتطور ابتداء من فجر القرن العشرين.

ثانياً: بداية الأنثربولوجيا الوضعية:

قام البحث الأنثربولوجى طوال العصر الفيكتورى على العمل المكتبى، حيث كان البحث الأنثربولوجى فى هذا العصر موزعاً بين المنظرين المكتبيين الذين لايفصلون بين البحث التاريخى والبحث الاجتماعى، ولايهتمون سوى بالأحداث التاريخية الكبرى للجنس البشرى، وبين العاملين الميدانيين الذين يقومون بجلب الأخبار الاثنوجرافية حول المجتمعات البدائية من شتى المناطق الجغرافية النائية إلى الوطن. فقد اكتفى المنظرون فى هذا العصر بوضع النظريات «الفرضية» حول تطور النظم الاجتماعية، وسد نقص المعلومات التى يجلبها لهم غيرهم نيابة عنهم بأفكارهم النظرية. ولقد بلغ الثقة فى تلك الممارسات حداً كبيراً، ومع ذلك فلقد كان قصر الجهود الأنثربولوجية على الجهود النظرية المكتبية شىء، وتأسيس علم

(1) Appelbaum, op.cit .p. 126.

وضعي كالأنثربولوجيا الاجتماعية شيء آخر. ولم يكن يكفي بطبيعة الحال تأسيس مثل هذا العلم الاقتصار على القراءة التأملية، والإكتفاء بتوزيع استطلاعات الرأى واسداء النصح لمن يقوم بجمع «الأخبار والمعلومات» البدائية نيابة عنهم، وإنما كان يتطلب الإسراع إلى اكتشاف «الحقائق» بأنفسهم.

وفى الواقع لم تبدأ الأنثربولوجيا الاجتماعية فى الظهور فى الفكر الحديث بوصفها علما أكاديمياً يتميز بأسلوب خاص فى التفكير والبحث معاً إلا حين بدأ المتخصصون فى النظر إلى الأبحاث الميدانية على أنها إحدى الممارسات المستقلة للعلم، ومنذ ذلك الحين لم تعد الأنثربولوجيا الاجتماعية بمعناها الحديث تقوم بتقسيم العمل الأنثربولوجي بين شخصين، شخص يقوم بالتفكير الخالص، والآخر يقوم بجمع «الأخبار» فى المجتمعات النائية، وإنما أصبح هذان الشخصان شخص واحد، يقوم بالعمل الميدانى وبتأليف الصورة النظرية ا لخاصة فى الوقت نفسه. وأصبحت مهمة الباحث الأنثربولوجى تنحصر فى فحص الأفكار النظرية فى ضوء المعلومات الأثنوجرافية فى الميدان بنفسه[١].

وفى الحقيقة لم يغادر علماء الأنثربولوجيا رحاب المكتبات إلى رحاب الجغرافيا لدراسة موضوعات علمهم بأشخاصهم إلا فى عام ١٨٩٤، ففى هذا العام قام بالدوين Baldwin وسبنسر Spencer وجالين Gallin ببعثه ميدانية لدراسة سكان استراليا الأصليين. وبعد هذا التاريخ بأربعة أعوام كانت بعثة كمبردج المشهورة إلى مضايق توريس Torriss Straits (١٨٩٨) تحت قيادة هادون، ولقد نجحت هذه البعثة نجاحاً باهراً بسبب الترحيب الهائل الذى صادفته من السكان الأصليين هناك وبسبب التنظيم الدقيق والاعداد المسبق لها. فقد أنفق هادون عشرة سنوات كاملة فى اقناع المتخصصين للانضمام للبعثة وفى جمع المال اللازم لها لقد كان هادون (عالم الحيوان) على يقين أن دراسة الحياة البدائية وتسجيل

(1) Quiggin, A.H.; "A. C.Haddon" in Intern. Ency. of Soc. Scis; Vol.6.

مختلف الخصائص الفيزيقية التى تتطلبها الدراسة الانثربولوجية لايحتاج فقط إلى المتخصصين الذين يقومون بمعانية الخصائص للسكان أو اللغة أو الدين والفلكور والفنون والحرف والموسيقى، وإنما يحتاج إلى بعض من علماء النفس لدراسة نمط التفكير البدائى السائد، ولذلك فقد حرص على ضم ريفرز Rivers وتلميذه مايرز Myers وسليجمان Seligman وماكدوجال McDougall، وعدد من الأسماء التى أصبحت أعلاماً خفاقة فى تاريخ فى الأنثربولوجيا الاجتماعية فيما بعد، ولقد اكتمل الفريق بانضمام راى Ray المدرس الابتدائى الذى كان يتمتع بمعرفة جيدة باللغات المالينيزية، وويلكن Wilkin المصور المحترف الشغوف بتصوير الثقافة المادية[1]، وبعد العودة من البعثة تفرغ هادون للاشراف على تحرير التقارير التى نشرت فى ستة مجلدات ضخمة بين عامى ١٩٠١ و ١٩٣٥، واحتفظ بها فى جامعة كمبردج Cambridg كمجلدات مقدسة.

ولقد عدت هذه البعثة بمثابة نقطة التحول فى تاريخ الانثربولوجيا الاجتماعية البريطانية، إذ ترتب عليها عدد من الأمور المهمة التى تركت آثارها العميقة على الأنثربولوجيا الاجتماعية ذاتها.

الأمر الأول: هو ظهور الأنثربولوجيا الاجتماعية للمرة الأولى كعلم أكاديمى يحتاج إلى التخصص والتفرغ الكاملين.

الأمر الثانى: هو اعتبار الخبرة الميدانية بمثابة العنصر الجوهرى المهم فى تكوين المتخصصين الأنثربولوجيين.

الأمر الثالث: هو القضاء على روح الثقافة النظرية الكلاسيكية التى كانت شائعة فى الأنثربولوجيا الفيكتورية وبداية النظر للممارسات الأنثربولوجية بوصفها علماً ميدانياً أكاديميا وليس مجرد ممارسة أدبية تحرص على مداعبة تيار الفضول والاثارة لدى القراء الأوربيين[2].

---

(1) Quiggin, op. cit.

(1) Leach, E.; "W.H.R.Rivers"; in Intern. Ency. of Soc. Scis; Vol. 14 pp. 526- 529.

فعلى أثر هذه البعثة قام ريفرز فى عام ١٩٠٢ بدراسة فى جنوبى الهند نشرها تحت عنوان التودا Todas، وقد ضمنها شرحاً دقيقاً لظروف العمل الميدانى فى الانثربولوجيا الاجتماعية الحديثة، وتلك الدراسة تعد مثالاً رائعا للدراسات الأنثربولوجية الحديثة المدعومة بالمراجع والأسانيد العلمية وفى عامى ١٩٠٦ و ١٩١٤ على التوالى عاد ريفرز إلى مالينيزيا لدراسة سكان جزر البانكس Banks Islanders، ولقد نشر نتائج هذه الدراسة فى كتابين فى عام ١٩١٤، الكتاب الأول كان بعنوان «تاريخ المجتمع المالينيزى»، والثانى بعنوان «القرابة والتنظيم الاجتماعى» أما سليجمان فقد عاد إلى مالينيزيا فى عام ١٩٠٣ وقام بدراسة شاملة لثقافة الماسيم Massim نشرها فى كتاب حمل عنوان: «المالينيزيون الأصليون فى غينيا البريطانية» (١٩١٠). فعلى الرغم من قصر الفترة الميدانية التى مكثها سليجمان فى مالينيزيا إلا أن النتائج التى نشرها فى هذا الكتاب كانت مبهرة، وقد كان أهم مايميز هذا الكتاب هو تركيز سليجمان بصفة رئيسية على المشاهدات العينية وعلى المعلومات الشخصية التى حصل عليها بنفسه من الإخباريين الذين قام باختيارهم بعناية، والمهم أن هذا الكتاب هو الذى أرسى مقومات البحث الأنثربولوجى الميدانى فى الربع الأول من القرن العشرين(١).

وفيما بين عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٨ قام رادكليف براون Rad Cliff- Brown ببعثته الميدانية لدراسة سكان جزر الاندمان Andaman Islanders بأستراليا، تحت إشراف كل من هادون وريفرز اللذان كانا من أشد علماء الأنثربولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا فى ذلك الوقت إيمانا بأن الأنثربولوجيا الاجتماعية علم طبيعى محكم وليس مجرد ممارسة اثنولوجية أدبية، وعلى الرغم من أن رادكليف براون لم يقدم فى الكتاب الذى نشره حول هذه الدراسة عام ١٩٢٢ بعنوان «سكان جزر الأندمان» أية إسهامات نقدية لتطوير أساليب العمل الميدانى فقد اعتبرت هذه الدراسة من أهم الدراسات الميدانية التى أجريت فى الأنثربولوجيا الاجتماعية،

(1) Fortes, M.; "C.G. Seligman" in Entern. Ency. of Soc. Scis, Vol. 15.

وذلك لأنها كانت أول محاولة يقوم بها أحد الأنثربولوجيين المتخصصين لفحص إحدى النظريات السوسيولوجية بالرجوع إلى مجتمع بدائي وقد حرص رادكليف براون فى تلك الدراسة على تحليل البناء الإجتماعىSocial Structure تحليلا موضوعيا، مستعينا فى ذلك بالمقدمات المنطقية التى وضعها أميل دوركايم لعلم الإجتماع الفرنسى(١).

أما برونيسلاف مالينوفسكى B.Malinowski فهو بعد بالنسبة لتاريخ الأنثربولوجيا الاجتماعية أول الذين حددوا الشروط الجديدة لهذا العلم بالمعنى الأحدث للكلمة. فهو قد اعتبر الأنثربولوجيا الاجتماعية شكلا مميزا من أشكال الثقافة الغربية حين تتصدى نظرياً للثقافات الأخرى، وقد خاض معركة شرسة ضد الأحكام «الفرضية» المطلقة التى أطلقها أنثولوجيوا العصر الفيكتورى على الشعوب البدائية، التى وضعتها فى مستوى ثقافى مفترض لأحدى الحضارات المتدنية، ففى رسالته الأولى التى نشرها حول: العائلة بين سكان استراليا الأصليين The Family Among The Australian Aborigines فى عام ١٩١٣ رفض مالينوفسكى النظر للعائلة الاسترالية الأصلية فى ضوء الأحكام التطورية الفرضية، وشكك فى إمكانية اعتبار الاستراليين الأصليين مجرد أمثلة «حية» تشير للمراحل المبكرة لتطور الإنسان أو بوصفهم أجدادنا المعاصرون، فلقد كان للعلاقات العائلية الاسترالية - فى رأيه - مظاهرها وتصوراتها الخاصة بالاستراليين وحدهم، وعلى هذا الأساس قدم مالينوفسكى تصورة حول «الثقافة الفريدة»، ولقد أصبح هذا المفهوم منذ ذلك التاريخ من القضايا الأساسية التى شغلت تفكيره فى كل مراحل حياته الاكاديمية، فقد كان مالينوفسكى يعتقد أن الحقائق الفريدة للثقافة هى وحدها الحقائق الكفيلة بتقديم أو إقامة البرهان الأنثربولوجى الدقيق(٢).

---

(١) ايفانز بريتشارد؛ الأنثربولوجيا الاجتماعية؛ ترجمة أحمد أبو زيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠.

(2) Frazer, Sir, J.; "Preface" to B. Malinowki : Argonauts of The Western Pacific; Routledge and Kegan Paul LTD; London 1950 (1922).

لقد كان لدى مالينوفسكى فى الحقيقة طموحاً شديداً فى إقامة نزعة إنسانية جديدة New Humanism نزعة تكرس جهودها لدراسة الحقائق الجوهرية للشعوب البدائية الحية دراسة أمينة، وقد كان على يقين أن «الأخبار الاثنوجرافية» لايمكن أن تفهم فى فراغ In Vacu وإنما يجب أن تفهم قبالة البيئة الثقافية الفريدة التى وجدت فيها.

فالعصا – على سبيل المثال – لايمكن أن تدرس بوصفها موضوعاً اثنوجرافيا إلا فى ضوء السياق الثقافى الذى يستخدمها وبذلك تكون عصا لعزق الأرض الزراعية، أو عصا لهش الأغنام أو عصا شعائرية، أو عصا الساحر، أو عصا يتوكأ المرء عليها أو حتى صولجاناً ملكياً... وهكذا. وكذلك فليس للكانوا Canoe (وهو قارب طويل يعمل بالمجاديف الذراعية) أى معنى وهو معزولاً عن سياقه الثقافى، إلا حين نفهم من يقوم بقطع الشجرة التى سيتم تجويفها على هيئة قارب رفيع طويل، ومن يقوم بتجويف الشجرة أوبناء القارب، ومن له حق الإبحار بالقارب، وما التعاويز السحرية التى تتلى أثناء قطع الشجرة أو أثناء بناء القارب، ومن يقوم بإنزاله إلى البحيرة لإستخدامه. وما استخداماته الرئيسية فى الحياة المحلية، وماعدد الأفراد الذين سيبحرون به... وهكذا. لقد كانت القاعدة الرئيسية فى الأنثربولوجيا الاجتماعية عند مالينوفسكى هى رؤية الوقائع الثقافية من وجهة نظر البدائيين أنفسهم(١).

ولقد وضع مالينوفسكى بكتاب «الأرجونوتس فى المحيط الباسفيكى» Argonauts of The Western Pacific (١٩٢٢) الشروط الجديدة للعمل الميدانى، وأول هذه الشروط هى طول فترة إقامة الباحث الميدانى إلى الحد الذى يمكنه من القيام بالتحليل المكثف ليس فقط للمظاهر الخارجية من الثقافة فحسب وإنما للمعانى التى تقدمها له: «على الباحث الميدانى فى هذا المجال أن يترك مكانه

(1) Malinowski, B. ; Argonauts of The Western Pacific; Routledge & Kegan Paul LTD, London 1950 (1922). The Introduction.

على المقعد الوثير حيث اعتاد أن يجمع مايقوله «الرواة» ويسجل قصص البدائيين وأخبارهم.وأن يذهب بنفسه إلى القرى وأن يرى كيف تعمل الشعوب فى حدائقها، وعلى الشاطىء وبين الأدغال، عليه أن يبحر معهم في قواربهم، وأن يزور قبائل غريبة وأن يراقبهم أثناء صيد الأسماك وصيد الحيوانات، وأن يسافر معهم فى رحلاتهم الموسمية فى البحر، يجب أن تأتيه المعلومات بكامل نكهتها من خلال مراقبته الخاصة للحياة البدائية بدلاً من أن يقتصر عمله على معلومات منقوصة وأخبار قليلة ومحادثات يسيرة، إن القيام بالأبحاث الأنثربولوجية فى الهواء الطلق عمل صعب ولكن فائدته غير محدودة[١].

فعلى الباحث الأنثربولوجى الذى يرغب فى تكوين صورة أمينة عن مجتمع السكان الأصليين أن يعيش بعيداً عن سائر البيض الأوربيين وأن يقطع سائر الصلات معهم ما أمكن، وذلك لأن المعلومات التى يقدمونها عن السكان الأصليين تنم عن ذهن غير مجرب وغير معتاد على صياغة الأفكار بدقة - ولقد كانت اراؤهم فى الغالب (وهو يتحدث هنا عن تجربته) مثقلة بالأخطاء والأحكام المسبقة، وهم ينفرون دائما ممن يحاول معهم الوصول إلى أراء موضوعية وعلمية تتعلق بالسكان الأصليين، إن البيض الأوربيين سواء كانوا إداريين أم مبشرين أم تجار يستخفون دائما بما يبدو أساسيا للباحث ومايبدو بنظره أنه يشكل كنزا علميا وبخاصة استقلالية وخصوصية المميزات العقلية والثقافية للسكان الأصليين. ولذلك فإن على الباحث أن يعيش مع السكان الأصليين وفى قلب موطنهم. وبذلك يستطيع إزالة صفة «الأوربى» عن نفسه ويكون وجهة نظر موضوعية، وجهة نظر من يُرى ولايرى حيث يراه معظم السكان الأصليين بينهم طول الوقت، ولكن وجوده لايقلقهم، لأنه ليس عنصراً مخلاً بالحياة البدائية التى يتولى دراستها[٢].

(1) Malinowski, B.; op.cit.

(2) Kaberry, PH.; "Malinowski's Contribution to Field - Work Methods and The Writing of Ethnography"; in Man & Culture; ed. by R. Firth op.cit. pp. 71 - 91.

لقد شكل كتاب «الارجونوتس ...» فى الحقيقة فصلاً حاسما فى تاريخ الأنثربولوجيا الاجتماعية الحديثة، ولقد كانت الميزة الاستثنائية فى ممارسة مالينوفسكى للعمل الميدانى تكمن قبل أى شيء فى عدم استخدامة للمترجمين، وقلة استعانته بالرواة أو بالأخباريين Informants، وهو لم يكن يستعين بهم سوى لتعزيز المعلومات التى سبق له معرفتها بالفعل. حيث كانت المراقبة الشخصية المباشرة تمثل فى رأيه الحد الفاصل نحو إقامة البرهان[١] ولذلك لم يدخر مالينوفسكى جهدا لتعلم لغة السكان الأصليين، وقد جعل من تعلم الباحث الميدانى للغة السكان الأصليين الذى يقوم بدراستهم أحد المعتقدات الأساسية فى الأنثربولوجيا الاجتماعية الحديثة. ولقد شرح فى الفصل التمهيدى الذى خصصه فى كتاب «الأرجونوتس...» للحديث عن الموضوع والمنهج ومنظور البحث كيفية استهلال الباحث للعمل الميدانى، وأهمية تعلمه للغة المحلية، وتحدث عن الفارق بين الغوص المتقطع فى حياة السكان الأصليين، وكون الباحث على اتصال وثيق معهم، وكيف تنامت قدرته شيئا فشيئا على استدعاء الروح الحقيقة للسكان الأصليين بقدر ماتزايدت معرفته بلغتهم المحلية.

كان مالينوفسكى بالفعل هو الأب الموجد للاهتمام بتعلم لغة السكان الأصليين، وقد كان هذا الشرط المنهجى فى الواقع يمثل الإختلاف الجوهرى بين نمط الأبحاث الميدانية التى قام بها اساتذته العظماء من أمثال هادون وريفرز وسليجمان وبين نمط البحث الميدانى الذى قام «هو» به، ولقد صادفت تلك التوصية المنهجية بين الأنثربولوجيين المعاصرين له والتاليين الاستحسان العام، وارتفعت إلى مايشبه الرمز الذى يميز الأنثربولوجيا الاجتماعية الحديثة، فلقد أصبحت معرفة لغة السكان الأصليين هى التى تميز بين الباحث الأنثربولوجى المتخصص الذى يقوم بالتحليل المركز لأحد المجتمعات البدائية، وبين الجامع

(١) هيلارى هنسون، الأنثربولوجيون الاجتماعيون واللغة: التطور البريطانى المستقل، ترجمة محمود حمدى عبد الغنى، دار نوار للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٨ .

الهاوى للأخبار البدائية المثيرة للفضول، وقد أصبح تعلم اللغة المحلية هى المؤهل الضرورى للبحث الميدانى الذى لايرق إليه أى تدريب سوسيولوجى أخر يمكن أن يخضع له الباحث الميدانى، ولذا أصبح من المتفق عليه أن يثبت الباحثون الميدانيون فى مقدمات بحوثهم Monographs أنهم قاموا بالبحث الميدانى بعد أن تعلموا اللغة المحلية واتقنوها بل وأن ينكروا فى الوقت نفسه استعانتهم بالمترجمين أو أى مصادر أخرى فى حصولهم على المعلومات. ولقد أصبح تعلم اللغة المحلية للسكان الأصليين الذين ستجرى بينهم الدراسة الميدانية بين علماء الانثربولوجيا المحدثين بمثابة «برنامج عمل» هذا على الرغم من اعتراف الكثير منهم باخفاقهم فى انجاز هذا البرنامج(١).

بدون شك لقد أبدع مالينوفسكى شروطاً جديدة للعمل الميدانى فى الأنثربولوجيا الاجتماعية، وبالفعل فقد كان أفضل ماقدمه لهذا العلم هو أنه أخذه معه من رحاب التفكير المنطقى الأوربى، إلى رحاب الحياة البدائية الحية. ولقد نجح بكل اقتدار فى تحويل الانثربولوجيا الاجتماعية من الدراسة التاريخية للجنس البشرى، إلى الدراسة الحية المتجددة للأعراف المحلية، ولم تكن جدارته تكمن فى الواقع فى سعة التفسيرات النظرية الكونية، وإنما كانت تكمن فى سعة ملاحظاته الواقعية للأفعال الاجتماعية الحية، فقد كان مالينوفسكى باحثا ميدانياً موهوباً وقد استطاع ايجاد عصراً جديداً للأنثربولوجيا الاجتماعية، أصبحت أعماله الرائدة جزءاً جوهرياً من تاريخ هذا العلم.

ثالثاً: الأصول الفكرية للأنثربولوجيا الاجتماعية:

كما سبق أن رأينا فى الصفحات السابقة لقد بدأت الانثربولوجيا الاجتماعية فى الظهور فى الجامعات البريطانية منذ بداية هذا القرن، كاتجاه متميز فى دراسة

(1) Winch, p.; "The Idea of Social science"; in Rationality; ed. by B.R. Wilson; Oxford Basil Blackwell 1970.

المجتمع يتمتع باسلوب خاص فى البحث الميدانى والتفكير النظرى معاً. وفى الواقع كانت الانثربولوجيا الاجتماعية ذاتها اختراعاً بريطانيا، وقد كان من النادر أن يستخدم الاسم قبيل الحرب العالميه الأولى، وعلى الرغم من أن السير جيمس فريزر قد شغل أول كرسى بريطانى للانثربولوجيا الاجتماعية بجامعة ليفربول فى عام ١٩٠٧ ، إلا أن النظرية التطورية المكتبية التى قدمها فريزر كانت تختلف تماماً عن الانثربولوجيا الميدانية المكثفة التى قدمها الأنثربولوجيون البريطانيون التاليون. والتى كانوا يأملون من ورائها التحرر من البحث عن الاجراءات التطورية التى سادت البحث الانثربولوجى طوال العصر الفيكتوى، وفى الوقت نفسه إرساء قواعد التحليل الانثربولوجى المكثف للمجتمعات البدائية.

ولقد أدى ظهور النزعة الاكاديمية فى الانثربولوجيا الاجتماعية واهتمام المتخصصون باجراء الدراسات الميدانية إلى ظهور اتجاهين عقليين رئيسيين: الاتجاه الأول وهو الاتجاه الذى يرى أن الانثربولوجيا الاجتماعية هى أقرب فى طبيعتها إلى العلم الطبيعى، وبالتالى يجب أن يطبق الباحثون المنهج الاستقرائى الذى يطبقه عالم الفيزياء، **ولذا** ينبغى على الباحث الانثربولوجى فى دراسته للحياة الاجتماعية أن يقف موقف الحياد؛ على اعتبار أن من الممكن تكرار البحوث الاجتماعية، والوصول إلى القوانين العلمية، وقد ارتبط هذا الاتجاه بطموح العلماء البريطانيين (ريفرز ورادكليف براون) فى تحويل الأنثربولوجيا الاجتماعية إلى علم طبيعى للمجتمعات.

أما الاتجاه الثانى فقد رأى أن الأنثربولوجيا الاجتماعية هى فرع من فروع المعارف الانسانية، على اعتبار أن التجربة الاجتماعية فى أى مجتمع من المجتمعات هى تجربة فريده ومتميزه بذاتها، وأن السلوك الاجتماعى سلوك خاضع للمعايير، ومن ثم فإنه لا يمكن تكرار الدراسة الميدانية للمجتمع فى فترات زمنية مختلفة، أو تكرار هذه الدراسة فى عدد من المجتمعات التى يقال عنها أنها مجتمعات متشابهة

وذلك بغرض التوصل إلى القوانين العلمية العامة التى تقوم بتفسير الظواهر الاجتماعية وعلى أى حال فمع نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين كان هذان الاتجاهات العقليان قد نجحا بالفعل فى تحقيق وضع راسخ فى الأنثربولوجيا الاجتماعية داخل بريطانيا، ولكن الواضح أن الأنثربولوجيون البريطانيون لم يكونوا جميعاً من نسل نظرى واحد، ولم يتقيد الكثيرون منهم بالتعاليم النظرية التى قدمها الممثلان الرئيسيان لهذين الاتجاهين، وهما رادكليف براون وبرونيسلاف مالينوفسكى، اللذان تشابهت أفكارهما فى البداية ثم تعارضت فيما بعد وهذا ليس غريباً فقد تبنى كل منهما نموذجاً مختلفاً للأنثربولوجيا الاجتماعية. ففى حين افتراض رادكليف براون أن الأنثربولوجيا الاجتماعية علم تعميمى مقارن، هدفه الأساسى هو فهم المجتمع، افترض مالينوفسكى أن الأنثربولوجيا الاجتماعية هى فرع من الإنسانيات Humanities هدفها الأساسى ينحصر فى فهم الطبيعة البشرية ولذلك نظرا إلى المجتمع الانسانى بوصفه النتائج المباشر للاهتمامات الوجدانية للأفراد الذين يشكلونه من حيث هم أفراد.

١- الجذور الفلسفية:

وفقا لما ذهب إليه جون ستيوارت ميل J.S.Mill فإن قضية التفسير فى العلم الفيزيائى هى قضية تجريبية يمكن أن تتصف بصفة العمومية على اعتبار أنها تلخيص للأسباب الجزئية لحدوث الظواهر الطبيعية، وأن القواعد الوثيقة بالتفسير هى تلك القواعد التى تحكم اجرائيات الباحثين فى العالم المشار إليه، أما تفسير الظواهر الإنسانية فلم يكن يحتكم - فى رأيه - إلى تلك التعميمات السببية (ربط العلل بالمعلولات) الخاصة بردود أفعال الأفراد نحو البيئة الطبيعية، وإنما يحتكم إلى معرفتنا الخاصة بالنظم الاجتماعية وطرائق الحياة التى تعطى الأفعال الإنسانية معناها. فتفسير السلوك الإجتماعى عنده يرتبط بسياق الظواهر الإنسانية داخل أحد الأنماط العقلية المحددة.[1]

---

(1) Giddens, A.; "Trends in The Philosophy of The Social Sciences"; in New Movements in The Social Sciences and Humanities, ed. by Bary Du Four, (pp. 7 - 19).

ولقد رفض كونت A Comte الأخذ بمبدأ السببية الذى ذهب إليه «ميل»، وأخذ بدلاً منه بمبدأ الحتمية Determinism على اعتبار أن مبدأ السببية يتضمن معان ميتافيزيقية، وأن العالم الطبيعى ليس مجرد عالما من العماء المحض تنظمه السببيه، وإنما هو عالم منتظم وفقا للقانون، والقانون هو السبب أو العلة الوحيدة التى تفسر اطراد الأحداث وتعاقبها، ولذلك يجب على المرء أن لا يقول مع الفلاسفة لكل علة معلول وإنما يجب أن يقول لكل حدث أو ظاهرة قانون يفسرهما ومهمة الباحث العلمى هى البحث عن القوانين[١].

وقد صك كونت مصطلح الوضعية Positivism للمرة الأولى، وقد كان البحث عن القانون هى غاية العقل البشرى فى المرحلة الوضعية النهائية من قانون المراحل الثلاث التى مر بها العقل البشرى، ففى المرحلة اللاهوتية كان العقل ينزع نحو التفسير السببى المشخص، وفى المرحلة الميتافيزيقية كان ينزع نحو التفسير السببى المجرد، أما فى المرحلة الوضعية فإن العقل الوضعى ينتقل من إرادة العلة (سواء كانت مشخصة أم مجردة) إلى إرادة الطبيعة، وينزع نحو اكتشاف القوانين.

ولقد كان أهم مايميز الوضعية عند كونت هو فصله الحاسم بين مجال العلم ومجال الفلسفة. ولقد صك كونت مصطلح علم الاجتماع Sociologie ليغطى به كل العلوم الاجتماعية، وليؤكد بحزم بأن علم الإجتماع يتماثل مع علم الطبيعة، ولقد اعتبر علم الإجتماع (أو الفيزياء الاجتماعية كما كان يطلق عليه) بمثابة العلم الذى يختص بدراسة الظواهر الاجتماعية على اعتبار أن للظواهر الاجتماعية نفس الروح المميزة للظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية والبيولوجية، أى أن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين كونية لاتتغير. ولقد صنف كونت العلم الطبيعى إلى ست علوم أساسية هى الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ثم أخيراً علم الإجتماع، الذى عده آخر العلوم لأنه أكثر العلوم

---

(1) Giddens,A. op.cit .

الطبيعية خصوصية وتعقيداً، وأن العلوم الخمسة الأخرى السابقة عليه إنما هى علوم ممهدة له، وبنشأة علم الإجتماع اكتملت الفلسفة الوضعية عند كونت وأصبح بالإمكان فى رأيه السيطرة على المجال الإجتماعى كما تم السيطرة على المجال الطبيعى[1].

يجب أن نشير إلى أن الفلسفة الوضعية عند كونت لم تكن تعنى فقط أن هناك وحدة إجمالية بين علم الإجتماع والعلوم الطبيعية، وإنما كانت تعنى أيضا تصوراً خاصا لمفهوم العلم الوضعى. حيث يفترض مفهوم العلم الوضعى عنده الاستناد إلى الدراسة المباشرة التى تقوم على المراقبة والمشاهدة للعالم الملاحظ سواء كان طبيعيا أو اجتماعيا، وأن المهمة الرئيسية للعلم الوضعى هو إيجاد القوانين العامة بالاعتماد على هذا الاجراء، وعلى هذا الأساس أصبح علم الاجتماع وفقا لمفهوم العلم الوضعى عند كونت علما وضعياً وخضعت الظواهر الاجتماعية لكل ماتخضع له الظواهر الطبيعية أى أصبحت طريقة دراسة الظواهرة الاجتماعية لاتختلف بأى حال عن طريقة دراسة الظواهر الطبيعية، أى يعتمد علم الاجتماع الوضعى على الملاحظة المباشرة والتجريب، وذلك بهدف التوصل إلى القوانين العامة التى تخضع لها الظواهر الاجتماعية حتى يمكن التحكم فيها أو التنبؤ بها.

وإذا كان «الأستاذ» أوجست كونت قد رفض فكرة العلية وأعلن زوالها من المرحلة الوضعية للعقل البشرى أى فى مرحلة البحث العلمى الحديث، فإن «التلميذ» دوركايم علق عليها آمالاً عظاما فى تأسسه لعلم الإجتماع الخاص به كما سنرى من الصفحات التالية.

٢- الأسس العلمية لعلم الإجتماع الفرنسى:

تنحصر المشكلة الأولية فى أى علم من العلوم فى طبيعة الحقائق أو الظواهر التى يعالجها، ولقد كانت هذه المشكلة احدى المشكلات الخطيرة التى سادت فى

---

(١) عبد الغنى، محمود حمدى، المرجع السابق.

آواخر القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، وهو أمر يعود إلى النزعتين الفلسفتين المتوارثتين من الإرث الفلسفي للعصر. وهما المثالية الألمانية German Idealism والوضعية التجريبية Emprcist Positivism اللتين التقيتا في نقطة واحدة، انحصرت في ميلهما كليهما إلى عدم النظر إلى المجتمع بوصفة ظاهرة أولية، وإنما بوصفة نتيجة أو ظاهرة ثانوية مشتقة. ولقد ميز الفلاسفة الوضعيون بين الحقيقة الموضوعية للأشياء أو الأحداث وأى إدراك ذاتي مستقل لها. ولأن المجتمع لايكتسب شرعية الحقيقة الفيزيائية الموضوعية فقد عولج بوصفه نتاجاً للطبيعة البشرية ولأحاسيس الأفراد وأفعالهم[1] ولذلك كتب جيومى بنتام J.Bentham: «ما المجتمع إلا تجسيداً وهمياً، أنه حصيله الأفراد الذين يؤلفونه»، ولقد كان افتراض المجتمع بوصفه نتاجاً للأفراد الذين يعمل كل منهم وفقاً لمصلحته الخاصة هو في الواقع الأساس البديهى للمذهب النفعى، ولذلك كتب دوركايم ناقداً أسلافه: «لم يجد هؤلاء في المجتمع شيئا حقيقيا سوى الفرد، فقد كان الفرد عندهم بمثابة الحقيقة الوحيدة الملموسة التى يمكن للملاحظ التوصل إليها»[2].

لم يكن «المجتمع» بالنسبة لدوركايم يمثل إحدى الحقائق الثانوية، أو الناتج المترتب على النشاطات الفردية، أو يعبر عن المظاهر الطارئة للعقل، وإنما كان يمثل في رأيه الحقيقة الأولية البديهية، وإذا أراد المرء فهم السلوك الإنسانى (الرمزى) فإن عليه التسليم بوجود الحقيقة الاجتماعية. وذلك ببساطة لأن الإنسان لايعيش بين موضوعات أو أفعال وحسب، وإنما يعيش في الواقع بين الموضوعات والأفعال التى تكسوها المعانى. وعلى هذا الأساس لايمكن للمرء دراسة معانى الموضوعات أو الأفعال كما لو كانت حصيلة للادركات الذاتية. حيث لايمكن له غض البصر طرفة عين عن الدلالات الاجتماعية للموضوعات والأفعال الإنسانية،

(1) Lukes, S.; Emile Durkheim: His Life & work; Penguin Books, 1981.

(2) Lukes ; op.cit .

ذلك لأنها تعد حقائق اجتماعية، ولذلك حرص دوركايم على إقامة علم الاجتماع علم مفهوم الواقع الموضوعي للحقائق الاجتماعية. وفي الحقيقة لقد عكس دوركايم المنظور السابق الذي جعل المجتمع مجرد نتاجا للسلوك الفردي، فقد كان يؤمن بأن السلوك الفردي ممكن فقد بفعل النظم الاجتماعية التي يتمثلها الأفراد منذ نعومة أظفارهم، فتلك النظم هي التي تقدم - في رأيه - الشروط الأولية أو البديهية للخبرة الإنسانية[١].

ـــ والأمر الذي له مغزاه هنا هو ابتعاد دوركايم عن التفسير التاريخي، فلم يكن تفسير الظواهر الاجتماعية يتطلب في رأيه اكتشاف الظواهر السابقة زمنياً والربط بينهما في إحدى السلاسل التاريخية السببية وإنما يتطلب تحديد وضع الظواهر داخل أحد الانساق، فقد اعتقد دوركايم أن الاكتفاء باقتفاء أثر الأسباب التاريخية للأحداث الاجتماعية يمكن أن يفقد دراسة السلوك الإنساني أهم مقوماتها، فمن هنا رأى ضرورة دراسة الحقائق الاجتماعية داخل الهيكل الإجتماعي العام بوصفها جزءا من نسق محدد من الأعراف والقيم. لقد كان السؤال الرئيس الذي طرحه دوركايم: ما الأعراف والقيم التي تسمح للبشر بالعيش معاً داخل المجتمع؟ وتمكنهم من التصرف تجاه بعضهم بعضا بالطريقة التي يتصرفون بها؟ ولقد كانت أجابته تؤدي مباشرة إلى وجود «علم» يختلف كلية عن العلم الذي يبحث عن الأسباب التاريخية، فقد حدث انتقال من المنظور التاريخي Diachronic إلى المنظور التزامني Synchronic وهو منظور لايبحث عن الأسباب التاريخية للأحداث الواقعة بقدر مايبحث عن نسق العلاقات الوظيفية العقلانية الكامن وراءها[٢].

---

(1) Live - Strauss, C.; "History and Anthropology"; in Structural Anthropology; Vol. I. Translated From The French by Claire Jachoson, Penguin Books 1963, pp. 1 - 25.

(2) Lukes; op.cit .

لقد نجح دوركايم بالفعل بملاحظاته المنهجية الثاقبة فى إرساء القواعد العلمية لعلم الإجتماع الحديث. وذلك نتيجة لابداعه أحد السياقات المعرفية الجديدة لهذا العلم، بمعنى أنه فهم موضوع دراسته بأسلوب مختلف تماما عما كان سائدا وقدم له نموذجاً جديداً من التفسير، لقد استلهم دوركايم نموذج العلم الوضعى لوضع أساس علم الاجتماع، أما الشرط الأساسى الذى وضعه لتحديد موضوع هذا العلم فهو شرط الموضوعية وانطلاقا من ذلك اعتبر دوركايم الظاهرة الاجتماعية ظاهرة موضوعية تتمتع بوجود انطولوجى مستقل عن الأفراد الذين قاموا بانشائها، وفى ضوء هذا التعريف لم يكن على الدارس السوسيولوجى إلا أن يتوسط بتقنياته العلمية (كالملاحظة الخارجية والقياس) لمعرفة هذا الموضوع وتحليله إلى مكوناته أو مقوماته الأساسية بغاية الكشف عن العلاقات الوظيفية العامة التى يخضع لها[١].

_ وفى كتاب قواعد المنهج فى علم الإجتماع Le Régles de La Methode Sociologique (١٨٩٥) يعرف دوركايم الظاهرة الاجتماعية بأنها «كل أسلوب من الفعل سواء كان متكررا أم لايستطيع أن يمارس على الإنسان الفرد تقييدا خارجيا، فالظاهرة الاجتماعية هى كل أسلوب من الفعل له صفة العمومية فى مجتمع محدد، ويكون موجوداً بذاته وفى ذاته ومستقل عن كل المظاهر التى يتجلى فيها لدى الأفراد[٢]. لقد كان دوركايم يقصد فى هذا التعريف التمييز بين الظواهر الاجتماعية السوسيولوجية (أو التى تشكل موضوعا لعلم الإجتماع) والظواهر الاجتماعية غير السوسيولوجية (أو التى لاتشكل موضوعا لعلم الاجتماع). فالظاهر الاجتماعية هى كل ضرب من الفعل أو التفكير أو الإحساس الخارجى بالنسبة للفرد، يتمتع بقوه القهر أو الجبر أو الإلزام بالنسبة للفرد. فكون الظاهرة الاجتماعية ظاهرة اجتماعية سوسيولوجية يعنى أنها من إنتاج الجماعة

(1) Lukes; op.cit .

(1) Lukes; op.cit .

الاجتماعية ككل، وأن مادتها تخص الجماعة الاجتماعية ككل وليس الفرد، ذلك لأن الفرد المنعزل لايمكن أن يؤلف ظواهر اجتماعية (مثل اللغة أو الدين أو الأخلاق أو القرابة)، وذلك لأن مصدر الظواهر الاجتماعية هو العقل الجمعى المتعالى على العقول الفردية للأفراد، لأن الفرد لايملك إلا الامتثال لطرائق التفكير والفعل والإحساس التى اسستها الجماعة الاجتماعية التى يتنتمى إليها، والتى تحرص تلك الجماعة من ناحيتها على تلقينها له عن طريق التنشئة الاجتماعية، إذن فالظواهر الاجتماعية هى ظواهر خارجية External ومفروضة عليه من الجماعة، وقد لايشعر الفرد بها ولكنه يحس بها كلما حاول الخروج عليها، وتسارع الجماعة إلى الردع الذى يتجلى فى مختلف أشكال العقاب الجماعى الذى يبدأ من اللوم أو التأنيب فى حده الأدنى ويصل إلى الإعدام فى حده الأقصى.

وبمجرد أن أعلن دوركايم تأسيس علم الاجتماع بوصفه علما مستقلاً يهتم بدراسة الظواهرة الاجتماعية رأى من الضرورى إثبات استقلال علم الاجتماع عن علم النفس[١] فقد رفض دوركايم تفسير الظواهر الاجتماعية فى ضوء تقنيات علم النفس، واعتبر أن تفسير الظواهر الاجتماعية فى ضوء هذه التقنيات يعد تزييفا لها، فقد رأى أن التفسير النفسى يرتبط بالعوامل العضوية - العقلية التى منحت للفرد بالميلاد، وأن هذه العوامل مستقلة تماما عن التأثيرات الاجتماعية التى تمارس على الفرد بوصفه عضوا فى مجتمع. ولذلك كتب: «لو أن الظواهر الاجتماعية اشتقت مباشرة من التكوين العضوى للإنسان دون تدخل أية وسائل إجتماعية أخرى فاءن علم الاجتماع يتحول إلى علم النفس»[٢].

فالتفسير النفسى هو تفسير للخاص أو للظروف الفردية الخاصة فى مقابل

---

(1)Leach; E.; Social Anthropology; Fontana Masterguides, 1982.

(2) Lukes; op.cit .

التفسير السوسيولوجى الذى هو تفسير للعام أو للظروف الاجتماعية العامة. كانت ثنائية علم الاجتماع/علم النفس تمثل فى الحقيقة حجر الزاوية فى نسق المقدمات النظرية التى قدمها دوركايم لعلم الاجتماع، وللإتجاه الوظيفى Functionalism وقد عدها الصيغة المنهجية الأولية التى تنطبق على الدراسة العلمية الدقيقة للمجتمع وقد كان هذا التمييز المنهجى بين التفسير السوسيولوجى والتفسير السيكولوجى والذى قدم فى ضوئه أسس التفسير السوسيولوجى ينبع فى الواقع من تمييزه لمستويات الواقع ذاته، فالمجتمع - فى رأيه - ليس مجرد حاصل مجموع الأفراد الذين يشكلونه، وانما هو نسق A system تشكل هكذا بفعل الارتباط القائم بين الأفراد المكونين له، بحيث ترتب على هذا الارتباط وجود واقع متميز لديه خصائص محدده، فالمجتمع من حيث هو واقع فريد هو كذلك بصفته الما بعد الفردية هذه وليس بصفة الأفراد القبل الاجتماعيين المكونين له ولذلك رأى دوركايم أن على الباحث السوسيولوجى البحث عن الحالات المحددة التى تتجلى فيها الظواهر الاجتماعية، ولتوضيح هذا التمييز قدم دوركايم عددا من القياسات التمثيلية، منها على سبيل المثال أن الخواص التى تميز الخلية الحية لاتوجد فى الجسيمات غير العضوية المكونة لها، وأن الصلابة التى تميز البرونز لانعثر عليها فى النحاس أو القصدير وهما العنصران المكونان له، وأن الخواص التى تميز الماء لاتوجد فى العناصر المكونة له (الهيدروجين والأكسجين)... وهكذا[١].

لقد مارس مفهوم الوضعية بالشكل الذى عرفته الفيزياء الكلاسيكية تأثيرا قويا على أميل دوركايم، وعلى هذا الأساس كانت القاعدة المنهجية الأولى لعلم الاجتماع الدوركايمى هى «يجب دراسة الظواهر الاجتماعية بوصفها أشياء» وهى قاعدة وضعها دوركايم لخدمة مبدأ موضوعية الظاهرة الاجتماعية، وهو مبدأ يعنى حياد الباحث السوسيولوجى وعدم تدخله فى الموضوع المدروس، أو عدم التداخل بين الملاحظ السوسيولوجى والواقع الاجتماعى الملاحظ، وإيجاد مسافة عقلية بين الذات السوسيولوجية الدارسة والموضوع الاجتماعى المدروس. إن عالم الاجتماع

(1) Lukes; op.cit .

الموضوعى عند دوركايم لايستطيع تحقيق المنهج العلمى فى البحث السوسيولوجى إلا فى ضوء المسافة العقلية العتى يوجدها بينه وبين الظواهر الاجتماعية المدروسة، فمن هنا كان تأكيده على ضرورة النظر للظواهر الاجتماعية بوصفها ظواهر طبيعية، وعلى ضرورة دراستها على هذا الأساس[1].

٣- أنثربولوجيا البناء الاجتماعى:

وانطلاقاً من الأسس الموضوعية التى وضعها دوركايم لعلم الاجتماع الفرنسى وضع رادكليف براون عددا من المقدمات النظرية لمفهوم البناء الاجتماعى Social Structure، عُدت من مجملها فى المبادىء الراسخة للأنثربولوجيا الاجتماعية، أهمها الطبيعة الفريدة المتميزة للبناء الاجتماعى، ورفض مثل دوركايم الإستعانة بتقنيات علم النفس فى إقامة الأنثربولوجيا الاجتماعية فانطلاقا من التعاليم الفرنسية كتب براون عن البناء الاجتماعى بوصفه شيئا طبيعيا فى ذاته – وجوده أسبق على وجود الأفراد والزام لهم من خلال الهيكل المعقد من الأعراف والتقاليد والتحريمات الأخلاقية الموجودة ضمنا فى الشعائر والأساطير الخاصة بالمجتمع، وهكذا أعطى رادكليف براون الأولوية المطلقة فى تنظيم سلوك الأفراد للبناء الاجتماعى، وحرص على التقليل من شأن أى تعارض يمكن أن يظهر بين البناء الاجتماعى وأى مظهر من مظاهر الحريات الفردية للأفراد[2].

وهكذا قدم مفهوم «البناء الاجتماعى» شيئا جديدا للأنثربولوجيا الاجتماعية، وأمد المتخصصين بموضوع محدد للدراسة، وفى الحقيقة لقد كان شرح رادكليف براون لهذا المفهوم بمثابة محاولة ذكية منه لإرساء أسلوب التفكير العلمى فى الأنثربولو جيا الاجتماعية، ولقد برزت فكرته نتيجة اهتمامه الشديد بتحويل العلم

(1) Lukes; op.cit .

(2) Bell, C. & H. Newby; Community studies: An Introduction to The sociology of The Local Community; George Allen & Unwin LTD; London 1971.

الناشىء إلى علم دقيق محكم، إذن لم تكن صدفة أن تكون صياغته لمفهوم البناء الاجتماعى هى صياغة عامة المقصود منها أن تكون صالحة للتطبيق على كل المجتمعات الإنسانية فى كل مكان وزمان.

لقد قام مفهوم البناء الاجتماعى عند راد كليف براون على تمجيده لفكره التضامن الاجتماعى social Solidirity وهى الفكرة التى قدمها إميل دوركايم فى كتاب تقسيم العمل الاجتماعى De la division du'tavail sociale حين قام بالتمييز بين التضامن الآلى mechanical والتضامن العضوى organic.فقد وجد دور كايم أن التقسيم المتزايد للعمل فى المجتمعات الصناعية المتقدمة قد أدى إلى وجود نوع من التضامن أطلق عليه التضامن العضوى، وهو نوع من التضامن يقوم فى الغالب على اعتماد هذه المجتمعات على التخصص المهنى، والاعتماد المتبادل بين المهن[1] على العكس تماما من التضامن الآلى الموجود فى المجتمعات الريفية الأوربية قبل الثورة الصناعية والذى كان يقوم على التشابه المهنى والروابط القرابية والعائلة الممتدة. وقد كان دوركايم مهتما فى الواقع بتفسير الإنحلال الأخلاقى السائد فى المجتمع الذى كان يعيش فيه، وقد وجد أن هذا الإنحلال كان نتيجة الانتقال من المجتمع القروى الذى كان يقوم فى العادة على نوع واحد من العلاقات الاجتماعية، إلى المجتمع الصناعى الحديث الذى يقوم على أنواع متعددة من العلاقات الاجتماعية التعاقدية[2].

لقد كانت إحدى نقاط الارتكاز المهمة التى قام عليها منظور البناء الاجتماعى عند راد كليف براون هى تفرقته المشهورة بين «البناء الواقعى» «والصورة البنائية» واصراره على أن المظاهر الوحيدة الخليقة بادراجها من هذا المنظور هى تلك المظاهر التى تقبل التجريد فى «الصورة البنائية» للمجتمع[3]

(1) Bell, C. & H. Newby; op.cit.

(2) Udy, S.H.; "Social Structrue Analysis"; in Intern, Ency, of Soc. Scis Vol. 15.

(٣) راد كليف براون« فى البناء الإجتماعى ؛ ترجمة عبد الحميد الزين؛ مجلة مطالعات فى العلوم الاجتماعية صيف/ خريف ١٩٦٠.

ولذلك يجب على الباحث الانثربولوجى فى دراسته للبناء الاجتماعى أن يستقطر «الصورة البنائية» من «البناء الواقعى»، ثم تفسير ملامح هذه الصورة البنائية فى ضوء البناء الاجتماعى الواقعى للمجتمع ككل. وهى تفرقة دعته للتمييز بين الإنسان بوصفة فرداً قبل إجتماعيا An Individual والإنسان بوصفه شخصاً إجتماعيا A Social Person، فالإنسان بوصفه شخصاً إجتماعياً هو عبارة عن مجموعة من العلاقات الاجتماعية التى تشير إلى المكانة أو المركز الاجتماعى الذى يحتله فى البناء الاجتماعى، وقد عُد تلك الشخصية الاجتماعية التى يكتسبها الإنسان من المجتمع بمثابة الموضوع الرئيسى للأنثربولوجيا الاجتماعية، بحيث لايمكن دراسة البناء الاجتماعى إلا فى ضوء الإشارة إلى هؤلاء الأشخاص الذين يشكلون الوحدات الأساسية لذلك البناء والعلاقات البنائية القائمة بينهم[١].

ولقد ساهم العديد من علماء الأنثربولوجيا الاجتماعية البريطانيين فى تطوير منظور البناء الاجتماعى وتعميقه، وقد تفاوتت تصوراتهم لهذا المنظور بين الإتساع والضيق، أى حاول البعض إدراج عناصر أخرى على التصور الذى وضعه براون للمنظور بينما حاول البعض الآخر أن يقصى بعض العناصر بقدر الإمكان، ولكنهم جميعا سواء وسعوا فى هذا المنظور أم ضيقوه كانوا متأثرين فى المحل الأول بالمماثلة البيولوجية Biological Anology التى عقدها هربرت سبنسر H.Spencer بين المجتمع والكائن الحى[٢] أى أنهم تصوروا البناء الاجتماعى كائنا حيا يتكون من مجموعة من الأعضاء، ولكل عضو فيه وظيفة مرسومة محددة، وتتناسق الوظائف التى تقوم بها الأعضاء معا وبذلك تدب الحياة فى الكائن الاجتماعى. وبذلك يستمد البناء الاجتماعى حيويته وإستمراره فى الوجود من التكامل القائم بين الأجزاء المكونة له، هذا على الرغم من أن «سبنسر» وجد أن هناك اختلافات بين

(1) Burnow; T.W.; "Out of The Darwininan Crucible"; in Times Literaay Supplement, Dec. 18, 1987.

(2) Burrow ; op.cit .

الكائن العضوى الحى والكائن العضوى الاجتماعى على اعتبار أن أجزاء الكائن الحى تشكل كلاً حيا ملموسا، بينما تتبعثر أجزاء المجتمع فى حرية، وعلى اعتبار أن أعضاء الكائن العضوى الحى توجد فى الأساس من أجل الكائن العضوى الحى بوصفه كلاً بينما يوجد المجتمع كله فى الأساس من أجل الفرد، وعلى اعتبار أن الشعور يتركز فى جزء صغير من الكائن العضوى الحى بينما ينتشر فى الكائن الاجتماعى ليشمل أعضاء المجتمع ككل[١].

ومن أوائل العلماء الأنثربولوجيين الذين قاموا باختبار منظور البناء الاجتماعى كما قدمه رادكليف براون كان إيفانز بريتشارد Evans - Pritchard فعلى الرغم من أنه لم يعالج منظور البناء الاجتماعى معالجة نظرية كما فعل أستاذه رادكليف براون إلا أنه قام بدراساته الميدانية حول قبائل النوير Neur السودانية من هذا المنظور[٢] وقد نشر العديد من الدراسات حول هذه القبائل أهمها المجلدات الثلاثة التى تتناول القرابة والزواج والدين. ولقد أدخل إيفانز بريتشارد الكثير من التعديلات على نظرية رادكليف براون فى ضوء خبرته الميدانية وخلفيته الاكاديمية الخاصة.

ويقوم مدخل البناء الاجتماعى عند ايفانز بريتشارد أساساً على معارضة لراد كليف براون، وبخاصة فى ضرورة إعتبار كل العلاقات الثنائية القائمة بين الأشخاص داخله فى تكوين البناء الاجتماعى[٣]. فقد ذهب إيفانز بريتشارد أن لكل مجتمع صورة أو نمط محدد من الإتساق والأطراد فى الحياة الاجتماعية، وأنه لابد أن يوجد نوعا ما من التنسيق بين أعضاء المجتمع وإلا استحال عليهم العيش معاً، فأعضاء أى مجتمع ينظمون نشاطاتهم فى العادة وفقا لقواعد مرسومة متعارف عليها، ومن ثم فهم يستطيعون التنبوء وترقب الأحداث، وبذلك يمكنهم

---

(١) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعى: المفهومات، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٦، ص ٢٧.

(٢) ايفانز بريتشارد؛ الأنثربولوجيا الاجتماعية؛ ترجمة أحمد أبو زيد؛ مرجع سبق ذكره – ص ٢٨.

(٣) أحمد أبو زيد؛ البناء الاجتماعى: المفهومات؛ المرجع السابق ص ٤٢.

ترتيب حياتهم الخاصة بما يتفق ويتماشى مع حياة الآخرين. ولذلك فإن لكل مجتمع شكل معين يسمح لنا على أن نتكلم عنه بوصفه نسقاً System (وتعنى الكلمة قدرة العناصر المكونة على النمو دون تناقض فيما بينها) أو بوصفه بناء Structure يعيش الأفراد داخله وينزلون على مستلزماته وبذلك يمكن تجنب التناقض الصارخ بينهم أو الصراع المكشوف، ولذلك يتمتع هذا النسق أو البناء بدرجة كبيرة من الدوام أو البقاء أكبر مما تحظى به معظم الأحداث العابرة فى الحياة الاجتماعية. وبذلك يخرج ايفانز بريتشارد من البناء الاجتماعى كل العلاقات الطارئة أو المؤقتة التى تقوم بين الأشخاص فى بعض المواقف الاجتماعية والتى تنتهى بانتهائها، كذلك يخرج كل الجماعات الصغيرة التى تخضع للتغير السريع[1].

وعلى هذا الأساس يتألف البناء الاجتماعى عند إيفانز بريتشارد من العلاقات الدائمة التى تقوم بين جماعات من الأشخاص التى تتمتع بدرجة عالية من البقاء والإستمرار فى الوجود فالبناء الاجتماعى يتكون - فى رأيه - من العلاقات القائمة بين الجماعات وليس الأشخاص. والجماعة الاجتماعية هى مجموعة الأشخاص الذين ينظرون إلى أنفسهم بوصفهم يشكلون وحدة اجتماعية متميزة عن غيرها من الوحدات الاجتماعية الأخرى، والتى ينظر إليها أعضاء الوحدات الأخرى بالنظرة ذاتها التى ينظرون بها إلى أنفسهم، كما تقوم بينهم جميعا التزامات متبادلة بفضل انتمائهم إلى تلك الوحدة. وبهذا المعنى تعتبر «البدنة» أو «طبقة العمر» (التى يترتب الذكور بمقتضاها فى جماعات متماسكه على أساس التقارب العمرى) جماعة اجتماعية[2] ولايعتبر كذلك الأقارب الأبعدين الذين لاتقوم بينهم التزامات وحقوق محدده نحو بعضهم بعضا، ولايتصرفون فى حياتهم اليومية بوصفهم وحدة متعاونة ومتماسكة. ولذلك يتطلب مفهوم البناء الاجتماعى

(١) أحمد أبو زيد؛ «نظام طبقات العمر»؛ مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، ١٩٦٥.

(٢) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعى، المفهومات: المرجع السابق، ص ٤١.

- فى نظر إيفانز بريتشارد - الإرتباط الوثيق بين مثل هذه الجماعات بحيث تؤلف فى النهاية نسقاً واحداً متماسكا وهذا هو البناء الاجتماعى.

ومؤدى ذلك كله أن البناء الاجتماعى عند إيفانز بريتشارد هو عبارة عن نسق من الأبنية المتمايزة المنفصلة التى يقوم بينها عدد من العلاقات الوثيقة المتبادلة، فعلى الرغم من كل مايقال عن إمكانية التمييز بين الحياة الإقتصادية والسياسية والقرابية فى المجتمع الإنسانى، فإنه يقوم بينها جميعا الكثير من العلاقات الوثيقة المتشابكة، وتلك العلاقات هى التى تعطى المجتمع الإنسانى الوحدة البنائية التى تقوم عليها. ولذلك لايمكن فهم البناء الاجتماعى للمجتمع إلا فى ضوء التوافق البنائى والعلاقات الوثيقة التى تقوم بين مختلف الأبنية الجزئية التى يقوم عليها.

ولقد قامت فكرة مايرفورتس M.Fortes فى البناء الاجتماعى على نقد رادكليف براون وبخاصة تلك التفرقة التى اقامها بين «البناء الواقعى» و«الصورة البنائية»[١] وهى التفرقة التى أقامها براون على أساس استمرار «الصورة البنائية» فى الزمن، وبخاصة فى المجتمعات التى تتمتع بدرجة عالية من الثابت والإستقرار. فلقد ذهب براون إلى أن «البناء الواقعى» بناء متجدد بإستمرار نتيجة الولادة والموت والهجرة، أى نتيجة لإنضمام أعضاء جدد أو إنفصال بعض الأعضاء وتغير العلاقات الاجتماعية القائمة بين الأعضاء، أما «الصورة البنائية» فهى أكثر ثباتا ودواما فى الزمن ولذلك لاتتغير إلا تدريجيا وببطء شديد. ولذلك عدها براون الموضوع الرئيسى للبحث الأنثربولوجى.

ففى كتاب «الزمن والبناء الاجتماعى»[٢] عارض فورتس هذه التفرقة وعدها تفرقة مصطنعة تخلط بين عدة مفهومات للزمن، فهى تخلط بين الزمن بوصفه مجرد فترة أو مدة محدده Duration لادخل لها فى بناء الأحداث الاجتماعية أو

---

(١) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعى، المفهومات: المرجع السابق، ص ص٤٢ ، ٤٣.

(٢) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعى، المفهومات: المرجع السابق، ص ٤٤.

التنظيم الاجتماعي للمجتمع على الرغم من أن تلك الأحداث أو هذا التنظيم يقع في فترة زمنية، وبين الزمن بوصفه استمراراً Continuity له علاقة بناء الأحداث وبالتنظيم الاجتماعي بحيث لايمكن فهم مايحدث في الحياة اليومية إلا بالإشارة إليه - كما هو الحال في التنظيمات الاجتماعية التي تحتفظ بكيانها وخصائصها لعدة أجيال، وكذلك فقد خلطت هذه التفرقة المصطنعة بين الزمن الذي يعبر عن العمليات النشوئية Genetic والزمن الذي يعبر عن عمليات النمو والتقدم الذي ترتبط في ضوئها التغيرات التي تحدث في المجتمع ضمن إطار محدد من الإستمرار الزمني. كما هو شأن التغيرات السكانية التي يترتب عليها تغيراً جوهريا في البناء الاجتماعي. والزمن لهذا المعنى الأخير يعد زمناً بنائيا له آثاره القوية في بناء المجتمع.

ويعد البناء الاجتماعي عند «فورتس» كلاً متكاملاً متميزاً، ومع ذلك يمكن تحليله إلى الأجزاء التي يقوم بينها نوع من الترتيب المنظم في الزمان والمهم في هذا التحليل ليس هو تحديد الأجزاء التي يتكون منها البناء الاجتماعي أو العلاقات القائمة بينها، وإنما المهم هو الكشف عن المبادىء العامة التي تحكم الترتيب البنائي في الزمان والمكان؛ وتفسير القوى التي تعبر عنها[1]. فحين يحاول الباحث الانثربولوجي وصف البناء الاجتماعي فإن مايفعله في واقع الأمر هو دراسة المبادىء العامة المجردة وتحليلها بعد استخلاصها من ذلك الخليط المعقد الذي يتكون من شتى أنواع السلوك الاجتماعية، والمشاعر الوجدانية والمعتقدات والإتجاهات التي يتألف منها نسيج الحياة الاجتماعي الواقعية، والمشكلة الحقيقة التي تواجه الباحث الأنثربولوجي عادة في دراسة البناء الاجتماعي تنحصر في شدة تنوع الأحداث الاجتماعية التي تتخذ فيها النظم والتنظيمات الاجتماعية أشكالاً مختلفة،وفي تكرار بعض هذه الأحداث والعلاقات في كل المواقف التي يظهر فيها النظام أو التنظيم الخاضع للدراسة، وإختفائها في بعض المواقف الأخرى بحيث

(١)أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي، المفهومات: المرجع السابق، ص ٤٤ .

لاتظهر إلا عن طريق المصادفة. ويعتبر فورتس الفئة الأولى من هذه الأحداث والعلاقات عناصر ثابتة ودائمة فى البناء الإجتماعى - بينما ينظر للفئة الثانية التى تتغير بتغير المواقف أو بمرور الزمن على أنها حالة نمو أو تقدم أو تغير فى البناء الإجتماعى(١).

ولقد عارض جريفتش G.Gurvitch أيضا التفرقة التى أقامها رادكليف براون بين نوعى البناء الاجتماعى(٢) على اعتبار أن إستخدام راد كليف براون مصطلح «البناء الواقعى» كان لتفادى الإلتجاء إلى فكرة الظواهر الاجتماعية الكلية التى قال بها عالم الاجتماع الفرنسى مارسيل موس M.Mauss، وأن إستخدامه لمصطلح «الصورة البنائية» كان لتفادى مواجهة المشكلات الرئيسية التى يثيرها مفهوم البناء، حيث يتضمن مفهوم البناء كل ماقد يتعرض له من تفكك وانحلال، والمحاولات التى تبذل لإعادة تركيبيه من جديد. ولقد انتهى جريفتش إلى أن فكرة البناء الاجتماعى انتهت بأصحابها إلى تحويل الواقع الاجتماعى إلى كومه هائلة من العلاقات الاجتماعية والأدوار والقوانين والقيم التى يصعب التأكد من صحتها والتعرف على مبدأ مجتمع من المجتمعات(٣).

وتتلخص فكرة البناء الاجتماعى عنده فى أن «الكل» ليس مجرد مجموع الأجزاء التى يتألف منها، ومع ذلك فإنه لايستطيع أن يوجد بدونها، وأن أدراك «الكل» يسبق إدراك الأجزاء التى تدخل فى تكوينه، وعلى هذا الأساس لايمكن التمييز بين البناء الاجتماعى ومكوناته الأساسية، وعلى الرغم من ذلك فاءنه قد تتغير بعض المكونات المصاحبة لبعض أنواع المناشط الاجتماعية (مثل ظهور الحركات الثقافية أو وقوع بعض الأحداث الدينية أو السياسية) دون أن يؤدى ذلك

---

(١) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعى، المفهومات: المرجع السابق، ص ٤٧.

(٢) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعى، المفهومات: المرجع السابق، ص ٤٩.

(3) Leach, E.; "The Epistemological Background of Malinowsk's Empricism"; in Man & Culture; Ed. by R. Firth, op.cit

إلى حدوث تغيرات جوهرية فى البناء الاجتماعى ذاته، وقد تكون هناك ثمة ظروف أخرى تؤدى إلى تفكك البناء الاجتماعى كله أو حتى انفجار بعض مكوناته(١).

ولقد تعدلت أنثربولوجيا البناء الاجتماعى بمرور الزمن، وعلى الأخص بعد ما ألتقت بأفكار علماء الاجتماع الألمانى، وعلى الأخص أفكار ماكس ڤيبر M.Weber الخاصة بالدور والمكانة، ولقد كان نادل S.Nadel أول العلماء البريطانيين الذين يستخدمون أفكار ڤيبر فى هذا الموضوع فى الأنثربولوجيا الاجتماعية.ومع ذلك يبقى القول أنه على الرغم من إنجذاب أنثربولوجيى البناء الاجتماعى البريطانيين إلى أفكار عالم الاجتماع الألمانى ماكس ڤيبر إلا أن التأثير الذى مارسه عالم الاجتماع الفرنسى أميل دور كايم على دراسات البناء الاجتماعى بقى قويا، ولذلك فعلى الرغم من الإختلاف القائم بين الأبحاث السوسيولوجية الفرنسية والأبحاث الأنثربولوجية البنائية، فإن علم الاجتماع الفرنسى وأنثربولوجيا البناء الاجتماعى لايمكن أن يتمايزا أبداً.

٤-الأنثربولوجيا الأثنوجرافية:

من المعروف أن أنثربولوجيا البناء الاجتماعى قد حرصت على اقتضاء أثر التعاليم التى وضعها أميل دوركايم للبحث السوسيولوجى الفرنسى، فعلى أساس من هذه التوجه السوسيولوجى الفرنسى نشأت أنثربولوجيا البناء الاجتماعى وتبلورت فى بريطانيا، وهو التوجه الذى قام كماسبق أن ذكرنا على دراسة البناء الاجتماعى دراسة سوسيولوجية بوصفه شيئا طبيعيا فى ذاته... إلخ، ومع أن أنثربولوجيى البناء الاجتماعى لم ينكروا بأى حال الآثار التى يمكن أن تمارسها الحريات الفردية فى البناء الاجتماعى - إلا أنهم تمسكوا إنسجاما مع التوجه السوسيولوجى على أن للبناء الاجتماعى وجود مستقل قابل للتمييز عن كل

(1) Lienhardt, G.' "From Study to Field and Back", TLS; June 7, 1985.

مظاهر الحريات الفردية للأفراد الذين يشكلونه، ولذلك مالوا إلى تأكيد التفسير السوسيولوجى، ورفضوا أن يكون للتفسير السيكولوجى أى دور فى قيام الأنثربولوجيا الاجتماعية.

وعلى الخلاف من التصور السوسيولوجى الصريح الذى نشأت عليه أنثربولوجيا البناء الاجتماعى وتطورت فى بريطانيا كان التصور الذى قدمه مالينوفسكى للأنثربولوجيا الاجتماعية تصورا سيكولوجيا صريحاً، وهو تصور ترسب فى أعماقه منذ أن كان يدرس فى جامعة لينبرج Leipzig بألمانيا (قبل مجيئه إلى لندن) على يد عالم النفس التجريبى المشهور وليام فونت W.Wount الذى كان ينتمى إلى المدرسة الأثنولوجية التطورية، وعلى الرغم من عدم توافق مالينوفسكى مع مدخل فونت التطورى إلا أنه استحسن النزعة التجريبية لدية، وهو الاستحسان الذى منعه من قبول التصور السوسيولوجى الذى قدمه رادكليف براون للأنثربولوجيا الاجتماعية[1]، ولذلك أقر فى مراجعته لكتاب دوركايم الصور الأولية للحياة الدينية Les Formes Elementaires de La Vie Religieuse– (١٩١٢) بعدم رضاءه عن مفهوم «الروح الجمعية» وعده مفهوما نظريا عقيماً، وليس له فائدة فى حل مشكلة البحث الميدانى على الإطلاق.

كانت المشكلة الجوهرية عند مالينوفسكى هى المشكلة التى تواجه الباحث الميدانى وهى: كيف يفسر الباحث الميدانى الأنماط النوعية من السلوك التى تصادفه فى البيئات الثقافية الآخذه فى الزوال، وهى البيئات الثقافية التى يتخذها الباحثون الأنثربولوجيون عادة ميداناً لابحاثهم الميدانية؟[2]. ولقد كانت الإجابة التى قدمها مالينوفسكى تذهب إلى أنه لايمكن فهم الحقائق الثقافية النوعية إلا باختبارها فى سياقاتها الاجتماعية، وعلى ذلك فمجرد أن يقوم الباحث الميدانى

(1) Lienhardt, G.' "The Observers Observed"., TLS, Aug. 26, 1988.
(2) Lienhardt, J.' "Interpreting The Interpretor"; N.Y. Review of Books; March is 1984.

بنفسه بفهم السياق الاجتماعى فهما تاما سوف يتمكن من فهم الحقائق الثقافية النوعية ذاتها. ولذلك افترض مالينوفسكى أن موضوع الأنثربولوجيا الاجتماعية يتكون بما يقوم الباحث الميدانى بملاحظته بنفسه، واقر صراحه عدم وجود أية مواد اثنوجرافية حقيقة خارج تصور الباحث الميدانى نفسه[١] فلم يكن موضوع الأنثربولوجيا الاجتماعية يهتم عنده بفهم الواقع الموضوعى للبناء الاجتماعى، وإنما يهتم بفهم الواقع الوجدانى للإنسان، ولذلك لم ينظر لهذا الموضوع من «خارج» بوصفه ظاهرة موضوعية، وإنما نظر إليه من «داخل» على أية النتيجة المباشرة لإهتمامات الأفراد، ولقد رأى أن الأنثربولوجيا الاجتماعية بمعناها الدقيق تحتاج فى كل عطفه من عطفاتها إلى مؤازرة ومسانده علم النفس[٢].

وانطلاقا من هذا التصور السيكولوجى للأنثربولوجيا الاجتماعية استعار مالينوفسكى مصطلح «الوظيفة الاجتماعية» من الفكر الدور كايمى، ثم فعل فيه بعد ذلك مافعل. كان تعريف دوركايم لهذا المصطلح واضحا حين وازن بين الوظيفة الاجتماعية والمنفعة الاجتماعية. ولقد انتقل هذا التعريف عن طريق رادكليف براون إلى علماء الأنثربولوجيا السوسيولوجيين الذين أكدوا فى دراستهم للبناء الاجتماعى على الإرتباط القائم بين الحقائق الاجتماعية والنتائج الاجتماعية المتحققة، فوظيفة النظام الاجتماعى ارتبطت بنتيجة إجتماعية ما[٣]، ولكن مالينوفسكى أدخل على تلك المعادلة السوسيولوجية الصريحة تعديلا جوهريا، فقد استبدل النتائج الاجتماعية التى أقرها علماء الأنثربولوجيا السوسيولوجيون كوظائف للظواهر الاجتماعية المدروسة بنتائج أخرى بيولوجية، وافترض أن الوظيفة الأولى للظواهر الاجتماعية هى إشباع الحاجات البيولوجية الأساسية للأفراد، وأصر على

(1) Leach, E., "The Epistemological Background of Malinowki's Empricism", op.cit.

(2) Leach, E., op.cit.

(3) Phelan, W. D.; "William James"; in Intern. Ency of Soc. Scis; Vol.8 pp. 227 - 233.

ضرورة تحليل الظواهر الاجتماعية فى ضوء الفوائد التى تحققها فى خدمة الحاجات النفعية للأفراد كأفراد[١].

كان هذا البرنامج السيكوبيولوجى الذى قدمه مالينوفسكى للانثربولوجيا الاجتماعية لايعود فى الواقع إلى كراهته للتفسيرات السوسيولوجية أو إلى تأثره المبكر بعلم النفس التجريبى فى شكله الألمانى فقط، وإنما يعود إلى إعجابه الشديد بالمنهج البرجماتى، وبالأخص كما قدمه وليام جيمس W.James (١٨٤٢ - ١٩١٠) وهو الفيلسوف البرجماتى الذى كانت لأفكاره بالتحديد الصدى الأقوى عند مالينوفسكى، فالمعروف أن جيمس كان عالما بارزا فى علم النفس التجريبى «الأمريكى» قبل أن يلتحق بالفلسفة البرجماتية وقد كان مفهوم العقل عنده مفهوما تراكميا يهتم بالعمليات العقلية وليس مفهوما بنائيا يهتم ببحث العناصر العقلية كما كان الأمر بين العلماء الألمان الذين درس عليهم مالينوفسكى أول الأمر، وقد كانت نظرته الفلسفية للحقيقة نظره «سياقية» تهتم بفحص الأفكار أو المعتقدات داخل سياق حياة الفرد[٢] ، فقد كان الاختيار النهائى لشرعية الأفكار أو المعتقدات عند جيمس يكمن فى توافق هذه الأفكار أو المعتقدات مع بقية سيرة حياة الفرد، فقد كانت نزعته السيكولوجية فى الفلسفة تقوم على مفهومى الارتباط Relevance والاقتران، وكانت منفعة الوعى هى القضية الأساسية فى كل أبحاثه الفلسفية.

هذه هى - باختصار شديد - أهم الملامح الواصفة للمنهج البرجماتى كما قدمه وليام جيمس، وأن لم نقم بعرضها بشكل منهجى منظم فهى على الأقل تكفى للتمهيد فى تحديد آفاق هذا المنهج كما ظهرت عند برونيسلاف مالينوفسكى ولقد لخص جالى W.B.Gallie موقف جيمس على النحو التالى:

---

(1) Phelan, op. cit.

(2) Leach, op. cit.

«من الفرضيات القابلة للتصديق (الظاهرى على الأقل) تلك الفرضية التى تقول: إن الإهتمامات البيولوجية الثابتة للكائن الإنسانى تكمن فى تفكيره، أو أنها هى التى تقدم الظروف المهمة للتفكير، ولكن جيمس تخطى هذه الفرضية إلى فرضية أكثر إثارة وغرابة حين قال صراحة: إن الوظيفة الفريدة للتفكير هى تحديد الإهتمامات البيولوجية للكائن الإنسانى» .

بدون إطالة، كانت هذه الفقرة التى لخص بها «جالى» موقف «جيمس» تلخص فى الوقت ذاته النزعة السلوكية البرجماتية عند مالينوفسكى، ولب هذا الحكم المشترك هو أن جيمس كان يشك فى أى «تجريد»، ولذلك رفض المعرفة التأملية ولم يعترف بأية فكرة لاتشير إلى الخبرة المباشرة، وقد انتقل هذا الموقف إلى مالينوفسكى. والنتيجة هى ظهور عالم تجريبى متعصب جدا، لايعترف سوى بالملاحظة الشخصية المباشرة ولايعترف سوى بـ «حدس Intuation» الباحث الميدانى، فواجب الباحث الميدانى ليس مجرد تأكيد الحقائق الاجتماعية الصريحة من «خارج» – وإنما هو تفسير الأفكار والدوافع والمشاعر وردود الأفعال العاطفية والرغبات المكبوتة لأعضاء المجتمع المدروس من «داخل»، ولقد كان «مالينوفسكى» مثل جيمس متأثرا بأفكار علم النفس (العلم الذى يميل باستمرار فى تفسيره الأفكار والدوافع والمشاعر الخاصة بالراشدين فى ضوء الخبرات المبكرة لمرحلة الطفولة)، ولذلك أظهر عدم إحترامه للنظريات التاريخية، وكان الماضى الحقيقى – فى رأيه – هو الماضى الحاضر، ولذلك لم يعترف بإمكانية فهم الحقائق الاجتماعية سوى بمقياس سيرة حياة الفرد على هذا الأساس تبلور مدخله «السياقى» فى الأنثربولوجيا الاجتماعية وموقفه من الحاضر الأثنوجرافى على حد سواء.(١)

ولذلك ففى حديثة عن طبيعة المنهج الأثنوجرافى فى مقدمة «الأرجونوتس»

(1) Gellner, E.; "Malinsowki and The Dialectic of Past and Present"; TLS, June 1982.

تحدث بالتفصيل عن القرائن السياقية، و«التبعية للسياق الثقافى»، لقد كان مالينوفسكى على وعى عميق بمشكلة الترجمة الثقافية، بقدر دفعه إلى إعتبارها المشكلة الرئيسية فى الأنثربولوجيا الاجتماعية التى فرض ظروف البحث الميدانى فيها على المتخصصين ترجمة الثقافات. وقد حصر مهمة الباحث الميدانى فى تفريغ الموقف الذهنى لسكان المجتمع الذى يدرسه ونقله بأمانه إلى القارىء الأوربى، وقد أشار إلى أن نجاح الباحث الميدانى فى تلك المهمة إنما يتوقف على مثابرته فى التوصل إلى المعانى الدقيقة للأفعال التى يقوم بها أعضاء المجتمع (ربط الأفعال الملاحظة بمعناها) والانغماس كلية فى عالمهم بكل مايحتويه من مظاهر فكرية وعاطفية. فعلى هذا الأساس تبلور تصوره «السياقى» للأنثربولوجيا الاجتماعية.

* * *

وهكذا استحوذ هذان الاتجهان (الموضوعى والإنسانى) على الممارسات التالية للأنثربولوجيا الاجتماعية داخل بريطانيا ابتداء فى عالم ١٩٢٢، وهو العام الذى ترك علامة لاتمحى على تاريخ الأنثربولوجيا الاجتماعية، فقد شهد هذا العام ظهور كتاب رادكليف براون «سكان جزر الاندمان» وظهور كتاب مالينوفسكى «الأرجونوتس فى المحيط الباسفيكى» وهما الكتابان اللذان مارسا من خلالهما المعلمان الرئيسان نفوذهما الكامل على الأنثربولوجيا الاجتماعية البريطانية. حتى بعد أن تعدلت الأنثربولوجيا الوظيفية (كما يطلق على الأنثربولوجيا الاجتماعية البريطانية أحيانا) نتيجة لاتصالها بأفكار علم الاجتماع الألمانى، فلقد ظل التأثير الذى مارسه كل من راد كليف براون ومالينوفسكى قويا. وظلت تعاليمهما هى التعاليم السائدة فى البحث الأنثربولوجى بين الأجيال التالية من الباحثين الأنثربولوجيين.

فى الواقع لقد اكتسب الأنثربولوجيا الاجتماعية البريطانية هويتها وشهرتها من

ذلك التأثير الذى مارسته الأفكار التى قدمها أميل دوركايم لعلم الاجتماع الفرنسى (الحقيقة الفريدة للظاهرة الاجتماعية، ورفض إقامة علم الاجتماع فى ضوء الإستعانة بالتقنيات والمناهج السيكولوجية) وهى الأفكار التى نقلها عنه رادكليف براون إلى الأنثربولوجيا الاجتماعية، فتلك الأفكار لم تكن نظريات عامة وإنما كانت أدوات تحليلية أثبتت شرعيتها فى هذا العلم، ولقد كان تناول رادكليف براون للبناء الاجتماعى لسكان جزر الاندمان بمثابة تدريبا ميدانيا فى تطبيق الأدوات النظرية التحليلية لعلم الاجتماع الدوركايمى. ولأن رادكليف براون كان منظرا ذا عقلية تجريدية فقد سيطرت عليه رغبة جامحة فى تحقيق الإحترام العلمى للأنثربولوجيا الاجتماعية. ولقد دفعته الرغبة فى تحقيق الموضوعية العلمية لهذا العلم إلى الإهتمام بتقنيات الوصف الإستقرائى الصارم. اعتقاداً منه أنه بمجرد أن يقوم الباحثون الأنثربولوجيون الميدانيون بجمع المواد الأثنوجرافية الموثقة حول البناءات الاجتماعية للمجتمعات كلما أصبح بالإمكان القيام بالمقارنات المنهجية والتوصل إلى القوانين العامة.

كانت الأدوات التحليلية الدوكايمية التى قدمها رادكليف براون للأنثربولوجيا الاجتماعية تمثل فى الحقيقة الثروة النظرية الأساسية للأنثربولوجيا الاجتماعية وكثيرا ماتقوم الكتب التمهيدية فى هذا العلم بتدريسها على أنها المسلمات المنهجية الأولية فى الأنثربولوجيا الاجتماعية، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت تلك الأدوات التحليلية الدوركايمية ذاتها بالنسبة لمالينوفسكى هى مثال صريح للخطر الذى يحيط بالأنثربولوجيا الاجتماعية ذاتها، والذى يتورط الباحث الأنثربولوجى بمقتضاها فى تفسير المعتقدات والقيم السائدة بين أعضاء الشعوب الأخرى فى ضوء معتقداته «هو» الشخصية. فلقد كانت الأنثربولوجيا الاجتماعية بالنسبة لمينوفسكى بمثابة خبرة شخصية عميقة جدا تختلف بإختلاف التجارب الميدانية للباحثين الميدانيين، فمن هنا أهتم مالينوفسكى بمشكلات الترجمة الثقافية التى تفرضها ظروف العمل الميدانى، وقد أصبحت الأنثربولوجيا الاجتماعية

عنده أشبه ماتكون بالقصص الأثنوجرافى. إذن لم يكن صدفة أن نقرأ الوصف الذى وصف به السيرجيمس فريزر Sir J.Frazer كتاب «الأرجونوتس فى المحيط الباسفيكى» فى تقديمه له والذى أشار للكتاب بأنه من أكمل المعالجات التى نشرت فى الأدب الأثنوجرافى للشعب البدائى منذ الأزل حتى الآن، فإذا كان الأدباء العظماء من أمثال موليير وشكسبير وسرفانتس - والكلام لفريزر - قد وصفوا لنا فى كتاباتهم بعض الشخصيات الأدبية (مثل البخيل والمنافق والأحمق المغرور) فاءن تلك الشخصيات كانت بمثابة «دمى» تم كسوتها بالملابس كى تظهر مشابه للكائنات الإنسانية، وقد كانت جميعها شخصيات أدبية مجوفة من الداخل حيث قام هؤلاء الأدباء بالتضحية بصدق الطبيعة البشرية من أجل التأثير الأدبى، ولم يكن من بين هذه الشخصيات الأدبية شخصية الإنسان الذى قام مالينوفسكى بوصفه فى مسرح الأحداث الحية ولم يكن فى تلك الأعمال الأدبية هذا الجهد الأثنوجرافى الذى بذله مالينوفسكى لاكتشاف أسس التفاصيل الوجدانية العريقة لذلك الإنسان.

وعلى أى حال وبصرف النظر عن التناقصات الحادة التى نتجت عن هذين الإتجاهين، فقد واصل الباحثون الأنثربولوجيون ممارستهم الميدانية داخل «سياق» أحد المجتمعات التقليدية بغاية التحليل المكثف للمواد الأثنوجرافية فى شكلها الخام، فقد استمرت الدراسة الميدانية للمجتمع التقليدى هى التقليد الراسخ فى الأنثربولوجيا الاجتماعية البريطانية وسواء كان الدراس ينظر للمجتمع بوصفه وحدة كلية، ويقوم بدراسته الميدانية فى ضوء إحدى النظريات السوسيولوجية أم كان هذا الدارس أديبا أثنوجرافياً يتعلم فى الموقف الميدانى الأسئلة التى يجب أن يطرحها على أعضاء المجتمع المدروس فلقد حرص علماء الأنثربولوجيا الاجتماعية جميعهم على إبراز التناسب أو التناسق القائم فى المجتمع المدروس، أو كيف تتعاشق المواد الأثنوجرافية (مثل تروس الساعة) معا فى ذلك الكل المتكامل، أو فى تلك الوحدة الوظيفية، معتمدين فى ذلك على الترابط الوجدانى الوثيق الذى يقيمه الباحث الميدانى مع مادته الخام.

لقد تشجع الأنثروبولوجيون الاجتماعيون فى الوقت الحاضر واتجه الكثيرون منهم لدراسة المجتمعات الريفية الأوربية، ولذلك ظهرت دراسات حول الريف الايرلندى وويلز، والريف الهندى والصينى، والمجتمعات الريفية والبدوية العربية، وكثير من الثقافات الشعبية فى أمريكا اللاتينية ولقد عولجت فى هذه الدراسات المشكلات ذاتها الخاصة بالعمل والقرابة والشعائر التى سبق وأن عولجت فى دراسات المجتمع البدائى. وتحول بعضهم من الدراسات الريفية إلى الدراسات الحضرية، فى مدن بريطانيا والولايات المتحدة وجنوب أفريقيا، ولقد ركزت هذه الدراسات على العلاقات الصناعية بين عمال المصانع، والتباين الطبقى بين الأمريكيين البيض، وأنماط الثقافة فى مدينة هوليوود Hollywood، وفى الحقيقة يستطيع الانثربولوجيون الاجتماعية العثور على «معمل Laboratory» فى أى مجتمع محلى يستطيع فيه تطبيق تقنياته المكثفة لمنهج الملاحظة المباشرة، وهنا فالباحث الانثربولوجى ينظر لنفسه بوصفه شقيقا لشقيقه الباحث السوسيولوجى، هذا على الرغم من رفض البعض لتلك القرابة الاكاديمية. وبهذا الشكل تعد الانثربولوجيا الاجتماعية علم اجتماع مصغر Micro Sociology تتمم منظور علم الاجتماع المكبر Macro Sociology الذى تتبناه علوما أخرى كعلم الاقتصاد أو علم السياسية أو علم النفس وعلم الاجتماع نفسه، وماعلى الانثربولوجى الاجتماعى أن يسهم به فى ضوء هذا التصنيف هو تقديم المعرفة المنهجية حول البناءات الصغيرة للحضارة الغربية وتنظيماتها، أى الشكل الدقيق للصلات الاجتماعية القائمة بين الأشخاص داخل أحد المصانع أو المستشفيات أو المساجد والكنائس، وكيف تستخدم هذه الصلات بالفعل فى الحياة الاجتماعية السائدة.

الفصل الثانى
الأنثربولوجيا الاجتماعية والتغير الاجتماعى

مقدمة:

أولاً: الانثربولوجيا الاجتماعية اللاتاريخية والتاريخ.

ثانياً: التفسير التاريخى بين العلم الوضعى والمعيارى.

ثالثاً: مقومات المعرفة التاريخية.

١- المعرفة التاريخية وكيفية ايصالها.

٢- السرد التاريخى.

٣- أدوات السرد التاريخى.

رابعاً: بين الانثربولوجيا الاجتماعية والتاريخ.

خامساً: التاريخ الاثنوجرافى ومصادره.

الفصل الثانى
الانثربولوجيا الاجتماعية والتغير الاجتماعى

مقدمة:

قد تبدو فكرة التغير الاجتماعى Social Change فكرة بسيطة واضحة نظرا لشيوع هذا التعبير فى الاستعمال اليومى للغة، ومع ذلك فلقد أثارت هذه الفكرة الكثير من الجدل والمناقشات بين علماء الانثربولوجيا الاجتماعية منذ بداية العقد الخامس من هذا القرن، وتشير كلمة «تغير» إلى الاختلافات التى تحدث للشيء ويمكن ملاحظتها خلال فترة من الزمن، وعلى هذا الأساس يقصد بالتغير الاجتماعى الاختلافات التى تطرأ على أحد مظاهر الحياة الاجتماعية خلال فترة معينة من الزمن ويمكن ملاحظتها وتقديرها. وعلى ذلك يشير تعبير «التغير الاجتماعى» إلى التعديلات التى تحدث فى أنماط الحياة الاجتماعية فى أحد المجتمعات فى إحدى الفترات الزمنية[1]، وليس شرطا أن تتغير أنماط الحياة الاجتماعية فى المجتمع بشكل جذرى، فقد تمر الحياة الاجتماعية ببعض التغيرات دون ملاحظة، ويقبلها الأعضاء على أنها أمور عادية طبيعية، فقد تنفرض – على سبيل المثال – أصول القرابة ويتم توريث ممتلكات الأقارب وإمتيازاتهم وفقاً للمبادىء العرفية المعترف بها دون أن ينظر لذلك على أنه يمثل تغيراً اجتماعيا، وقد تتشكل جماعات اجتماعية جديدة نتيجة التشعب أو الإنشطار، وقد تتحول الامتيازات بين الأشخاص نتيجة النجاح أو الاخفاق فى أداء الواجبات الاجتماعية، ويتعاقب الأشخاص فى تولى أمر القيادة القبلية دون أن يمثل ذلك بالنسبة لأعضاء المجتمع تغيرا اجتماعيا. وقد تزول حتى الأعراف أو التقاليد نتيجة لمبادرة بعض الرؤساء الأقوياء أو الاتفاق بين الأعضاء دون أن يمثل ذلك تغيراً بالنسبة للمجتمع. على سبيل المثال حين انتقل أسلاف المأورى Maori(فى بولنييزيا

(١) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعى: المفهومات، مرجع سبق ذكره ص ٢٥٨.

Ploynesia) من تاهيتى Tahiti إلى نيوزيلاند New Zealand كان عليهم التخلى عن ملابسهم المصنوعة من لحاء الشجر Bark Cloth لصالح الأثواب النيوزيلاندية المصنوعة من الكتان، وأن يتخلوا عن تنظيمهم القبلى القائم على نظام الرئاسة الملكية. فمثل هذه التغيرات الاجتماعية الطبيعية مألوفة للباحثين الأنثربولوجيين، وكثيراً ماسجلوا ملاحظاتهم حولها من شواهد التراث القبلى المتغير[1].

وعلى أى حال يحدث التغير الاجتماعى غالبا نتيجة لتوافر مصدرين أساسين، مصدر داخلى واخر خارجى.

أما المصدر الداخلى الذى يؤدى للتغير الاجتماعى فهو ينشأ نتيجة اكتشاف بعض موارد الثروة (النباتية أو المعدنية) التى لم تكن معروفة من قبل، واستغلالها مما يترتب عليه ظهور آثار واضحة فى الحياة الاجتماعية السائدة، أو نتيجة ظهور الاختراعات التقنية أو الضغوط السكانية على موارد الثروة المحلية المحدودة، أو نتيجة التخلخل السكانى الناتج عن الهجرة، أو نتيجة التغيرات المناخية العنيفة وإعادة التكيف مع البيئة الجديدة، أو حتى نتيجة الأفكار الاصلاحية التى تقدمها العقول الموهوبة، لأنه حتى المجتمع البدائى لديه فلاسفته ومصلحية الاجتماعيين الموهوبين[2].

وأما المصدر الخارجى للتغير الاجتماعى فإن لدية مظهرين، مظهر يكمن داخل الميدان البدائى من ناحية، والمظهر الآخر يكمن فى النتائج المترتبة للاتصال بالحضارة الأوربية.

ففى الميدان البدائى قد تعيش المجتمعات البدائية جنبا إلى جنب فى حالة سلام (أو فى حالة حرب) دون أن تتأثر أعرافها أو تقاليدها كثيراً بأعراف وتقاليد جيرانها.

---

(1) Firth, R; Human Typs; Mentor Books 1958.

وعلى الأخص الفصل السابع: الانثربولوجيا فى الحياة الحديثة.

(2) Firth; op. cit.

وقد تؤثر تلك المجتمعات فى بعضها بعضا، وقد تتكيف مع نماذج حياة كل منهم والآخر، كما حدث على سبيل المثال بين قبيلة Hima الرعوية، وقبيلة Iru الزراعية فى أنجولا Ankola بينما تحتفظ كل قبيلة منها بنظمها الاقتصادية المستقلة. وقد تنصهر المجتمعات البدائية معا فى مجتمع جديد كا حدث بين مجتمعات النوبا Nupe فى شمالى نيجيريا، فقد كان شعب النوبا فى الأصل عبارة عن مجموعة من القبائل المتمايزة (لكل منها ثقافته ولغته الخاصة) ولكن حدث نتيجة مشاركتهم فى نفس محل الاقامة المشترك، ونتيجة وجود نظام الزواج التبادلى، والتعاون الاقتصادى أن اصبحوا الآن يشكلون قسماً جوهريا من جمهورية نيجيريا المستقلة. وقد تحتفظ المجتمعات البدائية بالاستقلال والانفصال عن بعضها بعضا ومع ذلك تستعير بعضا من الأفكار التقنية أو طرائق السلوك أو النظم الاجتماعية من جيرانها (وهى العملية التى تعرف باسم الانتشار الثقافى) ولذلك فقد استعارت بعض القبائل الاسترالية الاصلية نظم القرابة والزواج من بعض القبائل المجاورة وذلك لتنظيم الحياة الجنسية فيها، وللتخلص من شعورهم بالدونية فى علاقتهم مع هذه القبائل(١).

أما المظهر الآخر للمصدر الخارجى للتغير الاجتماعى فهو يكمن فى التغيرات المترتبة على اتصال الشعوب البدائية بالحضارة الأوربية، وهو مظهر حدث كثيراً فى العصور القديمة حين تأثرت الشعوب البربرية المتاخمة للحضارة الصينية بالحضارة الصينية، أو حين اتصل الأوربيون الريفيون القدماء بحضارة روما، أو حين انفتحت القبائل الصحراوية فى الشرق الأوسط وشمالى افريقيا على الحضارة الاسلامية. فى تلك الحالات لم تكن المسألة مجرد إضافة بنود ثقافية جديدة إلى النظم الاجتماعية التى احتفظت ببنتها الأساسية، وإنما كانت تتعلق بتثوير أساليب الحياة الاجتماعية برمتها وفرض نظم سياسة وقانونية جديدة(٢).

---

(1) Firth; op. cit.

(2) Firth; op. cit.

ولقد شكلت تلك الاكراهات الثقافية والاجتماعية فى العصور الحديثة طوراً عظيماً فى تطور الأحداث التاريخية فى العصر الحديث، فالحضارة الغربية بتقنياتها الفعالة، ورغبة أوربا فى توسيع سيادتها وفرضها على العالم وحرصها على الاستثمار الاقتصادى للمصادر الطبيعية الجديدة وفتح أسواق جديدة لنظام الانتاج الأوربى الموسع، ورغبة الأوربيين فى نشر التعليم وتعميمة بين الشعوب التى لاتعرف القراءة والكتابة اجيالاً طويلة من الزمن، والتبشير للدين المسيحى بين البدائيين الذين نظروا إليهم بوصفهم شعوبا تفتقر إلى القيم الدينية العليا، وقد اتحدث كل هذه العوامل للتأثير (وفى بعض الاحيان لتحطيم) اطار النظم والقيم الوطنية التى انفقت الشعوب البدائية جهوداً عظيمة فى بنائه على مدار فترات طويلة من الزمن[١].

ولقد سجل كثير من الأنثربولوجيين الكثير من الملاحظات التى تدور حول التغيرات الاجتماعية الذى خضعت لها المجتمعات البدائية نتيجة اتصالها بالحضارة الغربية، مثلما ماحدث فى المجتمع القائم على تعدد الزوجات Polygynous حين فرض الزواج الآحادى Monogamous القاعدة القانونية أو الدينية للزواج. أو ماحدث للنظام الزراعى البدائى حينما جلب الأوربيون المحاريث الآلية لتحل محل المحاريث الحيوانية والمجارف اليدوية، أو ماحدث لنظام ملكية الأرض من تغيرات حينما فرض الأوربيون التسجيل الرسمى لسندات الملكية بدلا من الاعتماد على اجماع الآراء القبلية أو على قرار رئيس القبيلة، أو ماحدث فى نظام الاقتصاد المنزلى البدائى حين غادر الرجال القرى البدائية من أجل العمل فى المراكز الصناعية النائية، أو ماحدث للالتزامات الاقتصادية القائمة على القرابة حين قام الأهالى بزراعة المحاصيل النقدية من أجل التسويق النقدى، فقد شكلت هذه الملاحظات العلامات الأولى التى جذبت انتباه علماء الانثربولوجيا الاجتماعية للاهتمام بدراسة التغيرات الناجمة عن الاحتكاك التقنى والثقافى بين هذه المجتمعات والحضارة الأوربية[٢].

---

(1) Firth; op. cit.

(2) Firth; op. cit.

أولاً: الانثربولوجيا الاجتماعية اللاتاريخية والتاريخ:

فى الحقيقة لم يسهم أحد من بين الانثربولوجيين البريطانيين فى لفت الانتباه إلى التناقضات الكامنة فى ممارسات الانثربولوجيا الاجتماعية مثلما أسهم ايفانز بريتشارد Evans Pritchard فى هذا الميدان(١) فقد مكنته ملكته العقلية الجادة وتعهده لروح الفكر التاريخى من التصدى للامبالاة التى اظهرها الانثربولوجيون البريطانيون للتاريخ، وهى لامبالاه تعود - فى رأيه - إلى تأكيدهم المبالغ فيه على البحث الميدانى بحد ذاته، واهتمامهم فقط بالمجتمعات البدائية بوصفها كذلك، والنتيجة أن الكثيرين منهم قد أنفقوا بقية حياتهم يكتبون حول ملاحظاتهم الميدانية، ولم يكن لديهم الفرصة الكافية لاكتساب المهارات أو المؤهلات التى يتطلبها البحث التاريخى، ولم يكن منهاج تدريب الانثربولوجيين الميدانيين يتضمن جزءا من منهج تدريب المؤرخين.

وتعود تلك اللامبالاة التى أظهرها علماء الانثربولوجيا الاجتماعية للمنهج التاريخى فى الأصل إلى الرواد المؤسسين للانثربولوجيا الاجتماعية (رادكليف براون ومالينوفسكى) وإلى النموذج التزامنى Synchronic الذى وضعه كل منهما للبحث الميدانى، فعلى الرغم من حرص اميل دوركايم E.Durkhiem على التفرقة بين علم الاجتماع الاستاتيكى Static (الدراسة السوسيولوجية للحياة الاجتماعية فى حالة الاستقرار والثبات) وعلم الاجتماع الديناميكى Dynamic (الدراسة السوسيولوجية للتغيرات الاجتماعية) فإن النموذج الابستمولوجى الذى وضعه

(١) فى عام ١٩٤٩ نشر ايفانز بريتشارد دراسة بعنوان «سنوسى برقة Sanusi of Cyrenaica»، وقد جعل منها نموذجاً للدراسات الاثنوجرافية التى تتناول عمليات التغير الاجتماعى للمجتمع الخاضع لتأثير الحكم الأجنبى، ومنذ ذلك التاريخ أخذ على عاتقه التصدى للآراء النقدية اللاتاريخية فى الانثربولوجيا الاجتماعية البريطانية، وقدم شروحات عميقة لكثير من القضايا التى شاعت فيما بعد بفضل ألفرد شوتز A. Schutz وفيتنجشتاين Wittgenstein وآخرون.
يمكن الرجوع إلى T.O. Beidilman; The Ethnographer as Translator, TLS, Dec. 12 1980, , p. 1420.

الرواد المؤسسون للانثربولوجيا الاجتماعية كان نموذجا استاتيكيا، فقد وجد هؤلاء الرواد النموذج الاستاتيكى نموذجاً مريحاً فى بحث تفاصيل الحياة البدائية الشفاهية، وهو أمر جعل من بحث التغيرات الاجتماعية فى المجتمعات البدائية موضوعاً مزعجاً للغالبية العظمى من الباحثين الميدانيين، وإن كان ذلك لايعنى أن هؤلاء الباحثين الميدانيين قد فكروا بالفعل فى الحياة الاجتماعية البدائية على أنها حياة سرمدية جامدة، وإنما يعنى أن المبادىء المنهجية التى تزودوا بها فى دراساتهم الميدانية قد دفعتهم فى الأصل إلى أن يقصروا جهودهم على «البناء العظمى» من الحياة الاجتماعية، والتى عدم الالتفات إلى البحث عن التفاصيل التاريخية أو التعاقبية Diachronic، على اعتبار أنها تقع خارج نطاق اهتمامهم. الأمر الذى ترتب عليه الاهتمام فقط بمختلف التفاصيل أو الخصائص التزامنية التى تحكم البناء الاجتماعى أو الثقافة الخاضعة للملاحظة. وهو موقف أدى – فى رأى بريتشارد – إلى الغموض، وهو غموض يعود فشل هولاء الباحثين فى فهم الإختلاف القائم بين طبيعة القوانين الطبيعية والقواعد المعيارية Normative للحياة الاجتماعية.(١)

لقد نشأت الانثربولوجيا الاجتماعية فى الأصل كرد فعل على الممارسات التطورية التى قام بها الاثنولوجيون التطوريون طوال العصر الفيكتورى، ولقد صوب النقاد الجدد بنادقهم نحو الانثربولوجيين الفيكتوريين بسبب تقديمهم تواريخا ظنية مزيفة حول الجنس البشرى، ونظرا لأن هؤلاء النقاد كان يجهلون أصول البحث التاريخى بمعناه الدقيق فقد اعتقدوا أن التاريخ غير الشرعى الذين يهاجمونه هو تاريخ يتماثل مع مفهوم البحث التاريخى ككل. وهكذا رفض هؤلاء النقاد فى تأسيسهم للانثربولوجيا الاجتماعية الالتجاء للتفسيرات التاريخية من أى نوع، وقد

(1) Evans- Pritcard, E.; "Anthropology and History"; in E.Evans - Pri tchard; Social Anthropology; Faber Editions, London 1969. pp. 46 - 65.

برروا ذلك بالتمييز المنهجي الذى قدموه بين العلوم التعميمية التى تبحث عن القوانين العامة (وقد صنفوا الانثربولوجيا الاجتماعية ضمنها) والعلوم التخصيصية غير التعميمية (وقد أدرجوا التاريخ فيها)، على اعتبار أن الانثربولوجيا الاجتماعية علما مقارنا يهتم بالتشابهات على الخلاف من التاريخ الذى يهتم بالاختلافات، وقد يكون لهذا التمييز مبرراته لو أن الانثربولوجيا الاجتماعية بالفعل تقوم بتقديم القضايا أو الافتراضات التعميمية المقارنة، وأن التاريخ يقوم فقط بتسجيل سلسلة الأحداث التاريخية المتميزة، وحقيقة المسألة أن الانثربولوجيين الاجتماعيين والمؤرخين كلاهما على وعى تام بأن لأى حدث خصائصه الفريدة المتميزة وخصائصه العامة، وقد يقدم الانثربولوجيين بالفعل الاقتراحات التعميمة أزيد قليلا عما يفعل المؤرخون، ومع ذلك فإنهم لايستدلون على تلك التعميمات من القوانين (بمعناها الدقيق) أو يفسرونها كابعاد تجريديه لها، وانما هم يرون دائما «العام» داخل «الخاص» كما يفعل المؤرخون تماما ولو فقدت الأحداث الاجتماعية خصوصيتها فإن التعميم حولها يصبح تعميما عديم القديمة، وهو ماحدث بالفعل لكثير من المقولات التعميمية التى قدمتها الانثربولوجيا الاجتماعية مثل: «الأنيميزم Animism» أو «التابو Tabu» أو «الطوطمية Totemism» أو «العشيرة Lineage»، فهى مقولات ترتبط بوقائع اجتماعية تاريخية متميزه، ومع ذلك فقد افقدتها الافادات العامة التى قدمت حولها مغزاها الحقيقى حين جردتها من سياقاتها الاجتماعية وصفتها الزمنية الخاصة، وقد بلغت تلك الافادات العامة بها حداً من الثبات التصورى «الفارغ» بوصفها مقولات سوسيولوجية عامة[1].

على أى حال لقد ترتب على الممارسات اللاتاريخية للانثربولوجيين الاجتماعيين عدد من النتائج هى[2]:

---

(1) Evans - Pritchard; op.cit. p. 49.

(2) Evans - Pritchard; op.cit. pp. 50 - 56.

(١) عدم الإعتراف بالمصادر الوثائقية فى بناء المعرفة الانثربولوجية، صحيح أن الباحث الميدانى يعتمد فقط على الملاحظة السماعية المباشرة عند القيام بدوره كباحث اثنوجرافى، إلا أنه حين يبدأ فى الكتابة المقارنة فإن عليه الإعتماد مباشرة على الوثائق أو التقارير المنشورة مثلما يفعل المؤرخ تماما.

(٢) عدم الاهتمام بالماضى على اعتبار أنه يمثل إهتماما تاريخيا أو أثرياً، ولذا أصبح من النادر أن يبذل الباحث الانثربولوجى جهوداً مكثفة لإعادة بناء ماضى المجتمع الذى يقوم بدراسته بالإعتماد على التراث الشفاهى وذاكرة الأحياء. هذا على الرغم من أن الباحث الميدانى نفسه لايستطيع فهم النظم السائدة فى المجتمع الشفاهى إلا بمساعدة الوثائق الشفاهية المدونة فى ذاكرة الأحياء، على أقل تقدير يعتمد الباحث الميدانى فى دراسته التزامنية لأى مجتمع بدائى على ثلاثة أجيال، وعلى الأشخاص المعمرين، وهو يهتم فى دراسته التزامنية هذه بطرح الأسئلة المتعلقة بالماضى وذلك للتوصل إلى الترتيبات الاجتماعية الثابتة من البناء الاجتماعى الحاضر.

(٣) بسبب افتقار الانثربولوجيين الميدانيين إلى منهج معالجة المادة الشفاهية تاريخيا نشأ لديهم الانطباع الزائف بأن المجتمعات البدائية كانت قبل الهيمنة الحضارية الأوربية مجتمعات ثابتة أو مستقرة، وهو انطباع لايصدق بأى حال، لأن التاريخ التقليدى لأى مجتمع يشكل فى الحقيقة جزءا جوهريا من التفكير السائد بين البشر الأحياء، وجزءاً أساسياً من الحياة الاجتماعية التى يقوم الباحث الاثنوجرافى بملاحظتها مباشرة. فهناك فرق بين التأثيرات التى مارستها الأحداث التاريخية وقت حدوثها، وبين الدور الذى يلعبه تذكر تلك الأحداث فى الحياة الاجتماعية المعاصرة، ولكن الاثنوجرافيين الميدانيين لم يسألوا أنفسهم بعض الأسئلة المهمة مثل: ماسبب غنى التقاليد التاريخية الشفاهية بين أعضاء بعض المجتمعات وفقرها بين أعضاء بعضها الأخر؟ أو مانوعية الأحداث التاريخية التى يحرص أعضاء المجتمع على تذكرها؟ ومانوعية

الإلتزامات أو الحقوق الاجتماعية التى تترتب عليها؟ (مثل حقوق إحدى العائلات أو إحدى البدنات فى إستغلال الأراضى، أو حقوق أحد خطوط النسب فى القيام بالطقوس أو الشعائر الدينية... وهكذا) أو مانوعية فنون التذكر التى يستخدمها أعضاء المجتمع كأساليب عرفية للإسناد أو الإحالة؟ فكثير مايتم نسب التاريخ للجغرافيا وللأماكن المحلية، وكثيرا ماتتصور المجتمعات جغرافيتها داخل التاريخ،أو إلى أى حد تؤثر الظروف المناخية والبيئية فى التراث الشفهى وإحساس أعضاء المجتمع بالزمن؟. ولذلك فعلى الباحث الاثنوجرافى الإهتمام بالاثنوجرافيا التاريخية، وعليه القيام بدور ثلاثى يتضمن أدوار كل من دور المحل للأحداث أو التراث الشفهى المسموع، فهذا يسمح للمصادر الشفاهية أن تعبر عن نفسها وبتعبيراتها الاصطلاحية الخاصة ودون تأويل أو اختيار من جانب الباحث الاثنوجرافى، ثم دور المؤرخ الذى يقوم بالموازنة بين النصوص المدونة وتحقيقها والإستفادة منها فى إعادة بناء ماضى المجتمع كما رواه أعضاؤه بأنفسهم، وأخيراً دور الباحث السوسيولوجى الذى يهتم بالوظائف التى تؤديها تلك الرويات التاريخية فى سياق الحياة الاجتماعية المعاصرة.

(٥) لم يميز الانثربولوجيون الاجتماعيون (باستثناء مالينوفسكى) بين «التاريخ» و«الأسطورة M yth» أو الخرافة Fable . فقد إستخدم هؤلاء كلمة «تاريخ» لكى يدرجوا تحتها كل مايبدو فى نظرهم محتمل الحدوث، واستخدموا كلمة «أسطورة» أو «خرافة» لكى يدرجوا تحتهما كل مايبدو فى نظرهم غير محتمل الحدوث. هذا على الرغم من عدم إمكانية التمييز بين التاريخ والأسطورة أو الخرافة فى ضوء الاحتكام إلى الشواهد العينية أو التصورات الوضعية. لأن هناك اعتبارات أخرى مهمة يمكن التمييز فى ضوئها بين التاريخ والأسطورة أو الخرافة. فقد تكون إحدى القصص بالفعل قصة حقيقية ولكنها تظهر بوصفها قصة اسطورية أو خرافية فى شخصيتها السردية، وعلى المقابل قد

تكون إحدى القصص قصة اسطورية أو خرافية (مزيفة) ومع ذلك فإنها تظهر بوصفها قصة تاريخية فى شخصيتها الإسنادية أو الإحالية، ولذلك يجب أن نعرف أن الأسطورة، أو الخرافة لاتهتم فى العادة بالتتابع الزمنى للأحداث أو بالمغزى الأخلاقى للموقف الذى تحكيه؛ ولذلك تكون الأسطورة قصة مجازية Allegorical أو رمزية Symbolic فى الشكل السردى، وعلى ذلك تكون الأسطورة أو الخرافة قصة لازمنية، فهى تقع فى الفكر خلف نطاق الزمن التاريخى بمعناه الدقيق. وعلى ذلك لايمكن للاسطوره أو الخرافة أن تحدث فى أى زمن تاريخى حقيقى، وذلك لأن طرزها الأثرى Archetypal لايرتبط بأى زمان أو أى مكان. ولذلك لاتؤخذ الأسطورة أو الخرافة – كما يحدث فى أى حدث تاريخى – بالمعنى الحرفى للقصة التى تظهر فيها، وإنما تؤخذ بجوهرها الذى تحكيه، لأن الأحداث التى تحكيها تقع خارج نطاق الخبرة التاريخية، وعلى ذلك يتطلب فهم الأسطورة أو الخرافة دائما فعلاً من أفعال الإرادة والخيال. وعلى ذلك لاينظر البشر للأسطورة أو الخرافة بنفس النظرة التى ينظر بها للتاريخ الذى ينتسب كلية لسياق حياته الاجتماعية التاريخية، حيث لاتتماثل الحوادث الأسطورية (الخيالية) والحوادث التاريخية (الواقعية) لأنهما حوادث تنتميان فى الأصل إلى رتبيتين مختلفتين من الواقع الفكرى.

(٦) لقد أدت مغالاة الانثربولوجيين الاجتماعيين فى تقدير الدراسات الاثنوجرافية التزامنية إلى تجاهل الحقائق التاريخية، وقد منعتهم تلك المغالاة أو المبالغة من الاختبار الحقيقى لشرعية الاقتراحات أو المقدمات المنطقية العامة التى استندت إليها الانثربولوجيا الاجتماعية زمنا طويلاً. فقد استندت تلك الاقتراحات أو المقدمات المنطقية العامة إلى القياسات التمثيلية البيولوجية Biological Analogies. وقد اعتقد علماء الانثربولوجيا أنه مثلما يمكن فهم فسيولوجيا «الحصان» دون حاجة إلى معرفة أى شىء حول انحداره من سلفه القديم

ذات القدم الخماسية الأصابع. فإنه يمكن فهم المجتمع البشرى وفهم الأداء الوظيفى للنظم الاجتماعية دون معرفة شيئا عن تاريخها. وهكذا سارت الانثربولوجيا الاجتماعية - فى رأى بريتشارد - إلى طريق مسدود وذلك لأن المجتمع البشرى مهما كان تعريفه - لايماثل الحصان. ومن الرأفة بنا أن الخيول تبقى خيولاً ولم تتحول إلى أفيال أو إلى خنازير، فى حين أن المجتمع الإنسانى يتغير باستمرار خلال الزمن من نمط إلى نمط آخر، وأحيانا يتم ذلك بشكل فجائى عنيف. هل يمكن لنا أن نتحدث حينئذ عن مجتمع واحد فى نقاط مختلفة من الزمن أم نتحدث عن مجتمعين مختلفين، فليس هناك مجتمعات إنسانية فى العالم - مهما كانت درجات بدائيتها أو تقدمها التقنى - لم تخضع للتغيرات العريضة، وجاءت فيها النظم الاجتماعية الجديدة للوجود.

لقد قدم كلود ليفى ستروس C.Live - Strauss الكثير حول هذه الملاحظات[١٢] وأشار إلى عدم إمكانية فهم النظم الاجتماعية على نحو ملائم حتى يتم وضعها فى بوتقة التاريخ، وأشار إلى هؤلاء الذين يجهلون التاريخ بأنهم قد حكموا على أنفسهم بعدم معرفتهم للحاضر، وذلك أن فهم التطور التاريخى - فى رأيه - هو وحده الذى يسمح لنا بوزن عناصر الحاضر بكل العلاقات التى يحتويها وتقييمها، وهى المسألة التى لخصها بوضوح البروفسير لويس دوما L.Dumout فى عبارة بليغة تقول: «التاريخ هو الحركة التى يكشف بها المجتمع عن نفسه كمايكون»[٢].

---

(1) Livé - Strauss, C; "History and Anthropology" in C.Livé Strauss; Structural Anthropology; Trans. From The French by C. Jacobson, Brooke Grundfest Schoepf; Benguin Books 1963, pp. 1 - 25.

(2) Livé - Strauss; op.cit.

ثانياً: التفسير التاريخى بين العلم الطبيعى والمعيارى:

من المعروف أن نموذج التفسير الاستقرائى كان هو النموذج المثالى الوحيد للمعرفة اليقينية الصادقة منذ عصر التنوير، وقد سادت هذه النزعة بين المؤرخين الأوائل الذين اعتقدوا فى إمكانية تطبيق النموذج الاستقرائى فى ميدان التاريخ، وقد حصر المؤرخون حينذاك مهمة المؤرخ فى تطبيق المقولات الاستقرائية ومناهج البحث التجريبى المستخدمة بنجاح فى دراسة الطبيعة فى بحث الظواهر التاريخية، وعلى ذلك فقد وضع مؤرخوا عصر التنوير الظواهر التاريخية على نفس مستوى الظواهر الطبيعية الخالصة(١).

ولقد ساد هذا التيار زمنا طويلاً إلى أن بدأت أصوات الاحتجاج والاعتراض فى الارتفاع فى أواخر القرن التاسع عشر ضد التاريخ «الاستقرائى»، ومن أكثر النقاد شهرة فى هذا المجال وليام ديلتاى W.Dilthey وجورج زيمل G.Simmel وكروتشى W.Groce وفيما بعد كولينجوود R.G.Collinwood، وقد ركز هؤلاء النقاد على مجال نشاط المؤرخ (وهو الموضوع الذى تجاهله أسلافهم المؤرخون). فقد كانت أهداف المؤرخ تختلف - فى رأى هؤلاء - عن أهداف العالم الاستقرائى. حيث لايهتم المؤرخ باكتشاف القوانين أو بصياغة النظريات التنبوئية التى تستخدم فى معظم الأحوال اجرائيات البحوث الاستقرائية، وإنما يهتم بتحديد الأحداث التاريخية التى حدثت فى الماضى وتعيين أسبابها والتأثيرات التى مارستها. وتلك مهمة لاتتطلب منه البحث عن القوانين الاستقرائية العامة، أو صياغة النظريات العلمية، وإنما تتطلب منه فهم الخصوصية الفريدة والتأثيرات التى مارستها الأحداث التاريخية ذاتها. وكما ذهب الفيلسوف الإنجليزى كولنجوود: تنحصر مهمة المؤرخ فى اعادة تمثيل تداولات العوامل والقوى التاريخية وتعاقباتها، بحيث يستطيع أن يصور بوضوح الأحداث التاريخية المحددة فى أسلوب خاص. وهو

(1) Gardiner, p.; "History: The Philosophy of History" in Intern. Ency. of Soc. Scis.; Vol 5. pp. 428 - 434.

أسلوب - مهما كان تعريفه - لايمكن أن يتوازى بأى حال مع الأسلوب الاستقرائى بالمعنى الدقيق، وعلى هذا الأساس ذهب كولينجوود أن لمصطلح «علة» معناه الخاص فى سياق التاريخ، وأن هذا المعنى لايمكن أن يتداخل مع المعنى الاستقرائى للمصطلح. فالمؤرخ يقوم فى الواقع باثبات أسباب حدوث الحوادث التاريخية، واستنباط الجوانب الباطنية للتأثيرات التى مارستها بأثر رجعى. وهو أمر يختلف تماما عن الدراسة الاستقرائية للظواهر الطبيعية وتحديد القوانين الاستقرائية أو التصنيفات النظرية العامة فى هذا المجال[1].

لقد أطلق كروتشى على مقولات العلم الطبيعى تعبير «المقولات الكاذبة»، وقد رأى أن تلك المقولات قد تهيأت أو تكيفت فى الأصل لتحقيق غايات استقرائية غير تاريخية، ولذلك لايمكن أن تلعب تلك المقولات أى دور فى مجال التاريخ، ذلك لأن المؤرخ لاينظر بطبيعة الحال للأحدث التاريخية بوصفها أمثلة شارحة للحقائق التاريخية العامة مثلما ينظر العالم الطبيعى للظواهر الطبيعية على أنها نماذج أو عينات شارحة للحقائق الكوكبية غير المتغيرة، ولذلك ففى اللحظة التى يقدم فيها المؤرخ على لبس ثوب العالم الاستقرائى فإنه يكون قد انصرف عن التاريخ بمعناه الدقيق.

أما «ديلتاى» فقد اختلف لديه مبادىء المعرفة التاريخية والمعرفة الوضعية، وقد كان من المستحيل- فى رأيه - اختزال الأحداث التاريخية فى اللغة الاستقرائية الخالصة التى تعبر عن أدلة أو شواهد السلوك الملاحظ، فالمؤرخ ليس ملاحظاً أو مراقبا للعالم الطبيعى، وإنما هو شخص يعتمد على الانطباعات الشخصية (احياء الحدث التاريخى فى الخيال من جديد والتقمص العاطفى له) فى تصوير العمليات التاريخية، وهذا بحد ذاته كافيا لفصل طبيعة التاريخ عن طبيعة التفكير الاستقرائى.

لقد كانت هذه الاعتبارات السابقة التى قدمها هولاء النقاد حول طبيعة

---

(1) Gardiner; op.cit.

المعرفة التاريخية من منظور نشاط المؤرخ هى الباعث الرئيسى لتحليل طبيعة التفكير التاريخى، ولقد دار الخطاب النقدى حول سؤال رئيسى مؤداة:

هل يتميز التفكير التاريخى بمنطق تمييزى خاص، وهل يقاوم هذا المنطق التمييزى Distinctive بطبيعته النوعية الخاصة امكانية استخدام اللغة الاستقرائية الخالصة؟ أو هل تتميز فكرة «العلية» فى السياق التاريخ بصفات تأويلية خاصة، أم أن معناها لايختلف فى السياقين التاريخى والاستقرائى؟

لقد وجدت وجهة النظر القائلة بعدم وجود اختلافات جوهرية تفصل بين ضروب «العلية» فى السياقين التاريخى والاستقرائى المدافعين عنها بين المؤرخين الذين ارتبط تصورهم العام لمفهوم «العلية» بمؤرخى عصر التنوير وعلى رأسهم ديفيد هيوم D.Hume الذى رأى أن على المؤرخ تطبيق نموذج العلم الاستقرائى، على اعتبار أن مهمة المؤرخ تنحصر فى إثبات الإنتظام القانونى للعلاقات السببية القائمة بين الأحداث التاريخية، وهذا معناه أنه لكى يقوم المؤرخ بتفسير أحد الأحداث التاريخية فإن عليه أن يبين أو يثبت السبب أو الأسباب التى أدت لظهورها. أى إثبات العنصر الشرطى السابق من خلال وصف الشروط التاريخية الاستهلالية الحتمية التى أدت لحدوث الحادثة التاريخية، ثم يقوم بإفتراض القانون الذى أدى إلى وقوع الحدث التاريخى[١].

فمن هذا المنظور لايمكن للمؤرخ أن يتجنب اللجوء إلى الاقتراحات العامة التى يثبت فى ضوئها العلاقة السببية بين الشروط الاستهلالية والأحداث التاريخية الحتمية التى ترتب عليها. ولايؤثر على جوهر القضية كون المؤرخ يهتم بأحداث تاريخية خاصة. على الخلاف من العالم الطبيعى الذى يهتم بالظواهر الاستقرائية الكونية، لأن هذا الإختلاف لايعنى انكسار اعتراف المؤرخين الاستقرائيين بأن الأحداث التاريخية هى أحداث فريدة متميزه، لأن المطلوب للأغراض التفسيرية

(1) Gardiner; op.cit.

الاستقرائية – فى نظرهم – هو التماثل الجزئى بين الحدث التاريخى الخاضع للتفسير «العلى» والأحداث التاريخية الأخرى. فهذا التطابق أو التماثل الجزئى بنظرهم هو الذى يسمح بتطبيق فكرة القوانين فى تفسير الأحداث التاريخية، وعلى هذا الأساس لم يكن هناك اختلاف بين الإجرائيات التفسيرية التاريخية والإجرائيات التفسيرية الاستقرائية، فقد أصبح التجريد التاريخى والتجريد الاستقرائى على نفس المستوى من المعرفة.

وبطبيعة الحال فقد أثار هذا المنظور الذى يطابق بين اجرائيات التأويل التاريخى واجرائيات التفسير الاستقرائى الاعتراض من جانب جاردنر Gardiner ودراى Dray، على اعتبار أنه يفترض أن كل التأويلات التاريخية «السببية» يجب أن تتخذ شكلا استقرائيا يفترض أنه فى ظروف استهلالية معينة كان من المحتم على الحدث التاريخى أن يحدث. وقد كان هذا برأيهم أبعد مايكون عن الصدق التاريخى. وذلك لأن المؤرخ عند استشهادة بالأسباب التى أدت للحوادث التاريخية إنما يهتم بالتحديد بـ «احتمال» حدوث ا لحوادث التاريخية وليس بـ «حتمية» حدوثها فالأسباب التاريخية تمثل الظروف الاجتماعية المصاحبة لما قد حدث من أحداث تاريخية فى الماضى، وليس الظروف الاستقرائية الضرورية أو الحتمية لحدوثها، فلقد كان الحديث عن حتمية الظروف الاستهلالية لحدوث الأحداث التاريخية يتضمن الاشارة الصريحة لفكرة القوانين التاريخية، ويتضمن التسليم بأن القوانين التاريخية أصبحت فى متناول يد المؤرخين مما يحتم عليهم الإحاله إليها.

وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد أن القضايا أو الأحكام المستنبطة – حين يبذل المؤرخون محاولاتهم لتقديم الإيضاحات الاستقرائية العامة فى الهيئة التاريخية المطلوبة – هى فى الواقع قضايا أو احكاما مبهمة بقدر يجعل من الصعب جدا التحقق من الكيفية التى تؤدى بها القوانين التاريخية وظيفتها التفسيرية الاستقرائية المنسوبه إليها. وذلك لأن المؤرخ حين يقوم بتفسير سبب حدوث إحدى الأحداث التاريخية – ولتكن الثورة الفرنسية مثلاً – فإنه لايقوم بذلك فى ضوء تصنيف هذا

السبب ضمن أسباب ايحائية مظنونة تتعلق بالثورات عموما، وإنما يقوم بشرح إحدى الحوادث التاريخية الفريدة، مبينا من خلال التحليل التفصيلى كيف ارتبطت النتائج الحادثة بالظروف الاجتماعية الاستهلالية التى أدت إليها[1].

وبإختصار ونظر لبلاغة النقد الموجهه للتاريخ الوضعى فإننا لانستطيع أن ننكر العلاقة النوعية الحميمة ا لقائمة بين المؤرخ وموضوع دراسته، فتلك العلاقة الخاصة – فى رأينا – هى التى تحول فى الواقع بين التفسير الاستقرائى والتأويل التاريخى، ولذلك فإن التباين الصارخ فى الأشكال التأويلية التى يستطيع المؤرخون افتراضها وانتحالها – حتى ولو استندت النصوص التاريخية التى يقدمونها على المصادر أو الوثائق ذاتها – هو أمر ضرورى وحتمى فى التاريخ، فالمعالجات التاريخية تتطلب من المؤرخين – كما ذهب كروتشى – إعادة خلق الماضى داخل عقولهم وبهذا الإعتبار لايمكن لنا العثور على أية معالجة تاريخية (مهما أدعت تطبيقها للمنهج الاستقرائى) يمكن النظر إليها بوصفها معالجة موضوعية نقية أو متحررة من القيمة Value Free، ذلك لأن اللغة التصويرية Meta Language التى يستخدمها المؤرخ فى البحث التاريخى تعكس بالضرورة عنصر التقدير أو التقييم الذى يرصف فى العادة النسيج التأويلى للخبرة الإنسانية، وتختلف عناصر التقدير أوالتقييم بطبيعة الحال بإختلاف خبرات المؤرخين (خلفياتهم الاجتماعية، معتقداتهم الدينية، توجهاتهم السياسية،مبادئهم الاخلاقية) فكل تلك العوامل تؤثر – بشكل أو بآخر – فى تمثل المؤرخ لمادته التاريخية وتمثيله لها فى النص التاريخى (ما الذى يدرجه وما الذى يتجنبه) وتؤثر أيضا فى تقديراته النقدية للشواهد أو الأدله التاريخية، وإن كان ذلك لايعنى بطبيعة الحال أن كتابة التاريخ إنما يعتمد على اهواء المؤرخين واهتماماتهم الشخصية أو أ فكاره المسبقة، وانما يعنى أن هذه العوامل لايمكن أن تنفصل بأى حال عن الأدبيات التاريخية الوصفية التى يقدمها المؤرخون.

---

(1) Gardiner; op.cit.

ثالثاً: مقومات المعرفة التاريخية:

لو قارنا إحدى المجلات التاريخية المتخصصة مع إحدى المجلات الفيزيائية سوف نقتنع أن فن النشر التاريخي يختلف إختلافا هائلا عن النشر الفيزيائى، فمعجم مفردات الفيزياء يتميز بالدقة، ونظم جمله Sentences يتخذ شكلا رياضيا ويعبر عن مختلف العلاقات الكمية بين الكينونات الفيزيائيه المحدده للوضع المعاصر للمعرفة فى هذا العلم بأقل قدر من الغموض.

وعلى الرغم من أن المصطلحات التاريخية مثل «مصدر مطلع» أو وثيقة رسمية لاتقل بأى حال عن المصطلحات الفيزيائية مثل «الثقل النوعى»، وعلى الرغم أيضا أن المؤرخون قد يستخدمون الكينونات الكمية (مثل: معدلات انتاج المحاصيل أو مساحات الأرض بالنسبة لمعدلات سقوط الأمطار أو نمو السكان، أو الدخل المتوسط) ويصيغون الماده التاريخية صياغة رياضية ويتمثلون بذلك شكلا من النشر السائد من العلوم الطبيعية. فإنه يعترفون بأن النشر التاريخى يختلف تماما عن النشر فى العلوم الطبيعية.

من النادر أن ينظر المؤرخون إلى نشر العلوم الطبيعية بوصفه هدفا ومثالا للكتابة التاريخية، فعلى الرغم من الجهود التى يبذلها المؤرخون لتمثل طريقة الكتابة فى العلوم الطبيعية، فإنهم نادرا مايستخدمون هذه الطريقة ويمارسون الكتابة التاريخية من هذه الزاوية، وإنما فهم يقومون بالكتابة فى الأسلوب المغاير لأسلوب الكتابة فى العلوم الطبيعية. وذلك لأنهم عادة مايختارون الكلمات والعبارات الغنية فى دلالتها. ويضحون بالدقة الدلالية فى مقابل الأسلوب المثير للذكريات وللعواطف(١).

فالهدف من الكتابة التاريخية هو تحقيق الفهم المتقدم لأحداث الماضى، وذلك بهدف زيادة المعرفة حول الماضى، ولذلك يلجأ المؤرخون إلى النشر المثير للذكريات

---

(1) Hexter; J.H.; Historiography: The Rhetoric of History; in Intern. Ency. of Soc. Scis, Vol. 5 pp. 368 - 394.

كوسيلة فضلى لصياغة مايعرفونه حول الماضى ولإيصاله للقراء. ولذلك فإن النثر التاريخى يشبه إلى حد بعيد النثر البلاغى المستخدم فى الفنون الأدبية وليس النثر البلاغى المستخدم فى العلوم الطبيعية، ومن الواضح أن هذا النثر الأدبى هو الوسيلة الحتميه التى لامفر من إستخدامها فى إيصال المعرفة التاريخية:

١- المعرفة التاريخية وكيفية إيصالها:

فى ميدان البحث فى العلوم الطبيعية ترسخ العرف على إثبات المعرفة العملية فى النثر الدلالى، وقد وضع العلماء قيمة كبرى على القدرة التعميمية للإفادات اللفظية، والقدره التكرارية للتجارب، والحتمية المنطقية، ولذلك يفرض العلمى الذى اختاره علماء الطبيعة له استتباعا امكانية التعميم، وتكرار التجربة ذاتها فى المكان والزمان بفعالية وبالقدر الأقصى من الثبات. ولقد تبنى العلماء هذا الأسلوب البلاغى المتخصص لأنهم وجدوا فيه كل الفائدة فى استنباط الإجابات واختبار نوعية الأسئلة التى يطرحونها عادة. ولذلك فإنهم لايطرحون الأسئلة التى تستعصى على الصناعة البلاغية المتعارف عليها، وفى الواقع فإن استراتيجية العلوم الطبيعية فى تنسيق النتائج وتصنيفها تختصر إلى حد بعيد الفجوه القائمة بين المعرفة والكتابة حولها. ولذلك من التفاهة أن يقال فى العلوم الطبيعية أن المرء يعرف قانون التربيع العكسى، أو قانون التكافؤ، ولكنه لايستطيع أن يبلغ تلك المعرفة وذلك لأن هذا القول لامعنى له، حيث أن معرفة الفيزيائى حول نتائج الأبحاث الفيزيائية يجب أن يوضحها بالإستعانة بمعجم المفردات الفيزيائية وبنظم الجمل الرياضية[١].

والآن ما العلاقة بين معرفة المؤرخ بالتاريخ وإيصال هذه المعرفة بالكتابة؟. فى البداية يجب التسليم بأن الأسئلة التى يهتم المؤرخون بطرحها، والإجابات التى يبحثون عنها لايمكنها أن تقتفى أثر الأسئلة التى يطرحها الفيزيائيون والإجابات التى يقدمونها عليها. وعلى ذلك فلايمكن للمؤرخ أن يسلم نفسه إلى أسلوب

(1) Hexter; op. cit.

النشر العلمى، وذلك لأنه لايستطيع أن يقتفى فى الكتابة التاريخية أثر الصياغة العلمية التى يهدف إليها العلماء الطبيعيون وذلك لأن العلاقة القائمة بين المعرفة التاريخية وإيصالها تختلف تماما عن المعرفة العلمية وماهو شائع حول إيصالها للمتخصصين.

يكتسب المؤرخون معرفتهم للمادة التاريخية التى ينشرونها فى كتاباتهم التاريخية من خلال درس ماكتبه البشر فى الماضى، وحول الماضى، وذلك بتركيز الانتباه على البقايا والآثار والرسومات التصويرية، الأدوات، القدور، المبانى أو الأطلال، الأدوات الحربيه، والمقابر، أى المادة ا لأركيولوجية بالمعنى العريض. وتبدأ عـ لية التدريب فى أسلوب تصادفى، ومع مرور الوقت يصبح المؤرخون أكثر منهجية وأكثر تركيزا.

وتستمر هذه العملية خلال الحياة المهنية الفعالة للمؤرخ، وهى لاتتماثل على أى حال مع المعرفة بالخبرة التى تعتمد على الفطنة والبداهة فالمعرفة بالخبرة أقرب للانطباعية وهى تنتقل بين الناس بحكم العادة وليس بحكم التبرير المنطقى، ومع ذلك فهى تتماثل مع المعرفة التاريخية. وتختلف المعرفة التاريخية مع المعرفة بالخبرة بسبب اختيار المؤرخ لما سوف يواجهه فى دراسته التاريخية، بينما أن مايعرفه الناس من خلال الخبره اليومية يعرفونه مصادفة دون اختيار منهم، هذا بالإضافة إلى أنهم يتوصلون إليه من خلال المواجهة اليومية مع الأشخاص وفى مختلف المواقف. بينما تكون مواجهة المؤرخ مع البشر الماضيين ومواقفهم مواجهة غير مباشرة من خلال التسجيلات الوثائقية أو البقايا الاركيولوجية، ومع ذلك تتماثل المعرفة التاريخية مع المعرفة بالخبرة لوجود تداخل أو تشابك بينها، فكثير من وسائط الإتصال المعاصر قد أصبحت وسائطاً غير مباشرة نتيجة اللغة المكتوبة – الآلة الكتابه[١].

وعلى أى حال لايحتاج المؤرخ فى الجزء الأكبر من عمله إلى الإستجابة

(1) Hexter; op. cit.

العلمية أو الاستجابة المعملية المباشرة، لأنه ينشغل إلى حد بعيد بإستنتاج ماحدث فى الماضى وكيف حدث. ولكى يقوم بذلك عليه صياغة فرضيات دقيقة حول ماحدث وكيف ثم يتفرغ لفحص المادة المتاحة لإثبات صحة فرضياته أو تصحيحها. وعلى المؤرخ أن يختار الفرضيات التى تقدم المادة المسجلة المتاحة الأمل للتحقق منها.

مقارنة بالعلماء فى العلوم الطبيعية فإن الصلة بين المعرفة التاريخية والكتابة حولها بالنسبة للمؤرخين هى صلة فضفاضة وضعيفة. فإيصال المعرفة التاريخية فى كلمات مكتوبة يتطلب مؤرخين على ألفه طويله بالتدوين والمدونات التاريخية، مؤرخين يستطيعون تنظيم هذه المعرفة فى نصوص متناغمة لكى يجعلونها متاحة لأنفسهم أولا ثم بعد ذلك للقراء. وفى ذلك فهم يحرصون على تمكين قرائهم من تعقب الأحداث والاحساس بزمانيتها، وانصاف البشر وماقاموا به من أفعال وبيان الحاجات الملحة التى دفعتهم نحو الفعل. وفى ذلك لايمكن أن يكون النص التاريخى نصا تفسيريا بالمعنى السائد فى النصوص العلمية الفيزيائية. أو أن تقتفى الصياغة التاريخية أثر الصياغة العلمية، فقدره المؤرخ كباحث فى الماضى وكاتب للتاريخ تختلف اختلافا نوعيا عن قدرة عالم الفيزياء كباحث فى الطبيعة وككاتب للنشر العلمى. على أقل تقدير فإن المؤرخ لايستخدم معجما دلاليا عاما فى النشر التاريخى ولايستطيع التبديل بين لسان الأم فى إيصال مايعرفه حول الماضى، وبين اللسان الرياضى لإيصال هذه المعرفة. ولايمكن له التضحية بمعرفة الماضى وقدرته على إيصاله فى الأسلوب التاريخى فى سبيل وهم العلم والموضوعية التى وافقت أهواء بعض المؤرخين، ذلك أن اللغة التاريخية هى لغة مجازية، وكثيرا من معجم مفرادتها ليس هو معجم مفردات الإيضاحات العلمية. وإنما هو معجم مفردات الخطاب المألوف للمتعلمين، وتلك اللغة هى الوسيلة الملائمة للكتابة التاريخية حول أحداث الماضى، والأموات الذين يقدمون أعمالهم للقراء. ولذلك فإن تقدم المعرفة التاريخية يعتمد على أهلية النشر التاريخى وكفاءته وفعاليته. ولذلك فإن اللغة

المثيره للذكريات والعواطف هى الوسيلة الوحيدة لتقدم هذه المعرفة وشرطا لها على حد سواء[1].

٢- السرد التاريخى:

والوسيلة التى يعتقد المؤرخ أنه يستطيع بها إيصال مايعرفه حول الماضى هى السرد Narrative فالإيصال الفعال والمؤثر للمعرفة التاريخية يتطلب مبدأ راسخا لترتيب مايعرفه المؤرخ ويقوم على الترابط المنطقى والتناغم فى النص التاريخى، وهذا المبدأ المنطقى هو السرد. ولذلك فلكى يصل المؤرخون مايعرفونه للقراء فهم يقومون بسرد قصة أو قصص. فالسرد هو النموذج البلاغى الشائع الذى يلوذ به المؤرخون. وهو أيضا النموذج الأكثر شيوعا للتفسير التاريخى[2].

والسرد التاريخى ليس تفسير علمى بالمعيار الدقيق وذلك لأنه لايستطيع استنتاج تفسير علمى يناظر التفسير العلمى فى العلوم الطبيعية، حيث أنه لايستطيع اختزال الترابط المنطقى بين الأحداث إلى نمط الترابط الذى يشير إليه القانون العام. فالسرد هو النموذج الشائع للتفسير التاريخى لأنه يمثل نوع التفسير السببى الذى تتلمسه الأسئلة التاريخية التى يطرحها المؤرخون، فالقانون العام والسرد التاريخى ليس مجالين أوبديلين يمكن الاختيار بينهما، وانما هو هما يمثلان نموذجين مشروعين من التفسير. وذلك لأن شرعية نماذج التفسير لاتوجد فى الفراغ وإنما تتأسس وفقا للعلاقة القائمة بين هذا النموذج أو ذاك ومايبحث عنه الباحثون لمعرفته.

ليس هناك صلة بين تفسير القانون العام والبحث فى المواقف الماضية التى تتطلب سرد قصة، فالتفسير السردى يقدم عادة سلسلة من الإفادات حول حلقات الوصل السببية للأحداث الماضية. وكل تأثير ينسب إلى الأسباب المتقدمة زمنيا،

(1) Hexter; op. cit.

(2) Hexter; op. cit.

وذلك وفقا للأسباب العامله المحتمل صلتها الوثيقة بالموضوع. ولذلك فقد تحدد السرد التاريخى وفقا لقواعد التفسير التاريخى للمعرفة السابقة أو الحقائق التى حدثت فى الماضى. وهو أمر لايعنى به القانون العام. فمنظور القانون العام هو منظور الملاحظ المتزامن Synchronic، ومنظور المؤرخ هو منظور الملاحظ المتعاقب Diachronic الذى يعرف مكنون التواصل الذاتى. ومن المنظور الأخير فقط يعرف المؤرخ ويدرك درجة النشاط التاريخى، ويحكم على التناسب المنطقى الملائم لسرد القصة التاريخية.

٣- أدوات السرد التاريخى[١]:

هناك ثلاثة أدوات رئيسية يستخدمها المؤرخون فى السرد التاريخى بأسلوب فريد يختلف تماما عن أسلوب استخدام العلماء وتلك الأدوات هى: (أ) الحاشية أو الهامش (ب) الإقتباس أو الإستشهاد داخل النص، (جـ) فهرس الكلمات. وسوف نتعرف على كيفية إستخدام المؤرخين لهذه الأدوات.

(أ) الحاشيه أو الهامش:

يستخدم المؤرخون والعلماء كلاهما الحواش أو الهوامش وللغرض ذاته وفى الأسلوب نفسه، فهم يستخدمونها للإستشهاد بالأدبيات المنشورة حول الموضوع الذى يكتبون حوله. ولكن أسلوب إستخدام المؤرخين يختلف عن أساليب إستخدام العلماء لها، فالمؤرخون - دون العلماء - يستخدمون الحواش للإستشهاد بالمدونات التاريخية أو بالمادة الخام للأدله التى يبنون عليها معالجاتهم للماضى.

فالاستشهاد بالمدونة التاريخية هو الأسلوب الأمثل الذى يوضح به المؤرخ سلسلة الأحداث التى يتعهدها والتى تشكل فى النهاية الأثر التاريخى، فبالنسبة لعالم الفيزياء فإن تقرير التجربة هو الأسلوب الأمثل لتقرير عمليات الطبيعية كما

(1) Hexter; op. cit.

نظرها تجريبيا. وبالنسبة للمؤرخ فإن المدونه الباقية تمثل الأسلوب الأمثل لتقرير أحداث الماضى. وإستخدام المؤرخين للمدونات الباقية يشير إلى أنهم لايزالون يتعهدون الكتابة حول الماضى كما لو كان قد حدث بالفعل، وفى ذلك فإنهم يحرصون على تقديم معالجتهم التاريخية التى يمكن الحصول عليها فى ضوء الأدلة الخارجية الوثيقة الصلة، ويطلق عليه تلك القاعدة قاعدة الواقع.

والقاعدة السائدة التى تنظم طريقة إستخدام المؤرخين للهوامش هى : ضع فى الهوامش الشواهد أو المعلومات التى لو تم تأكيدها داخل النص فإنها قد تنقص التأثير المرغوب على القارىء، وهو التأثير الذى يحرص المؤرخ على نقله إليه. فالمادة التى تحتويها الهوامش عادة ماتكون مادة نوعية أو إخبارية وثيقة الصلة بالموضوع فى ضوء المناقشة التى يقدمها المؤرخ فى متن النص التاريخى.

(ب) الاقتباس أو الاستشهاد داخل النص:

على الرغم من اقتباس كل من المؤرخين والعلماء للنصوص داخل النص، فإن الإختلاف بينهم ينحصر فى أنه فى حالة عدم استطاعة الفيزيائيين الاقتباس داخل النص فإنهم لن يشعروا - مثل المؤرخين - بالإخفاق فى إيصال معرفتهم إلى القراء فإذا كان الاقتباس ترف للفيزيائيين فإنه ضرورى وجوهرى للمؤرخين وللنشر التاريخى.

فالاقتباس من المدونة هو القاعدة الحتمية فى الكتابة التاريخية ويهدف الاقتباس - إلى جانب الإقناع - إلى إيصال وجهة نظر المؤرخ فيما حدث فى الماضى فهو يقول: «الأسلوب المقتصد فى هذه القضية أن أخبرك بما كان يعنيه...، ولكى أقنعك بما كان يعنيه فلابد أن أواجهك مباشرة بما قاله ...»

فالاقتباس من مدونات الماضى يتم حين يكون مواجهة القارىء مع هذه المدونة هى الأسلوب الأمثل لمساعدته لتحقيق فهما للماضى كما حدث بالفعل. فهو بمثابة نافذة زجاجية من خلالها يستطيع القارىء السيطرة على تصور للماضى. يستطيع المؤرخ أن ينقل به للقارىء الماضى كما حدث بالفعل.

(جـ) فهرس الكلمات:

ويستخدمه المؤرخون والعلماء كلاهما بهدف تقرير وتحديد الكينونات التى يدرسونها ويصنفونها بطريقة واضحة. وفى هذه المسألة بالتحديد يتطابق هدف المؤرخ وهدف العالم على نحو دقيق، فمعجم المفردات الذى تحدد مسبقا يمكنه أن ينقل مختلف أنواع المعلومات والفهم ومايقصد منه أن يقوم بتوصيله. فى العلم الطبيعى يعتمد اختيار سمات النسق التصنيفى على أهمية السمات المختاره داخل حدود العلم. وتتدرج هذه الأهمية وفقا لإطار التعميميات أو القوانين العلمية، أو نموذج التفسير السائد ولكن ولأن نموذج التفسير التاريخى (السرد) لايتميز بهذا الوضوح أو التوحيد فإن الذرائع الخاصة بالأسواق التصنيفية البديلة غالبا ماتثير الجد ل بين المؤرخين، ولذلك تظهر منشكلة التصنيف التاريخى بشكل أكبر فى التاريخ منه فى العلم الطبيعى. وذلك لعدم تماثل التصورى فى النشر التاريخى مع نظيره فى نشر العلم الطبيعى.

رابعاً: بين الأنثربولوجيا الاجتماعية والتاريخ:

لأن الباحث الانثربولوجى يمكن أن يكون بنفس القدر مؤرخاً والعكس صحيح فإنه ليس هناك امكانية للسؤال عن ملامح الاختلاف بين الانثربولوجيا الاجتماعية كما يفهمها المؤرخون والتاريخ كما يفهمه الانثربولوجيون الاجتماعيون، وذلك لأن الاختلاف بين العلمين لايكمن فى الهدف أو المنهج، وذلك لأن العلمين كلاهما يحرصون على القيام بالشىء نفسه، وهو أن يقوموا بترجمة مجموعة من الأفكار (سواء الأفكار البدائية أو الأفكار التاريخية) إلى مجموعة أخرى من المصطلحات، أقصد مجموعة المصطلحات الانثربولوجية أو التاريخية، وعلى ذلك يتطابق العلمان فى الهدف اللذان يسعيان إليه وفى المنهج الذى يستخدمانه لتحقيق هذا الهدف. وعلى ذلك فاءن القول بأن الباحث الاثنوجرافى يقوم بدراسة حياة الأحياء دراسة مباشرة ويتعامل مع مصادر المعرفة بطريقة مباشرة وأن المؤرخ يدرس حياة الموتى ويتعامل مع مصادر المعرفة الميتة من

الوثائق هو قول يعبر عن اختلاف تقنى بين المتخصصين ولايعبر عن الإختلاف المنهجى القائم بين العلمين، وكذلك فاءن الادعاء القائل بأن الإختلاف بين الدراسة الاثنوجرافية لاحد المجتمعات (التى تتم فى العادة على مدار فتره قصيرة من الزمن) والدراسة التاريخية لبعض الأحداث التاريخية (التى تتم فى الغالب على مدار فترة طويلة من الزمن) يمثل أحد الإختلافات الحيوية بين العلمين ليس له أساس، ذلك أن المؤرخين قد يغطون فى دراستهم التاريخية عدد ضئيل من السنين، كذلك لايمثل اهتمام الاثنوجرافيين بالمجتمعات المحلية الصغيرة وإهتمام المؤرخين بالمجتمعات الكبيرة أى إختلاف دال بين العلمين، وفى الحقيقة فحجم بعض المجتمعات المحلية الصغيرة قد يماثل حجم تلك المجتمعات التى أخضعها المؤرخون الكلاسيكيون للدراسة التاريخية[1]

ربما كان الإختلاف الواضح بين الاثنوجرافيين والمؤرخين يرجع فى أن مايكتبه الاثنوجرافيون حول المجتمعات البدائية غالبا مايتجاهله المؤرخون، فقد يهتم الاثنوجرافيون بالسحر أو العرافية نظراً لانتشارها فى المجتمعات البدائية أو بالعلاقات العائلية والقرابية والزواج، وهذا راجع للتدريب الخاص والخبرة الميدانية التى يمتع بها الاثنوجرافيون، وبالمثل فقد يناقش المؤرخون طبيعة القانون المبكر أو نظام الاقطاع أو الأحداث السياسية دون أن يلتفت إليهم الانثربولوجيون، وهذا راجع إلى أن الأسئلة التى تعلم الاثنوجرافيون أن يطرحوها على أنفسهم ومصادر معلوماتهم الأحياء والناجمة عن اتصالهم الشخصى المباشر بالواقع الاجتماعى المدروس بفعل ضغط المواقف الحية المتكررة لايطرحها المؤرخون على الوثائق وبالتالى فهم لايقدمون الإجابات عليها، فقد تقدم الوثائق مادة وفيرة، ولكن المؤرخ ليس بمقدوره - مثل الاثنوجرافى - أن يقوم بملاحظة السلوك مباشرة أو أن يطرح الأسئلة اللفظية التى تستنبط الإجابات السماعية، فهو (أى المؤرخ) يلاحظ السلوك فى الوثائق، وحينما يطرح أسئلته نظريا عليها فغالبا لاتجيب لأنها خرساء.

(1) Evans - Pritchard; "Anthropolgy & History"; op.cit.

أما الإختلاف النظرى الثانى بين الانثربولوجيا الاجتماعية والتاريخ فينحصر فى أن المؤرخين يكتبون فى العادة التاريخ مثلما كان فصاعدا Forwards فى حين قد يميل الاثنوجرافى لكتابته مثلما يكون فهابطا Backwards فالمؤرخ يبدأ فى ضوء المعرفة المكتوبة التى جمعها حول الماضى فى تتبع أطوار التاريخ حتى الوقت الحاضر. بينما يميل الاثنوجرافى إلى السير فى الاتجاه المعاكس فيقوموا فى ضوء المعرفة الشفاهية التى جمعها حول الحاضر بتأويل أطوار تطوراته التاريخية التى حدثت فى الماضى(١).

ولكن هذا الإختلاف خادع إلى حد بعيد، وذلك لأن المؤرخ يقوم فى الحقيقة بتأويل الماضى فى حدود خبرته بالحاضر، وذلك لأن الحقائق التى يقوم بتأويلها سوف تصبح عديمة المعنى إن لم يكن بمقدوره أن يقدم قياساً تمثيلياً بينها وبين حقائق الحاضر. ولذلك يقال دائما أن المؤرخ الذى يفهم الحاضر هو المؤرخ الوحيد الذى بإمكانه فهم الماضى. فالمؤرخ يقوم بفهم شعوب العصور الأخرى من خلال الخبرة بمعاييرها وأفكارها وقيمها الخاصة، ولكن إن لم يكن هناك تداخلاً بين ثقافتنا الحالية وثقافات العصور الأخرى وإذا لم يكن هناك علم نفس شائع بين كل الشعوب فلن يكون بمقدور المؤرخين من مختلف الأزمنة او الامكنة ، وكذلك الانثربولوجيين الذين يعيشون بين الشعوب البدائية فهمهم على الاطلاق. لقد انشغل الانثربولوجيون بشكل صريح بالحاضر وأخذوا الماضى كشىء مسلم به، وانشغل المؤرخون بالماضى وأخذوا الحاضر كشىء مسلم به، وهنا تكمن المفارقة، فإذا كان على الحاضر (حين يصبح ماضيا) أن يُقيم استبطانيا، فإن على الماضى أن يُقيم فى ضوء الحاضر.

فى الواقع يدرس الاثنوجرافى والمؤرخ الحقائق نفسها، ولكنهما يدرسونها لأهداف مختلفة ويستخدمونها بشكل مختلف، فالاثنوجرافى يبحث فى ماضى المجتمع لكى يكتشف المظاهر الدائمة على مدار فترة طويلة من الزمن لمايبحث فيه

(1) Evans - Pritchard; op.cit.

فى الحاضر، وذلك لكى يتأكد ما إذا كان هناك اعتمادا متبادلاً مابين حقائق الحاضر والماضى أم لا، أو لتحديد ما إذا كانت احدى الحركات الاجتماعية هى حركة تكرارية أم لا. وهكذا فليس هدف الاثنوجرافى أن يقوم بتفسير الحاضر بأصوله. وتلك هى فى الحقيقة المشكلة المميزة التى واجهت العلامة السويسرى فردينان دوسوسير F.de Saussure فى بداية هذا القرن حين ناقش الإختلاف بين المنظورين التزامنى Synchronic والتعاقبى Diachronic والذى منه انتقلت تلك التفرقة بين هذين المنظورين إلى الانثربولوجيا الاجتماعية البريطانية.

ولقد تمسك الانثربولوجيون البريطانيون بتأويل الحاضر عبر خطوط الأداء الوظيفى التزامنى، واتجه المؤرخون لتأويل الماضى عبر الخطوط التاريخية التعاقبية، وقد يكون هذا التقابل بين مايفعله الاثنوجرافى و مايفعله المؤرخ تقابلاً مشروعاً حين يقصر الاثنوجرافى نفسه على دراسة مجتمع ما فى نقطة معينة من الزمن أى يدرس «الحاضر» الحاضر، ويقصر المؤرخ نفسه على دراسة الماضى أى يدرس الماضى الحاضر ولكن علينا أن نتعلم كيف نوفق بين المنظورين التزامنى والتعاقبى وذلك بغاية دراسة المجتمع الإنسانى فى فترة طويلة من الزمن.

خامساً: التاريخ الاثنوجرافى ومصادره:

لقد تغيرت العلاقة بين الانثربولوجيا الاجتماعية والتاريخ فى السنوات الأخيرة، فالانعزال الذى استمر عقوداً طويلة بين المتخصصين فى العلمين لم يعد له وجود. لقد كان من السائد أن الطريق الذى تسير فيه الأبحاث الانثربولوجية الميدانية (على اعتبار أنها تتم فى الغالب بين شعوب تفتقد للوثائق المكتوبة) يأتى فى الاتجاه المخالف للطريق الذى تتبعه الأبحاث التاريخية (على اعتبار أنها دارت فى الغالب حول تواريخ الشعوب الأوربية)، وعلى ذلك رأى المتخصصون فى العلمين كلاهما أن مادة العلم الآخر تأتى دائما خارج فى حدود اهتماماتهم. نقول لم يعد لهذا الاعتقاد فى الوقت الحالى أى مبرر، فلم تعد الدراسات الانثربولوجية

توصف بأنها دراسات «تزامنية» (تتم على المقطع العرضى الحاضر) ولم تعد الدراسات التاريخية تتوصف بأنها دراسات تعاقبية (تتم على المقطع الطولى أو التاريخى للحاضر) فقد بدأ الباحثون الانثربولوجيون يهتمون بدراسة التغيرات الاجتماعية والتعاقبات التاريخية للنظم الاجتماعية داخل سياق تاريخى محدد، وبدأ المورخون يهتمون بالتاريخ المتداول ولم يعد مفهوم «التاريخ» ينحصر عندهم فى الماضى أو تعاقب الأحداث. وعلى ذلك بدأ المؤرخون - مثل الانثربولوجيون - فى الاهتمام بالشواهد الاثنوجرافية التى يقومون بجمعها عن طريق الملاحظة الشخصية والاتصال الشفاهى المباشر[1].

لقد بدأ المؤرخون فى الانجذاب نحو المفاهيم والمناهج الانثربولوجية، ولذلك كتب فينلى M.I.Finley حول الثقافة اليونانية والبناء الاجتماعى للمجتمع اليونانى فى العصر الملحمى معتمدا على الأوديسا Odyssey ومستخدما أفكار عالم الانثربولوجيا برونيسلاف مالينوفسكى B.Malinowski، وعالم الاجتماع مارسيل موس M.Mauss، وعمد دودز E.R.Dodds إلى تحليل الأدب اليونانى القديم فى ضوء مفاهيم الانثربولوجيا السيكولوجية، وقد ظهرت دراسته تحت عنوان اليونانيون واللامعقول (١٩٥١) أما بلوخ M.Bloch فقد درس المجتمع الاقطاعى والبناء الاجتماعى للريف الفرنسى فى العصور الوسطى، أما المؤرخون البريطانيون فقد تناولوا موضوع عداوة الدم عند الفرنجة وأنساق القرابة والزواج الانجلو ساكسونى فى العصر المبكر الحديث فى ضوء مفاهيم الانثربولوجيا الاجتماعية[2].

وهكذا قام المؤرخون بالخطوة التمهيدية نحو تحقيق المصاهره أو الاقتران بين التاريخ والانثربولوجيا الاجتماعية، لقد قال ميتلاند F.W.Maitland يوما: «أن على

---

(1) Laslett, p.; History and The Social Sciences; in Intern. Ency of Soc. Scis., Vol.5 pp. 434 - 440.

(2) Laslett; op.cit.

الانثربولوجيا الاجتماعية أن تختار بين أن تكون تاريخا أو تكون عدما»، ومع ذلك لم يلتفت الانثربولوجيون إلى هذا القول المأثور حتى فى الأحوال التى كانت فيها الوثائق التاريخية الشحيحة فى متناول أيديهم (فى دراساتهم لمجتمعات الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط)، ومن الواضح أن المؤرخون هم الذين استفادوا من القول المأثور لميتلاند بعد أن صاغوه بما يتناسب وهدفهم، فأصبح هذا القول بينهم: «إن على التاريخ أن يختار بين أن يكون انثربولوجيا اجتماعية أو يكون عدما».

وعلى أى حال فإن بداية اهتمام الانثربولوجيين بالاستعانة بالتاريخ فى السنوات الأخيرة يمثل البداية لإزالة القيود التى وضعها النقاد الانثربولوجيون الأوائل بين البحث التاريخى والانثربولوجى ولذلك بدأ الانثربولوجيون المعاصرون فى كتابة تواريخا بنائية داخل وحدات اجتماعية كلية، وإن كانوا قد استغنوا عن المنهج التاريخى السردى واحلوا بدلاً منه منهج الوصف الاجتماعى الذى يقوم على الربط بين «السابق» و«اللاحق»، حيث يبدأ الانثربولوجيون أدبياتهم من البناء العائلى حتى يصلوا إلى النسق القرابى ثم ينتقلون إلى بحث العلاقات الكلية الأخرى مثل العلاقات الجغرافية والاقتصادية والدينية والفكرية التى توصلهم فى النهاية إلى رسم صورة تاريخية للمجتمع المدروس، وهى اجرائيات - كما هو واضح - تتعارض مع الممارسات التقليدية للمؤرخين[1].

ولأن المؤرخ الاثنوجرافى للتاريخ البنائى يكتب تاريخاً مجتمعيا وليس علما اجتماعيا، فسوف تكون له الحرية فى اختيار الشواهد أو الأدلة الدالة التى سيتم تمثيلها فى النص بوصفها شواهد أو أدلة نموذجية، وذلك فى ضوء النظرية الاجتماعية المتبناه، وسوف يكتشف المؤرخ الاثنوجرافى أن الوصف «الكلى» الذى أدعته الانثربولوجيا الاجتماعية الميدانية طوال فترة تزيد على نصف قرن هو «وهم» لاسبيل لتحقيقه، ذلك لأن كل مايستطيع المؤرخ الاثنوجرافى أن يضعه على الورق

(1) Cohn, B.S.; "Ethnohistory"; In Intern. Ency.of Soc. Scis., Vol. 5. pp. 440 - 448.

هو «نموذج» لتاريخ المجتمع البدائى الذى يقوم بدراسته. والأهم من ذلك عليه الاعتراف بأن لمهمته شقين، شق نظرى والآخر امبريقى.

وبإختصار لايمكن لنا الادعاء بأن التاريخ البنائى هو البديل الضرورى لنمط التاريخ التقليدى، وذلك لأن لكتابة التاريخ وظائف عديده، وسوف تستمر كتابة التاريخ التقليدى لتحقيق هذه الوظائف. وكل مايهمنا هنا هو عرض العلاقة المعقدة القائمة بين التاريخ التقليدى والانثربولوجيا الاجتماعية مؤكدين أن الباحث الاثنوجرافى والمؤرخ يمكن أن يكونا شخصاً واحداً. وهذا الاندماج يجب أن يتزايد فى المستقبل فالتحديات الناشئة عن كتابة التاريخ البنائى سيفرض على الباحث الاثنوجرافى أن يكون مؤرخا، وعلى المؤرخ أن يكون باحثا اثنوجرافيا ولن يكون بمقدور أى منهما تجاهل هذا الاندماج بعد الآن. ومن أهم الأدوات المنهجية التى يستعين بها المؤرخ الاثنوجرافى مايلى:

١ - الوثائق المكتوبة:

غالبا مايصاب المؤرخ الاثنوجرافى الذى عليه القيام ببحث تاريخى بين أحد الشعوب البدائية بالأحباط، وهذا لايعود إلى المشكلات الاجرائية التى يواجهها غالبا مع الوثائق ذاتها (كالاستشهادات أو الإسناد) وإنما يعود إلى أن المجتمعات الذى عليه القيام بدراسته فيها هى مجتمعات غير كتابية، وأن الموضوعات التى يهتم بها تختلف تماما عن الأشياء التى حرص أعضاء مثل هذه المجتمعات على تسجيلها على الحجر أو الورق. فالمؤرخ الاثنوجرافى لايهتم فى العادة بالأحداث التاريخية التى تم توثيقها بشكل جيد، وانما يهتم بمشكلات التاريخ البنائى المحلى مثل: الروابط القرابية بين الزعماء التاريخيين «المتخيلين»، أو حركة انتقال العشائر فى بعض العصور واستقرارها، أو المعانى الرمزية لشعائر حفلات التتويج فى أحد المجتمعات الأصلية فى القرن التاسع عشر... وهكذا[١].

(1) Cohn; op.cit.

فالمؤرخ الاثنوجرافى بوصفه باحثا ميدانيا يهتم بإعادة بناء التاريخ البنائى فى صوره نسق وظيفى فى ضوء الأجزاء المتناثرة من المعلومات. وهو لايستطيع فى العادة استنتاج مادته عن طريق الملاحظة المباشرة لسلوك الناس فى مختلف سياقات الخبرات الاجتماعية الحية. وإنما يستطيع ذلك بطرح الأسئلة التاريخية على الناس وتدوين الروايات التاريخية التى يقدمونها بنفسه، وحين يستعين المؤرخ الاثنوجرافى بالسجلات الادارية (التى تم تدوينها فى عصر الإستعمار الأوربى) فإنه لايكتفى بالتفاصيل أو الايضاحات الادارية المسجلة. وإنم يهتم بوضع تلك الوثائق فى السياق الاجتماعى والثقافى العريض. وذلك لأنه يحرص دائما على فهم الوثائق المكتوبة (من وجهة نظر الاداريين الأوربين) وإعادة تأويلها من منظور الأهالى الأصليين أنفسهم، فالمؤرخ الاثنوجرافى وإن كان يستعين بالوثائق فى دراساته الميدانية مثل المؤرخ التقليدى تماما إلا أنه يطرح عليها أسئلة مختلفة تماما عن الأسئلة التقليدية التى يطرحها المؤرخ التقليدى عادة. حيث أن اهتمام المؤرخ الاثنوجرافى هو بالأساس اهتمام بتاريخ المجتمع الأصلى من حيث هو كذلك[١].

وإن كان تأويل الوثائق الرسمية أو غير الرسمية من وجهة نظر السكان الأصليين يتطلب من ناحية أخرى فهم ثقافة الاداريين الاوربيين أنفسهم فلسفتهم السياسية والاجتماعية، ومستواهم التعليمى، وفهم البناء الادارى للإدارة الأوربية ذاتها. مناصب الرجال المسئولين عن إتخاذ القرارات، وعلاقاتهم بالإداريين فى المراكز الاستعمارية النائية، ويتطلب أيضا معرفة كيف يجمع الاداريون المعلومات من المستعمرات، ومن الذين يستخدمونهم من السكان الأصليين فى تلك المهمة، وما التصورات التى طورها الاداريون حول المجتمع الأصلى وإلى أى حد أثرت تلك التصورات فى إتخاذ القرارات وبالتالى أثرت فى حياة المجتمع الأصلى... وهكذا[٢].

---

(1) Cohn; op.cit.

(2) Cohn; op.cit.

٢- التراث الشفاهى:

وضّحت دراسات التاريخ البنائى التى قام بها المؤرخون الاثنوجرافيون مكانة التراث الشفاهى فى المجتمعات التى لاتعرف الكتابة، فالتراث الشفاهى فى تلك المجتمعات لايقتصر فقط على الأساطير والقصص الفلكورية والتاريخية، وإنما يتضمن المعرفة الايكولوجية والحرفية والدينية والسحرية والمأثورات والتاريخ وخلافه، إنه بإختصار «المعرفة الشاملة» التى تنتقل بالمثابرة من «فم» إلى «أذن» ومن «معلم» إلى «مريد» خلال العصور إلى أن تستقر فى ذاكرة الجيل الأخير من أجيال حفظة التراث الشفاهى[1].

فى المجتمعات الشفاهية تعلو قيمة الذاكرة الإنسانية علوا كبيراً، وتشتد قوة الرابطة التى تجمع بين الإنسان والكلمة التى يتفوه بها، ويصبح الإنسان هو الكلمة ذاتها وتصبح الكلمة التى يتفوه بها هى الشاهد الإنسانى ذاته، ويتوقف تماسك مثل هذا المجتمع على قيمة الكلمة الشفاهية ومدى احترامه لها. وقد حفظ التحالف القائم بين العوامل الاجتماعية والدينية أو السحرية للكلمة المنطوقة قدسيتها، حيث تغطى الرواية الشفاهية كل مظاهر الحياة الاجتماعية وتتغلغل فيها كلية، وقد تستعصى الرواية الشفاهية على العقل الديكارتى الغربى المنظم الذى تعود على تحليل الأشياء وتصنيفها فى مقولات منفصله، ولكن العقل الشفاهى قادر على الفهم ويستطيع أن يخاطب الناس على قدر ميولهم، فقد تأسست الرواية الشفاهية على الخبرة الذاتية، وهى تتضمن رؤية خاصة للعالم أو تصور خاص له حين ينظر إليه العقل الشفاهى بوصفه كلاً ملتحما تترابط فيه الأشياء كلها وتتشابك معا.

وغالبا مايكون فى المجتمعات الشفاهية متخصصون يعنون بالتراث الشفاهى، وعليهم تذكر هذا التراث ونقله إلى الأجيال التالية، ونستطيع أن نفهم القداسة أو

(١) على المزروعى، «محفوظات أفريقيا وتراثها المنقول»، مجلة اليونسكو العدد ٢٨٥، فبراير ١٩٨٥.

الإحترام العميق الذى تظهره تلك المجتمعات لهؤلاء المتخصصين أو حفظة التراث، وبخاصة حين يتعلق الأمر بنقل الروايات الموروثة التى تحدد الملكيات أو حقوق القيام بأداء الشعائر المحلية ... وغيرها. ويسمى هؤلاء المتخصصون فى بعض اللغات الأفريقية «العارفون» والعارف من يعرف أصول العلوم المحلية (علم الصيد أو الرعى أو القنص أو علم المناخ، أو السحر أو الحرف... وهكذا) وليس معنى ذلك أن هذه المجتمعات تشطر المعارف إلى شطائر بين العارفين، لأنه ليس هناك متخصص فى علم من العلوم المحلية إلا فى النادر، فالعارف يكون عارفا بأصول علم النبات المحلى (الخصائص المفيده والضاره لكل نبات) وعلوم التربة (الخصائص الزراعية لكل أنواع التربة) وعلم الطب (الخصائص الطبية للنباتات) وعلوم المياه والأمطار والفلك، وفوق ذلك فهو متخصص فى علم الحياة الاجتماعية حيث يقوم بتوظيف مختلف أنواع المعرفة فى الممارسة اليومية للحياة، ولذلك كان للعارف كل هذا التقديس فقد ورث كل علوم الأقدمين، ولديه ذاكرة قوية تمكنه من حفظ أحداث الماضى، وهو ملتزم أبدا حيث يأخذ نفسه دائما بشىء من ضبط النفس، ولذلك كان العارف هو الرجل المتأمل الذى يستطيع التحكم فى عواطفه، والذى يتميز بقوه الشخصية ولديه ارتباطه بسلسلة الرواه السابقين[١].

ويجب أن تكون الرواية الشفاهية الصحيحة ذات إسناد، لأن صدق الرواية الشفاهية يكمن فى سلسلة المراجع أو الإسنادات التى تستند إليها، وفى الحذر الشديد الذى يميز «الراوية التقليدى»، ولذلك فهو يجوب انحاء البلاد بحثا عن الحقائق التاريخية الثابتة، فالرواة التقليديون هم المؤرخون الطبيعيون للمجتمع الشفاهى، وهم السجل الحى الذى يحفظ التاريخ، وقد لانستطيع أن نتخيل مدى

اتساع ذاكرة الراوية التقليدى، فكل معلوماته وخبراته شفاهية محفورة فى الذاكره، وتعتمد على الذاكره وحسب فى حفظها، ولذلك فهو يستطيع أن يعيد

---

(١) أحمد هباتيه با، الألسنة التى حفظت التاريخ: الحفظة المخلصون للتراث الافريقى الشفوى، مجلة اليونسكو العدد ٢١٩، ٢٢٠، اكتوبر - نوفمبر ١٩٧٩.

أية معلومة من الألف إلى الياء كلما دعت الضرورة لذلك. فإذا كان كل شخص فى المجتمع الشفاهى على علم بشىء من «الانساب» ويستطيع أن يسرد شجرة نسبه حتى الجيل العاشر مثلاً، وإذا لم يستطع القيام بذلك فهو كما لو كان قد فقد هويته فإن العارف النساب يستطيع أن يعيد ترتيب أربعين جيلا على الأقل من أسلافه(١).

وعلى أى حال يجب على المؤرخ الاثنوجرافى أن يعرف كيف يمكن جمع التراث الشفاهى، وكيف يمكنه الموازنة بين الروايات وتحقيقها والاستفاده منها، وعليه أن يحترس حيث تعكس تلك الروايات فى العادة رؤية هؤلاء الرواه لماضيهم القبلى، ولذلك تنحصر مهمة المؤرخ الاثنوجرافى فى اثبات صدق الروايات أو تصحيحها وتدعيم الصلات القائمة بينها، فقد يكون للعشائر الملكية تواريخا شفاهية محفوظة جيداً، ولكنها تتغير وفقا للمواقف الآنية المتغيره، وقد يظهر له عدد من الروايات المتصارعه حتى داخل القبيلة الواحده، ولذلك يجب عليه عند تأويل الروايات الشفاهية التركيز على السياق الاجتماعى والثقافى الذى وردت فيه، ويجب أن يطرح دائما السؤال المهم الخاص بالوظيفة التى تؤديها «الرواية» فى الحياة الاجتماعية المعاصرة.

٣- البحث الميدانى:

الأساس الذى يميز بين الإدارى الاستعمارى الذى قام بتدوين بعض الوثائق الإدارية التاريخية فى المراكز الاستعمارية وبين المؤرخ الاثنوجرافى هو الدراسة الميدانية، فتلك الدراسة الميدانية تمثل فى الحقيقة أساس عمل المؤرخ الاثنوجرافى(٢).

---

(1) Cohn; op.cit.

(2) Cohn, op. cit.

وتبدأ إجراءات هذه الدراسة الميدانية بخضوع المؤرخ الاثنوجرافى للتدريب الأكاديمى الذى يخضع له فى العادة المتخصص الأنثربولوجى، والذى يبدأ فى الحرص على تعلم اللغة المحلية، مروراً بخبره الاقتناص المنهجى للملاحظات الميدانية، وكيفية جمع المادة الخام من الأشخاص الأحياء، وكيفية تسجيل الروايات الشفاهية، ولأن البحث الميدانى عند المؤرخ الاثنوجرافى يهدف فى الأساس تقديم وصف للتاريخ البنائى السائد فلسوف يتمكن هذا المؤرخ الاثنوجرافى خلال البحث الميدانى من تطوير فهم عميق للبناء الاجتماعى السائد، وهو فهم من الصعب أن يحصل عليه المؤرخ التقليدى الذى يكتفى بالشواهد الوثائقيه فقط. لأن فهم البناء الاجتماعى يتطلب معايشة الشواهد الإنسانية الحية واختبارها، وهو هنا (أى المؤرخ الاثنوجرافى) مطالب دائما بتعيين الأفكار المرتبطة بالعمليات البنائية التاريخية وإختبارها بشخصه فى الميدان حيث تكون فى العادة جميع مظاهر البناء الاجتماعى سواء التاريخية أم الثقافية الآنية فى حالة تفاعل ديناميكى حى.

الفصل الثالث
منهج البحث فى الأنثربولوجيا الاجتماعية

مقدمة:

أولاً: مقومات البحث الميدانى:

١- تعلم اللغة الوطنية.

٢- نظرية سياق الحال.

٣- فن كتابة النص الاثنوجرافى.

ثانياً: طقوس الأداء الفعلى الميدانى.

- الملاحظة بالمشاركة والاستعانة بالإخباريين.

الفصل الثالث

منهج البحث فى الأنثربولوجيا الاجتماعية

مقدمة:

من وجهة نظر التصور الاستقرائى للمنهج العلمى يمكن تعريف هذا المنهج بأنه الجهد المبذول لتحقيق الفهم المتزايد للظواهر المدروسة، ووفقا لهذا التعريف يعتبر المنهج العلمى امتداداً طبيعياً لقدراتنا التعليلية الطبيعية التى نستخدمها فى مواقف الحياة اليومية، على سبيل المثال لو رغب أحدنا فى الذهاب إلى أحد الأماكن فإن عليه أن يعرف أولاً المكان الذى يود الذهاب إليه، ومن أين سيبدأ، وإلى أين سينتهى وذلك قبل أن يبدأ فى التحرك الفعلى، فهكذا يقوم العالم Scientist بالأعمال ذاتها، ولكنه يقوم بها بطريقة منظمة مستعينا بالاجرائيات أو التقنيات التى صممت فى الأصل لضمان قيامه لهذه الأعمال[1].

فالعالم فى هذه الحالة يشبه المهندس الانشائى الذى يحرص على دراسة الرسم الهندسى لأحد الجسور (أو أحد العمارات) قبل أن يشرع فى بنائه (أو بنائها)، أو يشبه الملاح أو القبطان الذى يحرص على دراسة الخرائط الملاحية قبل الإبحار، وذلك لأن الاخلال بمقتضيات ذلك سوف ينتهى بالمهندس الانشائى إلى هدم كل ماقام بتشييده أو بناءه، وسوف ينتهى كذلك بالملاح أو القبطان إلى الانحراف بسفينته عن المسار المرسوم والوقوع فى المياه الضحلة.

فهكذا الأمر مع «العالم»، ولذلك فاءن تجاهله للاجرائيات أو التقنيات العلمية سوف ينتهى به إلى فقدان الاحتمالات الحيوية القيمة التى تسهم فى بلورة بعض النظريات أو التحقق منها، وسوف ينتهى به الأمر عاجلا أم آجلاً إلى نتائج واهية

(1) Phillips, B.S.; Social Research: Strategy and Tactics; Macmillan Publishing Co. Inc. N.Y. 1976. p.3.

عديمة القيمة لاتسهم فى تقدم المعرفة العلمية، ولذلك فاءن من المحتم أن يقوم العالم انطلاقا من الأفكار السائدة بتعريف «المشكلة» التى سيقوم بمعالجتها، وتحديد ماهو سائد حولها من أفكار حتى يمكنه فى ضوئها تحديد المسار أو الخطوات النوعية التى سيتخذها لمعرفة ماهو غير معروف عنها، ثم بناء موقف البحث اللازم لتحصيل المعلومات فى هذا المضمار، ثم القيام بتحليل هذه المعلومات وتفسيرها بالقياس إلى القوانين المشروعة لوجودها مع التركيز بوجه خاص على مايسمى بمعايير الاتصال العلمى بين البحوث(١). فعلى هذا الأساس يقدم المنهج العلمى الفرصة الكاملة للعالم للتوصل إلى التفسيرات العلمية، وتجاوز ماوصل إليه العلماء الآخرون من نتائج. أو حتى إعادة اثباتها أو التحقق منها، وبذلك يعتبر المنهج العلمى أسلوب منظم لجمع المعلومات حول الظواهر وتحليلها وتفسيرها، ويقوم هذا الأسلوب أساساً على الاجرائيات والتقنيات التى صممت فى الأصل بغاية زيادة معرفتنا حول طبائع الظواهر، وعلى الرغم من ذلك فاءن طبيعة المنهج العلمى ليست ثابتة، وانما تتغير بتغير كيفيات الظواهر الخاضعة للدروس، والأساليب النوعية اللازمة لتحصيل المعلومات الضرورية للاستفسار عنها، وبذلك يمكن القول أن المنهج العلمى يتحدد أساساً وفقاً للأهداف أو النتائج التى يسعى إليها، وذلك لأن النتائج التى يقدمها أحد العلماء قد تكون نتاجا للمناهج المستخدمة فى البحث وليس نتاج للظواهر الخاضعة للدراسة(٢).

وهذه الصفة الاصطفائية أو الانتقائية للمنهج العلمى تفسر فى الحقيقة الانتقادات اللازعة التى وجهت كثيرا للمونوجرافات Monographs الاثنوجرافية فى الأنثربولوجيا الاجتماعية، وتفسر كذلك لماذا ضاق صدر النقاد منها وذلك بسبب عدم تراكمها، فالمونوجرافات الاثنوجرافية لاتعتبر أبحاثا «علمية» بالمعنى الدقيق للكلمه، وانما هى صور قلمية أدبية للمجتمعات التى قام الباحثون

(1) Pillips, Social Research, op.cit. p. 8.
(2) Pillips, Social Research, op.cit. p. 9.

الميدانيون بدراستها[١]، ومثلما أنه من غير المتوقع أن تصبح «روايتان» كتبهما مؤلفان مختلفان متزاكمتين نتيجة استخدامهما منهجاً علمياً فى كتابتهما، لأنه ليس من المألوف أن يتجرد الأديب من تجربته الشخصية وقدراته الخيالية، فكذلك الأمر بالنسبة لأى مونوجرافيين اثنوجرافيين، وذلك لأن الخبرات الشخصية لأى باحثين مختلفين لايمكن بأى حال أن يتراكما، هذا بالإضافة إلى الطبيعة المتميزة الفريدة للموقف الميدانى الذى خضع له كل منهما والذى لاسبيل للتجرد عنه فى كتابة المونوجراف[٢] فالباحث الميدانى - مثل الأديب بوصفه الأداة الوحيدة للسرد الروائى - هو الأداةالوحيدة للعمل الميدانى والسرد الاثنوجرافى، هذا بالإضافة إلى أن حرصه على مخالطة الجو الإنسانى الحى للمجتمع المدروس والاستغراق فيه يسبق فى العادة تحديده للموضوعات التى سيكتب عنها، فالباحث الميدانى يتعلم فى العادة داخل الموقف الميدانى كيفية تحديد الموضوعات التى سوف يرصدها والمنهج الذى سوف يستعين به، والأسئلة التى سوف يطرحها وذلك قبل أن يفكر فى الفرضيات التى سوف يضعها حولها.

فأحد الخصوصيات المهمة فى الانثربولجيا الاجتماعية وهى تعتبر فى الواقع من أكثر الخصوصيات الحميمية فيها ومنها تنبع الخصوصيات الأخرى، هى أن على المتخصصين فيها أن يذهبوا للعيش فى أحد المجتمعات الأجنبية غير الكتابية، وذلك بغاية الحصول على المواد الاثنوجرافية الخام، وهو أمر لن يتحقق سوى باشتراك هؤلاء المتخصصين فى جانب من الخبرات التى يتمتع بها أهالى المجتمع

(1) Leach, E.; Culture and Communication : The Logic by Which Symbols are Connected; Cambridge Unive. Press, Cambridge 1976.

(2) Lévi- Strauss, C.; The Scope of Anthropology"; in Structural Anthropology; Vol II, Penguin Books Ltd. 1977.

وهو عبارة عن الخطاب الافتتاحى لكرس الانثربولوجيا الاجتماعية الذى القاه ليفى ستروس فى الكوليج دو فرانس فى ٦ يناير ١٩٦٠.

الذى اهتموا به. ولن يؤدى هذا الحرص على الاندماج فى خبرات «الموضوع» المدروس والتشبع به إلى الاستقلال أو التجرد المثالى المفترض عادة فى الباحثين العلميين، والمفارقة المحورية هنا هى أن الانثربولوجيا الاجتماعية تحرص على استخدام هذا النوع الحميم من الذاتية المطلقة بوصفه الوسيلة المثلى للقيام بالشرح الموضوعى المقبول فيها لموضوع الدراسة[1].

لقد ارتبطت الأنثربولوجيا الاجتماعية فى كثير من الأذهان بدراسة المجتمعات البدائية غير الكتابية، ويرجع هذا الفهم أساساً إلى نشأة الانثربولوجيا الاجتماعية ذاتها، فقد كان للمجتمعات البدائية الكلمة الأخيرة فى نشأة هذا العلم. وقد حرصت الانثربولوجيا الاجتماعية منذ بداية نشأتها على إجبار المتهنين لها على مغادرة إبراجهم البلورية الاكاديمية للعيش فى أحد المجتمعات البدائية المنعزلة فترة لاتقل عن عام، ولقد أعطى هذا التقليد الصارم للانثربولوجيا الاجتماعية ذاتها شخصيتها المتميزة المستقلة. فعلى غير علماء الاثنولوجيا فى العصر الفيكتورى من أمثال تايلور Taylor وفريزر Frazer، وهارتلاند Hartland الذين كانوا يسعدون كثيرا بأن يدرجوا فى البحث الواحد مجموعة من الأعراف تمتد من الصين وحتى بيرو، وتتباعد تاريخيا الآف السنين. مارس علماء الانثربولوجيا الاجتماعية المحدثون أبحاثهم الميدانية بطريقة متكاملة مع مصادر معلوماتهم الحية. ولقد أدى هذا الاستغراق التام فى هذا الأسلوب المحدد من البحث إلى الاهتمام بابراز الاعتماد التزامنى المتبادل بين النظم الاجتماعية العاملة داخل أحد السياقات الاجتماعية المقيدة بقيود المكان والزمان، والتركيز المتعمد على أسلوب محدد من الملاحظة العينية المباشرة إلى تطور موازى فى الأسلوب الذى أصبحت الانثربولوجيا الاجتماعية تقدم فيه نتائج دراستها أو تقاريرها الميدانية، فهناك ارتباط وثيق بين الباحث الميدانى ومنهجه فى البحث وأسلوب تقديمه للنتائج أو كتابة التقرير وتطوره

(1) Lévi - Strauss, C., "The Scope of Antropology" op.cit.

العقلى فى المستقبل، وهكذا أصبحت المعالجات الانثربولوجية الحديثة للأعراف أو للشواهد الاثنوجرافية معالجات وظيفية بالمعنى السيمفونى للوصف، وتمت رؤية الشواهد الاثنوجرافية بوصفها جزءا من كل، وهكذا أيضا ساد الاعتقاد أن التفاصيل الاثنوجرافية المنفصلة أو المعزولة عن سياقاتها الثقافية هى تفاصيل لامعنى لها مثلها فى ذلك مثل الحروف الكتابية المعزوله عن سياق أية ابجدية لغوية.وأصبحت الأنثربولوجيا الاجتماعية فناً من فنون الوصف الاثنوجرافى الحميم، امتزاج معقد بين الحبكة العرفية الواقعية وبين الحبكة الاثنوجرافية السردية المضادة كما يحدث فى أى عمل أدبى لأى أديب أو قصاص محترف.

وعلى الرغم من أن إجراء البحوث الميدانية ليس هو الطريقة العلمية الوحيدة للبرهنة على حقائق الأشياء إلا أن الأنثربولوجيا الاجتماعية نشأت وتطورات داخل المجتمعات البدائية، فقد شكلت البحوث الميدانية جزءا جوهريا من النسيج العام لهذا العلم. فلم تكن الأفكار النظرية الأساسية التى ظهرت فى الانثربولوجيا الاجتماعية تمثل نظريات علمية بالمعنى الدقيق بحيث يمكن تدريسها للمبتدئين على أنها تمثل الثروه الأساسية أو المسلمات النظرية الأولية للعلم وانما كانت مفهومات منهجية يجب الإنطلاق منه فى الدراسة الميدانية للمجتمعات البدائية ولقد تم التعبير عن تلك المفهومات المنهجية بصياغتين، الصياغة الأولى هى الصياغة الاستقرائية التى قدمها رادكليف براون والصياغة الثانية هى الصياغة الإنسانية التى قدمها مالينوفسكى.

وللصياغة الاستقرائية جذور فى الفكر الانثربولوجى البريطانى ذاته، ففى الصفحة التالية من كتاب: «أبحاث فى التاريخ المبكر للجنس البشرى وتطور الحضارة» (١٨٦٥) كتب عميد الانثربولوجيين البريطانيين السير ادوارد بيرنت تايلور Sir E.B Talyor الفقرة التالية:

«حين يستطيع الباحث استنتاج قانون عام من مجموعة من الحقائق فإن ذلك

يبطل استخدام التاريخ فى الحال، حين يرى الباحث حجر المغناطيس يقوم بجذب قطعة من الحديد فإنه سوف يتوصل من تلك الخبرة إلى القانون العام القائل بأن المغناطيس يجذب الحديد، ولن يتحمل عناء البحث عن تاريخ حجر المغناطيس الذى هو بصدده»[1].

وعلى الرغم من أن رادكليف براون لم يكن واثقا من الشواهد أو الأدلة الاثنوجرافية المماثلة لحجر المغناطيس أو تلك المماثلة لقطعة الحديد، أو ما إذا كان بالامكان رؤية الاحتمالات القانونية القائمة بين هذه الشواهد أو الأدلة الاثنوجرافية، إلا أنه «شايع» النموذج الاستقرائى للبحث الميدانى، فعلى غير مالينوفسكى الذى كان ينظر للبحث الميدانى بوصفه احدى الخبرات الانسانية العميقة التى يخضع لها الباحث الميدانى، ومن ثم اهتم بمشكلات تعلم اللغة البدائية والترجمة الثقافية للشواهد أو الأدلة الاثنوجرافية لم يقدم رادكليف براون أية اسهامات منهجية متميزة، ولم تكن معالجته لنسق القيم الاسترالية البدائية دراسة ميدانية بالمعنى الدقيق، وانما كانت تدريبا ميدانيا لاختبار إحدى النظريات الدوركايمية السوسيولوجية فى الميدان البدائى.

وعلى أى حال لم تكن «مداهنة» راد كليف براون للنموذج البحث الاستقرائى خروجاً عن نموذج البحث «التاريخى» لصالح نموذج البحث «التزامنى» فقط، وانما كان فى الوقت نفسه خروجاً على تقنيات أو اجرائيات البحث السيكولوجى لصالح تقنيات أو اجرائيات البحث السوسيولوجى. فانسجاما مع التعاليم الفرنسية لعلم الاجتماع راهن رادكليف براون على قدره الباحث الانثربولوجى على التمثيل الموضوعى للحقائق الاجتماعية، وعلى ربط السلوك الاجتماعى بمحدداته الاجتماعية[2]، وعلى وضع «العقل» كوسيط بين الدراس الانثربولوجى والواقع الاجتماعى المدروس وذلك بغاية التوصل إلى قوانين الفيزياء الاجتماعية.

---

(1) Lévi - Strauss; "History and Anthropology" op.cit.

(2) Leach , E.; Social Anthropology; op.cit.

أما مالينوفسكى فقد اتجه بصياغته الإنسانية للبحث الميدانى إلى تأسيسه وفقاً لأصول علم التفس، فلم تكن الدراسة العينية للنظم الاجتماعية العامله فى المجتمع البدائى تتم - فى رأيه - فى ضوء التمثيل الموضوعى للدور الذى تقوم به فى المحافظة على استقرار هذا المجتمع، وانما تتم فى ضوء التصوير السياقى للاسهام الذى تقوم به فى اشباع الحاجات السيكولوجية والبيولوجية للأفراد المكونين لهذا المجتمع من حيث هم كذلك. فمن هنا راهن مالينوفسكى على قدرة الباحث الميدانى على التعبير السياقى عن المعانى الاجتماعية، وعلى قدرته على ربط الأفعال الاجتماعية بمعانيها السياقية، وعلى وضع «اللغة» كوسيط بين الذات الانثربولوجية الدراسة والواقع الاجتماعى المدروس. وذلك بغاية تفريغ العوالم التصورية، أو القياسات التمثيلية التى يعيش فيها أعضاء المجتمع المدروس.

على أى حال لقد أثارت هاتان الصياغتان لمنهج البحث الميدانى فى الانثربولوجيا الاجتماعية الكثير من الانتقادات فمن ناحية تشكك النقاد فى قدرة الباحث الميدانى فى تحقيق الفهم الموضوعى للنظم الاجتماعية العاملة فى المجتمع البدائى، وفى قدرته على اقصاء الأساليب الشخصية التى يتعايش بها لتحصيل مادته الخام من المصادر الحية من تحليله الموضوعى أو تفسيره الموضوعى لها. وتشككوا من الناحية الأخرى فى قدرة الباحث الميدانى على الاستغراق فى عالم التصورات أو المعانى الخاص نظر لاختلاف عمليات التفكير الذاتية للباحث الميدانى عن الوسط الاجتماعى الذى تظهر تلك التصورات أو المعانى فيه. ولكن، فمهما كانت الانتقادات التى وجهت للمنهج الميدانى فى الانثربولوجيا الاجتماعية، ومهما كانت المجتمعات الخاضعة للدراسة أو العناوين التى تظهر دراسة هذه المجتمعات تحتها، فاءن المنهج الميدانى «الدارج» فى الانثربولوجيا الاجتماعية يتخلص فى ذهاب الباحث الميدانى للعيش فى أحد المجتمعات التى تعرف باسم مجتمعات الوجه للوجه، فترة لاتقل عن العام، وفى مواجهة الباحث الميدانى لأعضاء هذا المجتمع وجهاً لوجه فى مواطنهم الطبيعية، وهذا معناه أنه يجب على الباحث

الميدانى أن يكون على علاقة ودية حميمة معهم، وأن يكون معروفاً لديهم، وأن يكون بمقدوره اجبارهم على وضعه ضمن البناء الاجتماعى الخاص بهم، وقد قيل أن بعض القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية قد أدرجت الباحثين الميدانيين الذين قاموا بدراستهم ضمن أشجار نسبهم[1]. والباحث الانثربولوجى فى ذلك يشبه متسلق الجبال الذى يقوم دائما بالمغامرات المثيرة حين يسأل: لماذا نقوم بتسلق قمم الجبال. فإنه يجيب فى بساطة وصدق، لأنها موجوده أمامى. وهكذا الأمر حين يسأل أحد الباحثين الأنثربولوجيين: لماذا تترك موطنك لفترة طويلة من الزمن وتعرض نفسك للجوع والأمراض وأحيانا للخطر لتقوم بالبحث الميدانى؟، فاءنه يجيب حتما لأن القيام بذلك يثير اهتمامى. وعلى كل حال فوراء الطقوس التى يقوم بها الباحث الميدانى مجموعة من المقومات أو المواصفات، وهى المقومات أو المواصفات التى تضفى على البحوث الميدانية فى الأنثربولوجيا الاجتماعية صلاحيتها أو شرعيتها، وسوف نتعرف فيما يلى بشكل مختصر عليها.

أولاً: مقومات البحث الميدانى:

حين تذكر عبارة «بحث ميدانى» فى الأنثربولوجيا الاجتماعية فاءنه يقصد بها مايعنيه مالينوفسكى B.Malinowski منها، وذلك باستثناء الأدوات التكنولوجية المرئية التى أدخلت فيما بعد على البحث الميدانى مثل كاميرات التصوير الفورى، أو أجهزة التسجيل أو شرائط الفيديو... الخ، التى وسعت من نطاق الامكانات الفنية المتاحة للباحث الميدانى. فقد شكلت الأفكار التى قدمها مالينوفسكى فى هذا المجال نقطة الانطلاق الأساسية فى كل الممارسات الميدانية المهمة داخل الانثربولوجيا الاجتماعية. وفى الواقع لقد كان مالينوفسكى هو المتحدث الرسمى بالنسبة لكل الأجيال المعاصره والتالية له حول هذا الموضوع. ففى الجزء الثانى من المقدمة التى كتبها لكتابة الأسطورى: الأرجونوتس فى المحيط الباسفيكى

(1) Lowie, R. H.; "Native Language as Ethnographic Tools; American Anthropologist, Vol. 42, 1940.

Argonauts in The Western Pacific (١٩٢٢) وهو على أى حـال المجلد التمهيدى فى سلسلة المجلدات التى كتبها مالينوفسكى حول سكان جزر التروبرياند Trobriand Islanders حرص مالينوفسكى على اعلام القارىء بكل المواصفات الفعلية التى توصل فى سياقها للنتائج المقدمة فى الكتاب، وذلك لاطلاع القارىء على خبرات الكاتب الشخصية بالحقائق التى يصفها وهو تقليد لم يسبقه إليه أحد من الكتاب السابقين أو المعاصرين، لقد كان مالينوفسكى يدرك فى الحقيقة عمق الهوة التى تفصل بين المادة الاثنوجرافية كما تتمثل فى حالتها الوطنية فى ملاحظات الدراس الشخصية، وبين التمثيل السردى النهائى لها كما تتمثل للقارىء. ولذلك أقر بأن على الباحث الاثنوجرافى أن يجتاز بشىء من الصبر والتبصر تلك المسافة الهائلة الواقعة بين اللحظة التى يضع فيها أقدامه للمرة الأولى فوق الساحل الوطنى، ويقوم بمحاولات العشوائية الأولى للاتصال بالسكان الوطنيين، وبين اللحظة التى يفرغ فيها نهائيا من كتابة رؤيته الأخيرة لنتائج الدراسة.

بالنسبة للأجيال التالية من الانثربولوجيين البريطانيين فاءن تعليقات مالينوفسكى حول مقومات ومواصفات البحث الميدانى قد اندمجت فى تراثه الانثربولوجى النظرى المعقد إلى حد بعيد، وقد استمر هؤلاء الباحثون يقيمون باستمرار الاسهامات التى قدمها مالينوفسكى للانثربولوجيا الاجتماعية النظرية والميدانية على حد سواء. ولم تكن هذه التقييمات فى الواقع تقييمات تمجيدية له، وإنما كانت نقدا لازعاً وتهكما مستمرا لنقائص أو عيوب تفكيره النظرى والاثنوجرافى فى محاوله مستمره للنيل من الاعتراف العريض والاعتزاز العميق الذى صادفه صوت مالينوفسكى بشخصيته المتوهجه وأسلوب تدريسه الفاتن أثناء حياته، ولكن فعلى الرغم من كل مشاعر الغيره والعداوة التى حملها له زملاء المهنة البريطانيون فإنها لم تنجح فى النيل من هذا التوهج المبهر الذى اثاره فى الانثرلوجيا الاجتماعية، أو من هذا النجاح الجماهيرى العريض الذى صادفه أثناء

حياته، فقد كان مالينوفسكى فى الواقع أحد المثقفين الموهوبين القلائل الذين تحملوا العبء الأكبر فى بلورة الانثربولوجيا الاجتماعية كنشاط اكاديمى منظم، ولقد ظلت كتاباته الاثنوجرافية تتمتع بين الأوساط الاكاديمية البريطانية وغير البريطانية بسمعه أشبه ماتكون بسمعة الكتابات الاغريقية الكلاسيكية، وقد ظلت تعليقاته الميدانية تتمتع بين الاجيال المتتالية من الباحثيين الميدانيين بالخصوبه والفعالية والاقناع، وترشدهم بشكل شخصى لافت للنظر للكيفية التى يمكن بها التغلغل فى حياة أعضاء المجتمع الخاضع للدراسة، وتشرح لهم كيف يمكن أن يكون للمظاهر السلوكية التى قد تبدو غريبة عليهم وظائف برجماتية خاصة، وتؤكد لهم على ضرورة فهم تلك المظاهر السلوكية بمصطلحاتها الخاصة. وتحذرهم من مغبة الوقوع فى الاستنتاجات المستعرقة المتسرعة.

وبعيدا عن القيمة التدريسية للمقومات أو للمواصفات التى قدمها مالينوفسكى للبحث الميدانى (الترتيبات المنهجية لجمع المادة الاثنوجرافية الخام، أو طرق إداره الملاحظات أو المدد الزمنية التى انفقت فيها، صعوبات الترجمة الثقافية. أسلوب كتابة النص الاثنوجرافى... وهكذا). هل يمكن لنا أن نتعلم شيئاً «اليوم» من المناخ التاريخى والموقف الميدانى الذى قدم فيه مالينوفسكى تلك المواصفات؟.

فى الواقع يسترجع لنا مالينوفسكى سنوات الاضطراب التى عاشتها الانثربولوجيا الاجتماعية خلال العقود الأولى من هذا القرن، والكفاح الذى خاضته لتدحيض الادعاءات المطلقة التى وضعت الثقافات البدائية على مستوى ثقافى متدنى لأحدى مراحل التطور الثقافى، فتلك هى المعركة الرئيسية التى خاضعها مالينوفسكى بكتاب الأرجونوتس وانتصر فيه، ففى هذا الكتاب تصدى مالينوفسكى للمزاعم المطلقة التى اطلقها المنظرون الاقتصاديون والتى وصفت اقتصاديات البدائيين بأنه اقتصاديات عشوائية خادمة لذاتها، وأنهم لايشعرون بالمسئولية فى مساعيهم الاقتصادية. وللتصدى لهذه المزاعم درس مالينوفسكى

مشروعات العمل بين احدى المجتمعات البدائية (مثل مشروعات العمل الزراعى، المعاملات التبادلية) وقد اظهرها فى النهاية على أنها مشروعات منهجية وعقلانية ومنظمة إلى حد بعيد ولقد اعتبر كتاب الارجونوتس بمثابة ضربة قاضية لكل الأفكار المعاصرة حول مراحل التطور البدائى قبل الاقتصادى. ومن ثم أصبحت المادة التى قدمها مالينوفسكى حول مشروعات العمل البدائى أساسى كل المواقف النظرية والمنهجية المهمة داخل الانثربولوجيا الاجتماعية. ولأن نسترجع فى لغتنا العربية ماتضمنه هذا الكتاب «اليوم» لهو أن نتذكر أن الانثربولوجيا الاجتماعية كما قدمها مالينوفسكى تعد وبشكل أصيل سياسة، وذلك لأنها تمثل فرع المعرفة الذى يجعل الناس تتعرف على ماهو أكثر مما تعتقد انها تعرفه بالفعل حول الطبيعة الإنسانية ومدى تعقيدها، ومثل هذا الفهم يمكن أن يغير من طريقة فهمنا أو ادراكنا للعوالم التصورية للثقافات الأخرى، وبإمكان هذا الفهم أيضا أن يكون له نتائج سياسة مهمة للطريقة التى يجب أن تتعامل بها الأمم والأفراد فيما بينهم، فلم يتخل مالينوفسكى يوما على هذا الفهم بوصفه الأساس الذى يجب أن تكون عليه الانثربولوجيا الاجتماعية بوصفها دراسة علمية وعلى أى حال فاءن اعادة تقديم صوت مالينوفسكى بوصفه المتحدث الرسمى عن مقومات العمل الميدانى فى الأنثربولوجيا الاجتماعية قد يساعد فى أن تدب روح الثقة من جديد فيما يعد حيويا فى هذا العلم.

١- تعلم اللغة الوطنية:

كان معرفة الباحث الميانى للغة المحلية للمجتمع الأجنبى الذى يقوم بدراسته هو الشرط الضرورى للبحث الميدانى الجيد، ولقد عبر جون باتى Beattie عن هذا الوضع فى عبارة مختصره مهمة يقول فيها:

«يتحدث الباحث السوسيولوجى فى العادة اللغة (الأوربية) ذاتها التى يتحدثها أعضاء المجتمع (الأوربى) الذى يدرسهم، ويشترك معهم على الأقل فى بعض

المفاهيم والمقولات الفكرية الأساسية، ولكن المهمة الصعبة للباحث الانثربولوجى تنحصر فى فهم أساليب التفكير الخاصة بأعضاء المجتمع (الأجنبى) الذى يقوم بدراسته. وهذا هو السبب الرئيسى فى أن معرفة اللغة المحلية الخاصة بالمجتمع الأجنبى المدروس يُعد أمراضروريا وحتميا فى البحث الأنثربولوجى الميدانى، وذلك لأن مقولات تفكير أى شعب وأشكال لغته الخاصة به يرتبطان معا بطريقة من المستحيل الفصل بينهما»[1].

ومن بين المجموعة الرئيسية الأولى من الباحثين الأنثربولوجيين كان هناك عدد من الأسماء الجديرة بالاحترام ممن استخدم أصحابها اللغة المحلية فى احتكاكهم اليومى مع أعضاء المجتمعات «الأجنبية» التى قاموا بدراستها، منهم سيدنى راى S.Rayالمدرس الابتدائى المثقف الذى كان على معرفة جيدة بلغات القبائل المالينيزية، والذى كان أحد أعضاء بعثه جامعة كمبردج إلى مضايق توريس بين عامى ١٨٩٨، ١٨٩٩، والأستاذ هات G.Hatt الذى تعلم لغة قبيله «لاب Lapp» قبيل عام ١٩١٢، أما فى الولايات المتحدة فقد تعلم كوشينج F.H.Cushing لغة قبيلة الزونى Zone فى عام ١٨٨٩، وتعلم ستيفن M.Stephen لغة قبائل النافاهو Navaho والهوبى Hopi قبيل وفاته فى عام ١٨٩٤[2].

وهكذا فمع تقديرنا العميق للأستاذ مالينوفسكى فليس بالامكان وصفه بأنه المبتكر الأول لهذا التقليد، أو أنه أول من حرص على تعلم اللغة المحلية «الأجنبية» واستخدامها كأداه رئيسية للبحث الميدانى، ومع ذلك فإنه كان من أوائل العلماء البريطانيين وغير البريطانيين الذين قاموا بتنفيذ خطة الإقامة الميدانية المكثفة، ففى عام ١٩١٣ أصبح سليجمان أستاذ كرس الاثنولوجيا بجامعة لندن وبمساعدته حصل مالينوفسكى على منحتين للقيام بدراسة ميدانية فى منطقة غينيا الجديدة،

(1) Beattie, J.; Other Cultures; London: Conhen & West, 1964, p.31.
(2) Lowie, R.H.; Native Language as Ethnographic Tools, op.cit.

وقد قام مالينوفسكى بثلاث بعثات ميدانية إلى هذه المنطقة، وخلالها عاش بين الوطنيين دون انقطاع، ملاحظا لهم أثناء عملهم ولهوهم، ومتحدثا معهم فى لسانهم الوطنى، ومستخلصا مادته الخام من المصادر الوثقى، مثل الملاحظات الشخصية والإيضاحات الفورية التى يقدمها له الوطنيون مباشرة دون أى تدخل من المترجمين.[1]

يجب أن نسلم بأن الميزة الاستثنائية فى أسلوب البحث الميدانى عند مالينوفسكى- كما سبق أن ذكرنا- تكمن قبل كل شىء فى ضآلة استخدامه للإخباريين المحترفين، فلم يكن استخدامه لهم سوى لتعزيز المعرفة التى سبق له معرفتها بالفعل. فقد كانت الملاحظة الشخصية المباشرة التى يقوم بها الباحث الميدانى تمثل بالنسبة إليه خط البداية فى إقامة البرهان الاثنوجرافى[2] . وتبرير ذلك يكمن فى شكه العميق فى كل أنماط المعلومات التى لاتقوم على المشاهدة المباشرة، فلم تكن جدارة مالينوفسكى تكمن فى الحقيقة فى نوعية التأويل النظرى بقدر ماكانت تكمن فى نوعية الملاحظة، وقد كانت أقوى عناصر مؤهلاته العقليه يتمثل فى تلك النزعه الامبريقيه التى سيطرت عليه.

فى بعثته الميدانية الأولى التى امتدت سبعة شهور (من سبتمبر ١٩١٤ إلى مارس ١٩١٥) قضاها بكاملها فوق جزيرة طولون استخدم مالينوفسكى شكلاً من الرطانه الانجليزيه فى اتصاله مع سكان الجزيرة. وقد استهل بعثته الميدانية (التى امتدت من يونيو ١٩١٥ وحتى مايو ١٩١٦) فوق جزيرة كيرونيا Kiriwina باحصاء السكان وبكتابة الأنساب مستعينا فى ذلك بالرطانة الانجليزية أيضا ولكن تلك المادة بقيت مادة ميتة، وذلك لعجزه عن القيام بالتأويل المقبول للمصطلحات

---

(1) Frazer, Sir J.; "Preface" to Argonauts of The Western Pacific; op.cit.

(2) Leach, E.; "The Epistemological.." op.cit.

الوطنية[1]، ولأنه كان شغوفا بتعلم اللغات الجديدة فقد عكف على تعلم الكيرونية والإنخراط فى الحياة القبلية، وبمرور الزمن استطاع تتبع بعض المحادثات التى يقوم بها الوطنيون، وشيئا فشيئا اكتسب معرفة عميقة باللغة ولكنه لم يبدأ فى تدوين ملاحظاته فى اللغة المحلية إلا مع بداية زيارته الثانية لكيرونيا (التى أمتدت من أكتوبر ١٩١٧ حتى أكتوبر ١٩١٨) ومنذ ذلك الحين لم يقبل اجراء الانثربولوجيين الاجتماعيين لبحوثهم الميدانية إلا فى اللغة الوطنية[2].

بين البعثتين الثانية والثالثة فوق جزيرة كيرونيا عاد مالينوفسكى إلى مالبورن لمراجعة المادة الاثنوجرافية الخام وتنظيمها مؤكدا قيمة الفترة الفاصلة بين نوبات العمل الميدانى، ولقد عكف مالينوفسكى خلال هذه الفترة الفاصلة على فرز مادته الاثنوجرافية وتصنيفها[3]، وقد انتهى خلالها من كتابة بحثا بعنوان: البالوما: أرواح الميت فى جرز التربرياند Baloma: Spirits of The Dead in Trobriand Islands نشره فى عام ١٩١٦، وأهم مايهمنا من هذا البحث هو مناقشة مالينوفسكى لمشكلة البحث الميدانى، وكيفية تنظيم الباحث الميدانى للمادة الثقافية، الهيولية، مثل انقسام آراء الوطنيين واختلاف معارفهم وتباين أنماطهم الوجدانية، حيث لم يكن هناك فى رأيه وطنيين (بالجمع) لديهم أفكارهم أو معتقداتهم الجمعية العامة كما نصت التعاليم السوسيولوجية الفرنسية، وانما كان هناك وطنيين (بالمفرد)، لكل منهم معتقداته وأفكاره ودوافعه الوجدانية الخاصة[4]. ولقد انتهى فى هذا البحث إلى الباحث الميدانى مجبر على إستخدام حدوسه Intuations الخاصة فى ترتيب هذه المعتقدات والأفكار والدوافع الوجدانية التى

---

(1) Malinowski, B.K.; Argonaunts of The Western Pacific; op.cit.

(٢) أنظر على الخصوص: الفصل التمهيدى من كتاب الأرجونوتس.

(٣) يمكن الرجوع إلى الفصل التمهيدى من كتاب الأرجونوتس.

(4) Richards, A.I., "The Concept of Culture in Malinowski's Work" in R. Firth (ed.) Man & Culture; Routledge & Kegan Paul, London 1968 (pp. 15 - 31).

السلوك الاجتماعى الوطنى وتنظيمها بطريقته الشخصية. فقد ظهر واضحا فى هذا البحث أن مالينوفسكى قد عثر على أسلوبه الحميم فى العمل الميدانى.

كان تعلم الباحث الميدانى للغة الأهالى الذين يجرى دراسته بينهم واستخدامها فى البحث الميدانى يمثل فى رأيه الاختلاف الجوهرى بين نمط الأبحاث الميدانية التى قام بها الاثنوجرافيون العظماء من أمثال هادون وريفرز وسليجمان، ونمط البحث الميدانى الذى قام به ولذلك لم يدخر جهدا فى الفصل التمهيدى الذى خصصه فى الأرجونوتس، للحديث عن الموضوع والمنهج ومنظور البحث فى شرح كيفية استهلاله للعمل الميدانى، وأهمية تعلم الباحث للغة الوطنية، والفرق بين الغوص المتقطع فى حياة الوطنيين وكون الباحث الميدانى فى اتصال وثيق معهم، وكيف تنامت قدرته على استدعاء الروح الحقيقية للأهالى شيئا فشيئا بقدر ماتزايدت معرفته باللغة الوطنية[1].

لقد جعل مالينوفسكى من تعلم الباحث الميدانى اللغة الوطنية أحد المعتقدات الأساسية فى الأنثربولوجيا الاجتماعية، وقد اعتقد أن مهمة الباحث الميدانى تنحصر فى البحث عن قوالب الاتجاهات العقلية الوطنية، ولأن هذه القوالب قد تكيفت مع النظم الاجتماعية أو الاعراف والمعتقدات الوطنية من ناحية، ومع الأداة الحميمة الناقلة للفكر الوطنى - أى مع اللغة - من الناحية الأخرى، فقد أخذ على عاتقه الاستعانة باللغة المحلية فى شرح العقلية الوطنية، ولم يدخر جهدا فى جميع النصوص الوطنية، فقد كان يعتقد أن الامكانات الهائلة للنصوص الوطنية فى شرح العقلية البدائية لاتقل عن الامكانات العلمية للمصادر الفيلولوجية التى حفظت لنا من الثقافات القديمة[2].

---

(١) أنظر الفصل التمهيدى من كتاب الأرجونوتس.

(٢) يعترف مالينوفسكى بأن الذى شجعه على جمع النصوص الوطنية هو عالم المصريات المشهور الآن جاردنر A.Gardener وقد قام مالينوفسكى بطبع تلك النصوص فى كتاب حدائق الرجان والسحر (١٩٣٥).

ولكنه اكتشف حين عكف على ترجمة بعض النصوص السحرية الخاصة بالصيد - كما أخبرنا - أن لغة هذه النصوص تثير جدلا كبيرا فيما يتعلق بالعلاقة بين اللغة والفكر[1]، فلم يكن بإمكانه تفسير لغة السحر فى ضوء وجهه النظر التقليدية التى تذهب إلى أن اللغة هى المحاكاة المشاهدة للفكر، حيث لم يكن السحره التروبرياندبون يمارسون السحر ويتلون التعاويز السحرية بغرض إيصال الأفكار أو التعبير عنها وانما كانوا يمارسونه بقصد ممارسة قواهم الذاتية على الأشياء، علاوة على ذلك فلم تكن الكلمات التى تتألف منها التعاويز السحرية هى الكلمات نفسها التى يستخدمها السحرة التروبرياندبون فى أحاديثهم اليومية المألوفة مع الأهالى، ولذلك فلم يكن بمقدورالتروبرياندبين أنفسهم فهم معانى النصوص السحرية إلا فى ضوء الوظيفة التى تؤديها فى حياتهم الاجتماعية.

لقد دفعته العقبات التى صادفها حين عكف على ترجمة النصوص السحرية للتفكير فى مشكلة المعنى فى اللغة البدائية، وقد كان من المستحيل فى رأيه فهم معنى التعويزة السحرية بترجمتها إلى اللغة الانجليزية، حيث كان معناها الوظيفى بين التروبرياندين يختلف تماما عن معانى المرادفات الانجليزية المترجمة لها. ولذلك لم يكن أمامه مفر من التسليم بأسبقية الكلام المقترن بالفعل على الفكر. ولقد ابتكر مالينوفسكى فكرة «التبعية للسياق»، لكى يثبت أن اللغة فى استخداماتها الوطنية تعد حلقة من حلقات النشاط الانسانى ونموذجا من نماذج الفعل الممارس[2]. لقد كان أهم مبادىء التعاليم الاثنوجرافية ينص عنده على استحالة فهم الحقائق الملاحظة إلا فى سياقاتها الثقافية، وعلى الرغم من تأكيده المستمر على أهمية القرائن السياقية أو الوظيفية لفهم الحقائق الملاحظة فقد خلا كتاب

(1) Malinowski; B, "The Problem of Meaning in Primitive Languages" Supplement to I.A. Richards & C.K. Ogden: The Meaning of Meaning; London, 1923.

(2) Malinowski; "The Problem of Meaning.." op.cit.

«الأرجونوتس»، من الاشارة إلى نظريته المبتكرة سياق الحال Context of Situation.

٢- نظرية سياق الحال:

كانت نظرية سياق الحال تمثل فى الواقع أحد الاكتشافات المبتكرة فى منهج البحث الميدانى، وعلى الرغم من ذلك لم يدر بخلد مالينوفسكى قط أنه يقدم أحد الاسهامات الرئيسية المبهرة للأنثربولوجيا الاجتماعية، فقد كانت الأفكار التى قدمها مالينوفسكى لتفسير معانى الكلام Paroles بوصفها نموذجا من الأفعال الممارسة، وتسليمه بأسبقية الكلام المقترن بالأفعال على اللغة Langue، والضوابط التى وضعها للترجمة وللمعانى التى يفهمها الوطنيون للكلام Paroles بفعل السياق تمثل فى الحقيقة أفكار خلاقة فى الانثربولوجيا الاجتماعية.

ظهرت هذه الأفكار فى مقال له نشر بعد عام واحد من ظهور «الأرجونوتس» بعنوان: «مشكلة المعنى فى اللغات البدائية»، فى هذا المقال يجهر مالينوفسكى للمرة الأولى بأهمية علم اللغة للأنثربولوجيا الاجتماعية، ويعترف بأن اهتمامه بمشكلة «المعنى» قد نتج عن الصعوبات التى واجهها حين عكف على ترجمة التعبيرات الوطنية إلى الانجليزية، ويصرح بأن اتباع الأسلوب التبشيرى فى الترجمة الحرفية، والاكتفاء بتقديم المرادفات الانجليزية «المتخلية» للتعبيرات الوطنية يحبط أية محاولة لترجمتها، فعلى الرغم من بساطة التعبيرات الوطنية فقد كانت تخفى بين طياتها الكثير من السمات التعبيرية الخاصة التى تعتمد على السياق الثقافى مثل الاستعاره Metaphor وتضايفها مع مصادر التجسيد أو التمثيل الثقافى الوطنى وما إلى ذلك[1].

كان مالينوفسكي على وعى عميق بمشكلة الترجمة الثقافية للغات، بقدر دفعه فيما بعد إلى جعلها المشكلة الرئيسية فى الأنثربولوجيا الاجتماعية التى فرض

(1) Malinowski; "The Problem of Maening.." op.cit.

البحث الميدانى فيها على الباحثين القيام بالترجمة، وقد كان يدرك - بحكم تجاربه اللغوية - الفارق بين الترجمة النصيه التى يمكن أن تتم بين نصوص اللغات الكتابية، والترجمة السماعية التى يجب أن تتم بين إحدى اللغات الشفاهية التى لم يستخدمها المتحدثون بها فى شكل مكتوب قط وبين إحدى اللغات الكتابية التى يتقنها الباحثون الميدانيون الأوربيون. ولم يكن موضوع الترجمة يتعلق فى رأيه بالبحث عن المفردات الانجليزية المحتملة أو المتخيلة لمفردات اللغة الوطنية، وانما كان ينحصر بالتحديد فى التقرير الدقيق لما إذا كانت المعانى المترجمة للتعبيرات الوطنية تتوافق بالفعل مع أفكار القارىء الأوربى أم أنها تعبر عن تصورات غريبة تماما عليه(١).

لذلك قرر مالينوفسكى أن مهمة المترجم الاثنوجرافى تنحصر فى العمل على تفريغ هذا الفارق المرهف للموقف الذهنى الذى تقوم التعبيرات الوطنية بالتعبير عنه داخل النص الاثنوجرافى، وأن نجاح المترجم الاثنوجرافى فى التوصل إلى مختلف العناصر الدقيقة لظلال المعانى وتفاصيلها انما يتوقف بالأساس على نجاحه فى مثابرته فى تعلم اللغة الوطنية والانغماس كلية فى عالم الوطنيين واكتسابه لوجهة نظرهم الخاصة فى العالم، فعلى هذا الأساس قدم لنا مالينوفسكى تصوره النقدى لسياق الحال.

لم يكن تصور الكلام Paroles الوطنى - فى ضوء وجهة النظر التقليدية للعلاقة بين اللغة والفكر - والنظر لمعناه بوصفه كينونة عقلانية قد ضمنت فى الكلمات يمثل فى رأى مالينوفسكى أحد التصورات المثمرة التى يمكن فى ضوئها بحث العقلية البدائية(٢) ذلك أن الرجل الوطنى لم يكن يتعلم معنى الكلمة عن طريق التأمل فى الأشياء أو تحليل أسباب حدوثها وأنما كان يتعلمها بعد أن يتعلم

(1) Malinowski; "The Problem of Meaning.." op.cit.
(2) Malinowski; "The Problem of Meaning.." op.cit.

كيفية الإمساك بها واستعمالها، علاوة على ذلك فلم تكن الإفادة اللفظية إفادة لفظية دالة بالنسبة له إلا بعد أن يكون له خبرة عملية بها فى متناول يده، وهكذا الفعل Verb ، فلم يكن الفعل التروبرياندى يكتسب معناه إلا بالمشاركة الفعلية فى طريقه الأداء التى تشير إليه، والأهم من ذلك لم يكن الرجل الوطنى يستخدم الافادات اللفظية إلا حين يكون بمقدورها إنتاج الأفعال دون وصفها، حيث لم يكن يستخدم الكلمات بغاية التعليق على الأشياء وانما كان يستخدمها بغاية اظهارها وتسليمها إلى المستمع أو لإرشاده إلى طرائق استعمالها أثناء الفعل. لقد كانت الغالبية العظيم من الافادات اللفظية فى اللسان الوطنى قد اتسعت لمعناها هكذا، ولم يكن هناك امكانية لتعريفها خارج نطاق المثيرات الموقفية الفورية التى نطقت فيها. ولكى يوضح مالينوفسكى مايعنيه قدم لنا مثالا لمجموعة من الوطنيين المنهمكين فى مهمة عمل يقول فيه: «بدون إحداث أى ضجيج تتقدم القوارب Canoes ببطء شديد فى إحدى البحيرات المرجانية الضحلة، يسيرها بالمجاديف رجال خبراء يقومون دائما بهذه المهمة، معهم خبراء آخرون على معرفة وثيقة بقاع البحيرة المرجانية وحياتها والنباتية وهم منتبهون تماما لتجمعات الأسماك ومترقبين لها. فيصادف أحدهم الفريسة، عندئذ يتوقف الأسطول وينظم ذاته حيث تؤدى القوارب كلها وكل الرجال فوقها عملهم المحدد وفقا للروتين المعتاد المتعارف عليه وينطق الرجال أثناء ادائهم لأعمالهم أصواتا قد تعبر عن الفطنة Keenness فى المهنة، أو عن صبرهم على العقبات الفنية التى تصادفهم، أو عن بهجة الانتصار أو عن خيبة الاخفاق، وقد ينطق أحدهم أحد التعبيرات الفنية التى تشير للأعماق أو عن خدعة الايقاع بالأسماك وتنطلق كلمات قائد الأسطول مدويه، تعبيرات فنية لامهمة لها إلا التوفيق بين سلوكه وسلوك الرجال. يطرح البعض من فوق القوارب الشباك فى الماء على نطاق واسع، ويغطس البعض فى مياه البحيرة الضحلة، ليقودوا الأسماك نحو الشباك المنصوبة وينتظر البعض الآخر وهم ممسكون بشباكهم الصغيرة على أتم الاستعداد للحاق بالأسماك الهاربة» مشهد

حيوى ملىء بالحركة المتدفقة، بعد ذلك يبدأ الصيادون فى الحديث لينفسوا عن أحـــاسيـــسهم ويتبادلون التعبيرات التى ألفوها خلال خبرة العمل الطويلة وهى تعبيرات لايمكن ترجمتها دون تقديم وصف دقيق للأدوات الفنية المستخدمة وبدون تقديم وصف دقيق أيضا لنماذج الفعل الممارسه[١] .

كانت التعبيرات الوطنية المستخدمة فى حرفة الصيد بين التروبرياندين كما صورها مالينوفسكى ترتبط بهدف الحرفه ذاتها، مثل تحركات الفريسة، أو مواجهة الصيادين للبيئات المتغيرة، أو بحماسهم العنيد، أو بكلمات قائد الأسطول، فقد أمتزجت التعبيرات الوطنية المتبادله بالنشاط العملى الممارس واعتمدت عليه. ولم يكن المشاركون فى هذه الحرفه قد اكتسبوا معانى التعبيرات المستخدمة عن طريق التفكر أو التأمل فيها، وانما عن طريق المشاركة الشخصية فى العمل أو ممارسة الحرفة ذاتها. فقد اعتمد معنى كل تعبير فى كل الحرفه على احدى الخبرات العملية، وعلى الموقف الخاطف الذى ينطق فيه، وهكذا أصر مالينوفسكى على أن التروبرياندين لايستخدمون لغتهم بوصفها مرآه للتفكير أو بوصفها أداة من أدوات الفكر، وانما يستخدمونها بوصفها حلقة من حلقات النشاط العملى الممارس، وبوصفها نموذجا من نماذج الفعل، وعلى هذا الأساس عادل بين معنى التعبيرات الوطنية والوظائف التقنية التى تقوم بها، ولم يمنح للمعنى أى وضع انطولوجى مستقل عن الوظيفة العملية التى قوم بها.

قد يكون لفكرة التبعية للسياق والنظر للغة بوصفها نموذجا من نماذج النشاط الممارس، ولأسبقيه الكلام المقترن بالفعل على الفكر بعض الميزات عند تطبيقها فى تحليل التعبيرات التقنية التى يستخدمها الرجال وفقا للتقاليد العملية التى ألفوها خلال خبرة الحياة، ومع ذلك فهى تثير التساؤل عند تطبيقها على الأنماط الأخرى غير العملية التى تستخدمها فيها اللغة، وبالفعل كيف يمكن

(1) Malinowski; "The Problem of Meaning.." op.cit.

النظر للغة الأدب على سبيل المثال بوصفه نموذجا من نماذج النشاط الممارس، وأن تقرر أسبقية الكلام المقترن بالفعل فيها على الخيال أو الفكر؟.

وعلى الرغم من شرعية طرحنا نحن لمثل هذا السؤال فقد أقر مالينوفسكى الاستنتاجات التى خرج بها من دراسة «الكلام فى الفعل» فى تحليل الحكاية Narrative أو القصص تحليل الثرثرة الكلامية الحرة[1]، حين لايكون للكلام المنطوق أى هدف مرتبط بأداء الأعمال، وانما ينحصر هدفه فى سرد بعض الأحداث بأثر رجعى، أو فى تبادل بعض الكلمات بوصفها هدفا بذاتها. حين يجلس الوطنيون أمام مواقد النيران عقب انتهاء اعمالهم اليومية يتسامرون معا أو حين يتجاذبون أطراف الحديث أثناء فترات الراحة من العمل، أو حين ينهمكون فى الثرثرة أو فى «القيل والقال» أثناء أدائهم لأعمالهم اليدوية، من الواضح أن مثل هذه الانماط من الكلام لاعلاقة لها بما يحدث فى اللحظة من أفعال بحيث لايمكن الربط بين معانى الكلام ومايقوم به المتحدثون من أفعال، إذن كيف عد مالينوفسكى مثل هذا النمط من استخدام الكلام نموذجا من نماذج الفعل؟.

حين حلل مالينوفسكى، الحكاية، بوصفها نموذجا من نماذج الفعل حللها كما لو كانت قد ارتبطت بنموذجين من الفعل النموذج الأول هو نموذج السرد المباشر لها، والنموذج الثانى هو نموذج الحادث الأصلى المروى أو المحال عليه. فى ضوء هذين النموذجين كان السرد المباشر يكتسب معناه بوصفه نموذجا من الفعل بفعل العلاقة البرجماتية بين الكلمات والحادث الأصلى الذى ترويه الحكاية، حيث تعتمد معانى الكلمات المرويه على القرينه السياقية الأصليه نتيجة الخبره السابقة للمستمعين بها. إن لم يكن بالدرجة نفسها التى استخدمت بها أثناء الفعل، فإنه يكون بالكيفية ذاتها، حيث تشتق معانى الكلمات المروية من سياقاتها الأصلية وبوظيفتها العملية الأصلية التى كانت تؤديها أثناء الفعل أو التى ارتبطت بهاأثناء الفعل، وقد كان ذلك يتم فى رأى مالينوفسكى بفعل الأسلوب

(1) Malinowski; "The Problem of Meaning.." op.cit.

غير المباشر للسرد، حيث لم يكن بالامكان فى رأيه فهم الأسلوب الذى تكتسب به الكلمات المرويه معناها أثناء السرد سوى من خلال الوظيفة الأصلية التى كانت تأديها أثناء الفعل، فى السرد القصصى - ولنلاحظ دقة تعبير مالينوفسكى - يتم إلحاق الوظيفة الإسنادية العملية للكلمات بوظيفتها العاطفية والاجتماعية التى تؤديها اثناء السرد.

أما الثرثرة الحرة، حين تتلاحق التعبيرات والكلمات لاهدف لها سوى التعبير عن تفضيل الأشياء أو الاستفسار عن الصحة أو التعليق المتكرر عن أحوال الطقس، والأوضاع الظاهرة الواضحة من الأشياء، من الواضح أن هذه الثرثرة لاتهدف لتحقيق التواصل بين الأشخاص المنصرفين لأداء احد الأعمال، أو للإخبار عن طرائق أدائها لقد أطلق مالينوفسكى على هذا النمط من الكلام مصطلح Phatic Communion ومعناه المشاركة الكلامية[1]. وأقر بأنه يعد أيضا نموذجا من نماذج الفعل، كيف؟ يقول مالينوفسكى: مع أن الموقف الخارجى لايتدخل مباشرة فى صياغة معنى التعبيرات المتبادلة، فإنه يتخلق بفعل جو الائتلاف وحب الاختلاط بالاخرين الذى يخلقه المباشرة الشخصية للكلام، أنه يتشكل بفعل التعبيرات المتبادلة بين الأشخاص وحسب، انه يتخلق من مجرد الثرثرة وتبادل الكلمات، ومن الأهداف التى تحققها الممارسة الآنية للثرثرة، ومن الأحاسيس البهيجة التى يولدها التجمع الاجتماعى ذاته، ومن قدرة الثرثرة ذاتها على ربط المتلقى بالمتحدث بروابط عاطفية واجتماعية، ولذلك لم تكن الثرثرة الحره تمثل فى رأى مالينوفسكى أداة من أدوات التأمل العقلى حيث لم يكن عند الرجل البدائى - فى رأيه - وقت للتأمل الفلسفى، وانما كانت تعد نموذجا من نماذج الفعل.

ولكى يثبت مالينوفسكى شرعية وجهة النظر البرجمانية فى تحليل أنماط

(1) Malinowski; "The Problem of Meaning.." op.cit.

الكلام الشائعة بين التروبرياندبين شرع فى تحليل الأطوار المبكرة من اكتساب المعنى عند الأطفال[1]، فقد كان من الصواب فى رأيه - نتيجة لتأثره بعلم النفس الفردى (العلم الذى يؤكد باستمرار أهمية العادات الوجدانية المبكرة فى بلورة وجهات نظر الراشدين) تحليل الكلام Paroles فى ضوء الاعتبارات الارتقائية أو النشوئية، والأخذ بعين الاعتبار مختلف الاستخدامات المتقدمه زمنيا للكلمات على اعتبار أن الغالبية العظمى من كلماتنا الأوربية المتحضرة قد اتسعت لمعناها هكذا، وقد كانت الخبرة الطفولية بالكلمات تترك فى عقل الانسان الانطباع القوى بأن للكلمة قوة مطلقه على الشيء الذى تشير إليه أو الموضوع الذى تجسده. فعلى هذا الأساس قام مالينوفسكى بشرح كيفية اكتساب الأصوات الغريزية لدى الطفل الوليد معناها، ولكيفية إكتساب الكلمات لدى الأطفال عموما لمعناها، ولم تكن الأصوات الغريزية التى يصدرها الطفل الوليد تستند إلى التقليد أو المحاكاة، وانما كانت قوى نشطه لها جذورها الغريزية فى الاستعدادت البيولوجية الفطرية لدى الكائن الانسانى، ولم تكن الكلمات التى يستخدمها الأطفال فيما بعد تكتسب معناها بوصفها وسيلة من وسائل الوصف أو التفكير التأملى، وانما كانت تكتسب معناها باستخدامها كنماذج للفعل تحت تأثير المواقف العاطفية القوية.

ولقد استخدم مالينوفسكى هذا التأويل السيكوبيولوجى لبدايات اكتساب الأطفال لمعانى الأصوات الغريزية أو الكلمات الأولى كوسيله إيضاح لتعزيز وجهة نظره البرجماتية لتفسير كلام الوطنيين بكامله بوصفه نموذجا من الفعل، ولتأكيد أسبقية الكلام المقترن بالفعل على الفكر. فهذه هى أهم السمات التى ميزت نظرية سياق الحال عنده.

٣- فن كتابة النص الاثنوجرافى:

بدون شك كان هذا المدخل القائم على الخبرة العميقة بمشكلات الترجمة

---

(1) Malinowski; "The Problem of Meaning.." op.cit.

الثقافية وصعوبة مطابقة وجهتى نظر العالم وجهة نظر على الأخرى، والحرص على اتخاذ المعرفة الصوتية باللسان الأجنبى مسرحا للبحث الميدانى أحد المداخل البارعة فى تحليل الثقافة الأجنبية، ومع ذلك فلقد كان لهذا المدخل البارع مردودا مثمرا آخراً قل أن تشير إليه الكتابات الأنثربولوجية بالإنصاف، وهو تفوق مالينوفسكى البالغ فى استخدام اللغة الانجليزية فى الوصف الاثنوجرافى بغاية توضيح الاتجاهات العقلية للكلام Paroles الوطنى للقارىء البريطانى، فلقد عادل مالينوفسكى بين البحث الميدانى الذى اجراه بنفسه فى اللغة الوطنية ومايفهمه القارىء البريطانى الغريب من النص المكتوب فى اللغة الانجليزية.

كانت معضلة مالينوفسكى تنحصر فى الواقع فى كيفية «التقول» على الثقافة الأجنبية من الداخل بضمير المتكلم وقد كان ينظر الباحث الميدانى بوصفه مؤرخا اخباريا للتاريخ الأجنبى الحى [١]. وقد كان يدرك بحكم خبرته الميدانية عمق الهوة الفاصلة بين المادة الثقافية الأجنبية الحية كما تتمثل للباحث الميدانى، وصورتها النهائية التى يحرص على تمثيلها فى النص المطبوع، ولذلك حرص فى كتاباته على تصوير ثقافة التروبرياند للقارىء الأوربى من الداخل، وكان كثيرا مايطلب من القارىء المطالع للنص أن يتخيل نفسه معه فى جزر التروبرياند، ساردا الخواطر التى كانت تنتابه أثناء مطالعته للمشاهد الوطنية الحية للمرة الأولى، ولعل التفاصيل التى قدمها فى تقديمه للأرجونوتس حول ظروف البحث الميدانى تؤكد حرصه على أن يعايش القارىء معه المواقف الذهنية الغريبة التى اختبرها هو بين التروبرياندييين. لقد أعاد مالينوفسكى كتابه الأرجونوتس ست مرات[٢]، ولم يكن ذلك سوى بهدف واحد وهو أن يرضى هو شخصيا على الأسلوب الذى يقوم به بتمثيل المادة الاثنوجرافية وتقديمها للقارىء الأوربى.

بدون شك كان مالينوفسكى باحثا ميدانيا وأدبيا متنوع المؤهلات، ولذلك

---

(1) Gellner, E.; "Malinowski and The Dialectic.. " op. cit.

(2) Malinowski, B.; Argonauts..; op.cit.

حرص على تخطى كراسة البحث الميدانى إلى رحاب النص المطبوع، وقد كان يدرك أن اللسان الأجنبى الحى يجب أن يحل فى اللغة الواصفة Meta Language للأنثربولوجيا الاجتماعية، أو فى النص الاثنوجرافى المطبوع الذى يطالعه القارىء الأوربى، ولذلك لم يدخر وسعا فى تطعيم كتاباته بالمفردات الوطنية التى كانت ملحوظة حتى للقارىء غير المتخصص، وقد كان بإمكانه أن يتخطى ذلك إلى ماهو أكثر من كتابة مفردات اللغة الكيرونيه بحروف لاتينيه، ولكنه لم يعثر على أسلوب فنى للتحليل يمكن أن يحقق مطالبة، وقد صاغ أفكاره فى ضوء تجربته الميدانية، وأقر بأهمية علم الصوتيات Phonetics فى فهم الخصوصيات الروتينية للتعبيرات الوطنية غير المألوفة للقارىء الأوربى مثل الإيقاع، الجناس، التقفية، طريقة التلفظ المثيرةللعاطفة...وما إلى ذلك. إذن لم يكن صدفة أن يكتب مالينوفسكى تلك الملوحظة الصوتية Phonetic Note فى مستهل الأرجونوتس يبين فيها للقارىء أنه أعتمد على القوانين التى وضعتها الجمعية الجغرافية الملكية للكتابة الصوتية فى كتابة مفردات اللغة الكيروينية، ولعل أهمها هو أن الصوائت Vowels التى تظهر فى الكلمات الوطنية المكتوبة بالحروف اللاتينية يحب أن تلفظ كما تلفظ الصوائت فى اللاتينية والايطالية، وأن السواكن Consonants التى تظهر فى الكلمات الوطنية يجب أن تلفظ كما تلفظ السواكن فى الانجليزية، أما الفواصل الموجودة بين الصوائت فهى علامة – على حد قوله – على عدم ادغامها وتلفظها منفصله، وهى طريقة فى الكتابة الصوتية تناسب تماما فى رأيه طريقة نطق اللغة الكيروينية، والطريف فى هذه الملحوظة هو مناشدة مالينوفسكى للقارىء بأن يحرص على لفظ المفردات الكيروينية كما تلفظ فى اللسان الوطنى وفقا لهذه القوانين بكل تمييز ووضوح.

كان النص الاثنوجرافى يمثل بالنسبه مالينوفسكى فى الواقع وسيلة إيضاح، وسيلة إيضاح يستعين بها الباحث الميدانى فى تقديم نتائج البحث الميدانى الذى قام به للقارىء الأوربى، وقد كان هدف النص الاثنوجرافى الذى يطالعه القارىء

الأوربى ينحصر في أن يستطع القارىء المطالع له أن يطالع من فوق أكتاف الباحث الميدانى التجربه الميدانية التى سبق لهذا الباحث أن عاشها من فوق أكتاف الأهالى الذى قام بالبحث الميدانى بينهم[1]. ولقد نجح مالينوفسكى عن اقتدار فى استثمار كفاءته الروائية أو الأدبية فى ابراز كفاءته المعرفية الميدانية فى هذا المجال، ولقد اتخذ فى هذا المضمار عددا من القرارات الحاسمه عدت فى مجملها ملائمة تماما للتطبيق فى بحث جميع الأوضاع الثقافية واللغوية بصرف النظر عن الزمان والمكان، وبصرف النظر عن اللغة الأجنبية التى تقدم فيها النصوص الاثنوجرافية فى هذا المجال.

ثانياً: طقوس الأداء الفعلى الميدانى:

الأساس المشترك الوحيد فى غالبية الدراسات الميدانية للانثربولوجيا الاجتماعية هو انتقال الباحثين الميدانيين للعيش فى أحد المجتمعات غير الكتابية بغاية الحصول على المادة الاثنوجرافية فى شكلها الخام، ولأن الباحث الأنثربولوجى هو الأداة الميدانية الرئيسية للبحث الميدانى. فقد وقعت البحوث الميدانية الأنثربولوجية جميعها فيما أطلق عليه روبرت بريستد R.Bierstadt تعبير التمركز حول الزمان Temporocentrism ويقصد به: «القبول غير المدروس وغير الواعى لنطاق حياة الباحث الميدانى ذاته بوصفه محور الدلالة الاثنوجرافية، وبوصفه البؤرة التى ترتبط بها كل الفترات الأخرى للبناء الاجتماعى، وبوصفه المعيار الصحيح للحكم عليها»[2]. وفى الترويج لاستخدام الذات الشخصية والمهنية للباحث الميدانى بوصفه محورا للممارسة الميدانية ذاتها.

وفى الواقع قد يكون للباحثين الميدانيين مخططات نظرية ناجحة يمكن أن يسيروا على هديها قبل أن يبدأو اعمالهم الميدانية، فمن المفترض أن المخططات

(1) Lienhardt, J.; "Interpreting The Interpretor". op.cit.

(2) Beirstadt, R.; "The Limitations of Anthropological Methods in Sociology"; American Journal of Sociology, 1948. p. 27.

النظرية تحدد دائما للباحثين مجال الرؤية، وتحدد ماله صلة وثيقة بالبحث الميداني وماليس كذلك، وبمعنى ما تحتم المخططات النظرية مايتم رويته فى الميدان، فكل باحث ميدانى يجلب معه عادة إلى موقع العمل الميدانى بعض التوقعات النظرية المسبقة، وتلك التوقعات النظرية المسبقة هى التى تقوم فى الغالب بتأويل المادة الاثنوجرافية التى يقوم الباحث الميدانى بتسجيلها، ومادام الأمر كذلك فليس من المتوقع دائما من الباحث الميدانى أن يقوم بتسجيل كل الوقائع أو الأحداث الاثنوجرافية التى قام بملاحظتها أثناء دراسته الميدانية، كما لايجب أن ينظر كذلك إلى البحث الميدانى على أنه سجلاً حافلا وافيا ومفصلاً عن الوقائع أو الأحداث الاثنوجرافية فالذى لاشك فيه هو أن الدراسة الميدانية لاتعرض فى الواقع إلا جانب يسير من المعلومات الاثنوجرافية التى يقوم الباحث الميدانى بجمعها عن القبيله أو القرية أو المجتمع المحلى الذى يدرسه، والمحك الأخير الذى يتحكم فى اختيار مايتم ذكره فى الدراسة من تلك المعلومات هو مدى تماشيها أو اتفاقها مع المخطط النظرى للدراسة، ومدى نفعها فى تفهم الوقائع أو ا لأحداث الاجتماعية التى اثارها هذا المخطط فى ذهن الباحث وهذا كله يتوقف على مدى قدرة الباحث على التحرر من قيود المشاهدات البادية الملموسة والأفعال الاجتماعية الجزئية، والأفراد الذين تصدر عنهم هذه الأفعال.[1] وعلى أى حال يتطلب الدراسة الميدانية أن يقصر الباحث الميدانى دراسته على مجتمع واحد بغاية دراسته دراسة شديدة التركيز، وهذا لن يتحقق على أكمل وجه إلا باتصال الباحث اتصالا وثيقا بالمجتمع الذى يدرسه.

- الملاحظة بالمشاركة والاستعانة بالاخباريين:

بمجرد أن يصبح الباحث الميدانى فى الميدان فإن التقنيات المستخدمة فى جمع المادة الاثنوجرافية تصبح هى تقنيات الملاحظة بالمشاركة Participant

(١) أحمد أبو زيد: «الطريقة الانثربولوجية لدراسة المجتمع» مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية.

Observation ، والملاحظة بالمشاركة حسب تعريف هو جو E.Hughes هى ديالكتيك أو حوار بين الباحث الميدانى بوصفه «غريبا» والباحث الميدانى بوصفه «صديقا»، وبالصفة الأولى يعد الباحث الميدانى وسيطا بين ثقافتين، حيث يقوم بترجمة ثقافة المجتمع «الأجنبى» المدروس إلى لغة ثقافته الفكرية الاكاديمية، وبالصفة الثانية فإنه بمجرد أن يبدأ فى العيش داخل المجتمع فإنه لايستطيع إلا ملاحظة مايحدث أمامه ومايراه معتمدا من ناحية على تصوراته النظرية المسبقة، ومن ناحية أخرى على الموضع الذى أحتله داخل نسق العلاقات الاجتماعية القائم(١)، وذلك لأنه اذا لم يحصل الباحث الميدانى على موضع داخل البناء الاجتماعى القائم فلن يكون سوى ملاحظاً غير مشارك، وعلى ذلك فإن الموضع الذى يتبوءه الباحث الميدانى داخل البناء الاجتماعى يفسح له المجال دائما لأن يصبح ملاحظا مشاركا بكل مافى الكلمة من معنى.

والملاحظة بالمشاركة ليست هى احدى التقنيات المجردة المنعزله داخل أى نسق اجتماعى، وانما هى «متغير Variety» يعتمد إلى حد بعيد على المواقف الاجتماعية التى ينخرط فيها الباحث الميدانى،وهى تتباين على طول متصل يبدأ من الملاحظة دون أية مشاركة، وحتى المشاركة دون القيام بأية ملاحظة، والمفارقة المحورية للملاحظة بالمشاركة هو البحث عن المعلومات الاثنوجرافية دون أن يقوم الباحث الميدانى بطرح الأسئلة.

والسؤال المعتدل الذى يفرض نفسه هنا: إذا كانت الصفة المميزه للبحوث الميدانية فى الأنثربولوجيا الاجتماعية هى أن يذهب القائمين بها- أو على الأقل مساعديهم- للعيش فى أحد المجتمعات بحيث يعدون هم أنفسهم الأداة الرئيسية لأبحاثهم،لماذا إذن هذا التركيز أو المبالغة الشديدة على تقنيات طرح الأسئلة والاستعانة بالاخباريين فى تلك البحوث؟.

---

(1) Hughes, E.; "Introduction" to B.Junker; Fieldwork; Univ. of Chicago Press; Chicago 1960.

والسبب الوحيد لذلك هو أن الباحثين الميدانيين لايمكن أن يكونوا اخباريين لأنفسهم، وذلك لانهم يستطعيون المشاركة فقط فى المواقف الاجتماعية التى تتم فى إحدى الفترات الزمنية وملاحظتها بأنفسهم طالما أنهم هناك، وهذا يعنى أنهم يتواجدون في المجتمع المدروس لفترة قصيرة نسبيا، وعليهم أن يكتشفوا ماكان يحدث فى هذا المجتمع قبل مجيئهم، ولأنهم لايستطيعون التواجد فى أكثر من مكان، وقد يتواجدون دون أن يسمح لهم بمعرفة شيئا مما يحدث فإن عليهم الاستعانة بالإخباريين، وأن يطرحوا عليهم الأسئلة، هذا مع أن الأسئلة التى يوجهها الإخباريون للباحثين الميدانيين قد تكون أحيانا أكثر أهمية من الأسئلة التى يوجهها الباحثون الميدانيون للإخباريين أنفسهم. ولذلك يعتمد الباحثون الميدانيون دائما على الإخباريين، وعلى الاستشهاد بمعلوماتهم وردود أفعالهم على الأحداث أو المواقف الاجتماعية التى لاتظهر فى العادة فى المظاهر السلوكية الملاحظة.

وقد يؤدى تطوير الباحث الميدانى لعلاقته الودية الحميمة مع الإخباريين الجيدين إلى مشاركة هؤلاء الإخباريين فى فعاليات الدراسة الميدانية ومسارها، وعلى الرغم من أن تطوير العلاقة الودية إلى هذه الدرجة قد يفقد الباحث الميدانى روح المبادرة، ويوقعه فى أسر إخبارييه بحيث لاتعكس دراسته وجهة نظره هو وانما وجهة نظرهم، إلا أنهم مع تطور هذه العلاقة الحميمة يتوقفون عن معاملته بوصفه أجنبيا غريبا، ويبدأون فى معاملته بوصفه صديقا، وهنا يتوقف «الديالكتيك» أو «الحوار» الذى أشار إليه «هوجو» عن ممارسة آثاره على الباحث الميدانى وسرعان ما يعترف الباحث الميدانى بأن البحث الميدانى قد أصبح سهلاً وأنه يتمتع به بالفعل.

وعلى الباحث الميدانى أن يعمل على تطوير علاقاته الاجتماعية العديدة مع أعضاء المجتمع، وذلك لأن الأدوار التى يقوم بها الباحث الميدانى اثناء تواجده فى الميدان تعد بذاتها مادة اثنوجرافية صالحة للاستعانة بها فى الدراسة الميدانية، ولقد نبهنا الأستاذ أوسكار لويس O.Lewis إلى أن من الخطأ الاعتقاد بأن قاطنى المجتمع يتصرفون بالضرورة تجاه بعضهم بعضا بالطريقة نفسها التى يتصرفون بها مع

الباحث الميدانى، فقد كان لويس باحثا «أجنبيا» فى تيبوزتلان وقد كان من المستحيل أن يعامله قرويوا القرية بالطريقة نفسها التى يعاملون بها بعضهم بعضا، وقد وجد أن القرويين كانوا ودودين معه ويثقون فيه، وفى الوقت نفسه كانوا شكاكين وحاقدين ومتحفظين تجاه بعضهم بعضا.

وبطبيعة الحال سوف ينخرط الباحث الميدانى بوصفه ملاحظا مشاركا بين الأهالى، وسوف يقوم باداء أدور أقل بالنسبة إليهم عن تلك الأدوار التى يقومون بها لكل منهم والآخر، وقد يفرض على الباحث الأجنبى الغريب اتخاذ بعض القرارات. فمن المعروف أن الغرباء الذين يعيشون خارج النطاق المعتاد للقرية هم الذين يحلون فى العاده الصراعات أو الخلافات التى تنشأ فيها، ولذلك قد يجد الباحث الميدانى نفسه (بوصفه غريبا يعيش بالمثل خارج حدود الحياة القروية المعتاده) حكما يعالج الصراعات أو الخلافات الناشئة والتى يتدخل فيها بأسلوبه الخاص. وبإمكان الباحث الميدانى الغريب أن يعتمد على الظاهر لاتخاذ القرار وذلك لكى يظهر نفسه فاعلا وغير متطفلا على الحياة الاجتماعية الخاصة وبإمكان الأهالى أن يحتفظوا بمشاعر الوحدة ويعترضون على تدخله فى شئونهم.

وعلى أى حال من الصعب معرفة الأدوار التى يمكن أن يقوم بها الباحثون الميدانيون أو تقسيمها داخل المجتمع المدروس. ولقد قدم جانز H.Gans بعض الملاحظات الخصبة حول اصطناع الباحث الميدانى لأدواره الميدانية، ولقد حدد جانز ثلاثة أدوار يقوم بها الباحث الميدانى، دور الباحث الشامل ودور المشارك الباحث، ودور المشارك الشامل، أما الدور الأول فهو يشير إلى تلك المناسبات التى يشارك فيها الباحث بالحد الأدنى بوصفه عضوا صامتاً من أعضاء المجتمع، والدور الثانى فهو يشير إلى تلك المناسبات التى يشارك فيها الباحث الميدانى بوصفه باحثا وليس بوصفه أحد أعضاء المجتمع، والدور الثالث فيشير إلى الباحث الميدانى حين يتصرف تلقائيا بوصفه صديقا أو جاراً.

لقد كان جانز مهتما على نحو خاص بالمشكلة المحورية التى تقلق كل الملاحظين المشاركين وهى ثغرات الأداء الفعلى والخدع المطلوبة فى الميدان، وقد فهم جانز المعضلة على النحو التالى: «لو كان الباحث الميدانى نزيها مع الأهالى بشأن نشاطاته فسوف يحاولون اخفاء الأفعال والاتجاهات التى يعتقدون أنها أفعال واتجاهات غير مرغوب فيها، وبذلك سيكون البحث الميدانى ذاته غير نزيهاً، ولذلك فحين تغلغلت فى النشاطات التى لم اكن اتوقع التغلغل فيه لاستخراج المادة الاثنوجرافية الوثيقة استلقيت فوراً داخل دور المشارك الشامل». لقد كان لدى جانز الرغبة فى أن يكون مشاركاً شاملا فى علاقات الجوار فى ليفتاون Levittown، وبصرف النظر عن المكان الذى كان يعيش فيه فقد كان يقدم نفسه دائما بوصفه باحثا ميدانيا لكى لايثير من حوله الشكوك. وعلى الرغم من ذلك فقد أقر بصعوبة الاقتراب من كل المعلومات الاثنوجرافية التى كان يرغب فيها، فهو لم يهتم على سبيل المثال ببعض الوظائف الدينية باستثناء الوظائف اليهودية لضيق الوقت من ناحية، ولأن الناس قد عرفت أنه يهوديا وقد شعروا بأنه يتطفل على طقوس الدين المسيحى دون هدف واضح، ولم يهتم كذلك باجراء المقابلات أو اللقاءات النسائية، فقد أعمته الاقتراضات المسبقة التى احضرها معه إلى «ليفتاون» عن إبصار جانب من المادة الاثنوجرافية.

وأخيراً على الرغم من أن الدراسات الميدانية تعتمد على الملاحظة بالمشاركة كمصدر محورى للمعلومات الاثنوجرافية إلا أن هذه التقنية تعتمد على الاخباريين ولذلك فإن أكثر الأوقات العصيبة التى يمكن أن تمر على الباحث الميدانى توجد حين يوجد تعارض فى المرتبة أو فى المكانة بينه وبين الإخبارى الذى يتعامل معه، وكما يشير جانز. «أن الباحث ذى المكانة الأعلى أو الأدنى من الاخبارى يحصل على مادة مختلفة عن الباحث الذى يشعر أن مكانته متساوية معه». والعامل الحيوى هنا هو أن معظم الباحثين الميدانيين هم أصغر سنا بكثير من اخبارييهم، بحيث يصبح من الصعب جدا طرح بعض الأسئلة أو التواجد معه فى بعض

الأماكن أو اللقاءات. ومن ناحية أخرى فإن اهتمام الباحث الميدانى بالإخباريين الذين ينتمون للخلفية الاجتماعية المماثلة أو يتمتعون بآساليب الفهم ذاتها سوف يؤدى إلى اغواءات اللجوء إلى انتهاكات الأداء الفعلى للباحث الميدانى واسقاط دوره كباحث ميدانى والتورط فى التصرف فى الميدان بوصفه شخصاً عادياً.

الفصل الرابع

الأنثربولوچيا الاجتماعية والخدمة الاجتماعية

تمهيد

أولاً: الفهم الوضعى للمشكلات الاجتماعية.

ثانياً: الفهم الأنثروبولوچى للمشكلات الاجتماعية.

ثالثاً: الأنثروبولوچيا الاجتماعية: العلم البحت والعلم التطبيقى.

رابعاً: المنظور الانثروبولوچى والممارسة المهنية.

١- مدخل التفاعلية الرمزية.

٢- مدخل الإثنوميثودولوچيا.

الفصل الرابع

الأنثربولوجيا الاجتماعية والخدمة الإجتماعية

تهدف الخدمة الاجتماعية Social Work إلى تقديم المساعدات المادية والمعنوية للأشخاص والعائلات والجماعات أو المجتمعات المحلية المحرومين من الشروط الضرورية للحياة مثل المأوى والعلاج والتعليم والحقوق المدينة.. وغيرها والإتجاه بدرجات متفاوتة نحو تصنيع الشروط الأولية للحياة الكريمة للإنسان، ومنع التفكك الاجتماعي والإنحلال الأخلاقي من خلال إزالة العوائق التي تمنع الأشخاص والعائلات والجماعات أو المجتمعات المحلية من التكيف الاجتماعي الفعال واستثمار الموارد البشرية بما يتلائم وقدراتها ومؤهلاتها وتحقيق الصالح العام[1].

ولقد كان لظهور المجتمع الصناعي الحديث الذى ظهرت بوادرة فى الغرب فى آواخر القرن الثامن عشر وبلغ ذروته فى القرن التاسع عشر أثر كبير فى اهتمام المفكرين والمصلحين الاجتماعين المعاصرين بموضوع الخدمة الاجتماعية، وإن كان ذلك لايعنى أن الموضوع ذاته حديث تماما، إذ أنه يمكن العثور على جذور هذا الموضوع فى الإهتمام المتعمد بتقديم المساعدات إلى الفقراء والمعوزين والأخذ بيدهم منذ فجر التاريخ، وهو اهتمام يعود إلى الدوافع الدينية والإنسانية الخيرة التى نجدها فى شتى المجتمعات الإنسانية بلا استثناء.

وعلى الرغم من ذلك فإن موضوع الخدمة الاجتماعية بمعناها الحديث (أى بوصفها تنظيما رسميا للجهود الحريصة على مساعدة الأشخاص والارتفاع بمستوى حياتهم بما يتفق وكرامة الإنسان) هو موضوع ملازم للمجتمع الصناعى الحديث، وماصاحبه من تغير عنيف فى العلاقات الاقتصادية

(1) Meyer, H.J; "Social Work"; in Intern. Ency. of Soc Scis.; Vol 14, pp 495 - 505.

والاجتماعية، وظهور أنماط جديدة من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التى لم يكن للمجتمع التقليدى المستقر عهد بها. فلقد نشأت الخدمة الاجتماعية فى سياق النتائج الملاحظة المصاحبة للتصنيع، والقلق الذى أصاب المفكرين والمصلحين الاجتماعيين من المشكلات التى ترتبت على الانخلاع الاجتماعى من نمط الحياة التقليدية المستقرة الطيبة. فقد كان هؤلاء المفكرين ينظرون إلى المجتمع التقليدى القديم على أنه المأوى الطبيعى للإنسان[1].

ولقد كان لدى مفكرى هذه الفترة وعلى رأسهم أوجست كونت A.Comte احساسا بغيضا لانهيار نمط الحياة التقليدية الطيبة، واندثار ماكان يتيحه هذا النمط من الحياة من فرص للعمل والاطمئنان والرفاهية الأمر الذى أدى فى نهاية الأمر إلى الافراط فى نقد المشكلات الاجتماعية المعاصرة مثل انعدام المعايير Anonymity واللاشخصية Impersonality المتطرفة فى العلاقات الاجتماعية.وقد كان علاج تلك المشكلات الاجتماعية التى تهدد الابنية الاساسية للمجتمع يكمن – فى رأيهم – فى العودة إلى نمط الحياة التقليدية الطيبة المهجورة، وفى المخططات «اليوتوبية» التى تحرص على توفير قدر أكبر من فرص الحياة الكريمة داخل نطاق المجتمع المدنى المعاصر[2] وقد أسهمت طموحات علم الاجتماع «الوضعى» الناشيء، ووجهة النظر المضادة للداروينية الاجتماعية Social Darwinism فى اشتغال عدد كبير من المفكرين والمصلحين الاجتماعيين بالاصلاح الاجتماعى وقد انتهت هذه الجهود بقبول الحكومات الغربية فى نهاية القرن التاسع عشر لمسئولية التصدى لهذه المشكلات المزمنة ووضع برامج الاصلاح الاجتماعى والارشاد الفردى بما يتيح الكشف عن مواطن الكفاءات والمهارات الكامنة والعمل على توجيهها من جديد بحيث تتاح لها الفرصة للاندماج والخلق والابتكار[3].

---

(1) Newby, H. & C. Bell; Community Studies: An Introduction to The Sociology of The Local Community; op.cit.

(2) Meyer; "Social Work"; op.cit.

(3) Meyer; "Social Work"; op.cit.

ومع بزوغ فجر القرن العشرين أصبحت الخدمة الاجتماعية مهنة رسمية متخصصة، حيث أصبحت تستغرق من المتهنين لها الذين خضعوا للتدريب النوعى فى هذا المجال كامل ساعات الدوام الرسمى. وارتفعت درجة الوعى الذاتى بمكانتها الفنية، ومع نمو التسهيلات التعليمية أصبح المتهنون للخدمة الاجتماعية يتمتعون بدرجة عالية من الكفاءة تخول لهم القيام بمهامهم، مثل مساعدة من تجابههم صعوبات فى التوافق الاجتماعى بسبب العوز أو المرض أو الحرمان أو الفساد الشخصى والعائلى، والمشاركة فى صياغة البرامج الوقائية وسياسة الرفاهية الاجتماعية التى تضعها الدول والحكومات.

فقبل عام ١٩١٠ ظهرت المدارس المستقلة لتدريب الاخصائيين الاجتماعيين فى الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا، وبين الحربين ظهرت المدارس المماثلة فى أمريكا اللاتينية وبلدان الكومنولث البريطانى، وبعد الحرب العالمية الثانية افتتحت المدارس المماثلة فى آسيا والشرق الأوسط وأوربا الشرقية وبعد ذلك فى أفريقيا، ولقد أحصى مسح أجرته منظمة الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٠ وجود ٣٧٣ مدرسة مهنية للخدمة الاجتماعية فى ٤٦ دولة من دول العالم، وقد كانت هذه الدول الـ ٤٦ تمثل ٣/٥ عدد الدول الأعضاء فى تلك المنظمة فى ذلك الحين، وعلى الرغم من لذلك فإن اللقب المميز لخريجى هذه المدارس المهنية (وهو اخصائى اجتماعى) غير متماثل فى البلدان المختلفة، فهو قد يشير فى بعض الدول إلى المتطوعين الذين يقومون ببعض الجهود المحسنة أو الأعمال الخيرية الانسانية، وقد يشير فى بعضها الآخر إلى المشرفين على برامج الرعاية الاجتماعية سواء كانوا قد تلقوا تدريبا مهنيا أم لا، وقد يشير كذلك فى بعض الدول الأخرى إلى العاملين الرسميين بالادارات الحكومية أو الوكالات الخاصة سواء المحلية أو القومية أو العالمية التى تقوم بتقديم خدماتها للمعوزين أو لمن يعانى من المشكلات الصحية أو من بعض أوجه العجز (كالاعاقة) التى تؤثر على توافقهم مع بيئاتهم الاجتماعية[1].

(1) Meyer; "Social Work"; op.cit.

وعلى أى حال لقد تأسست العديد من جمعيات الاخصائيين الاجتماعيين سواء على المستوى المحلى أو القومى أو الاقليمى أو الدولى، وانتشرت الدوريات المهنية وازدات المطبوعات المهنية، ووضعت الدساتير الاخلاقية للادارة المهنية، فقد واجهت المهنة صعوبات مزمنة فى محاولة المشتغلين بها تأسيس ذاتيتها المستقلة والمحافظة عليها، ولازالت يناقش الممتهنون لها فى اجتماعاتهم ومؤتمراتهم الصفة الاحترافية للمهنة والفارق بينها وبين الأعمال التطوعية الأخرى، ومدى التطابق المهنى القائم على مختلف المستويات المحلية والقومية والاقليمية والدولية حتى وقتنا الحاضر.

أولاً: الفهم الوضعى للمشكلات الاجتماعية:

كان العلم الحديث فى الواقع هو المحرك الأول لنمو نشاط المجتمع الصناعى، فمع بداية القرن التاسع عشر تحول الوعى الإنسانى وتعلم الإنسان تدريجيا التمييز بين الإستخدام التطبيقى للعلم الحديث وبين الولع بالرومانسية أو الوهم والخرافة، وشكل التقاء العلم بالصناعة حلفا قويا وكان من أهم نتائج هذا التحالف تطوير. وسائل الإنتاج الصناعى وتشييد الامبراطوريات الصناعية، وكما أشار سنو C.P. Snow : «بإمكننا أن نطلق على العلاقات التى تطورت بين العلم والصناعة فى القرن التاسع عشر اسم الثورة العلمية، وأن ننظر إليها بوصفها ثورة متميزة عن الثورة الصناعية السابقة عليها»(١).

ولقد تم تعزيز هذه الدروس بقوه حين تم النظر للتكنولوجيا بوصفها المطلب الأساسى للتقدم الإنسانى، وبالفعل فقد نجحت التكنولوجيا فى توفير مجموعة عريضة من الآلات الإنتاجية التى أحلت محل العمل الإنسانى، ومكنت الإنسان من الحصول على السلع والخدمات، ووفرت له وقت الفراغ، واستطاعت السيطرة

(1) Bates, M.; Man in Nature; Prentice Hall of India Private Ltd, New Delhi 1968. p. 107.

على الأمراض والآلام الجسمانية، باختصار فقد وفرت التكنولوجيا «المدينة الفاضلة» التى كان الإنسان يحلم بها. وعلى الرغم من ذلك فلقد كان للتكنولوجيا آثارها الاجتماعية السلبية، فقد مكنت التكنولوجيا الإنسان الحصول على القوة أسرع من حصولة على الحكمة. صحيح أن التكنولوجيا استطاعت التخفيف من معاناة الإنسان ووفرت له وقت الفراغ، واستطاعت التحكم فى انتشار الأمراض ولكنه بات يهدى أعصابه بكميات هائلة فى العقاقير الطبية والمخدرات والخمر، وبالكاد يمكن للمريض العقلى الحصول على أحد الأسرة فى أحد المستشفيات العقلية. فلقد جلبت التكنولوجيا تهديداً ماثلاً أبداً للإنسان «القلق»(٧).

ولقد كان من الطبيعى أن تعلو الأصوات تنبه إلى خطورة النتائج المخيفة للحضارة الصناعية والآثار السلبية التى تمارسها فى المجتمع المعاصر. وتدعو إلى إستخدام المنهج العلمى فى معالجة المشكلات الاجتماعية الماثلة. ولم يكن علاج أسباب التفكك والإنحلال الاجتماعى الملاحظ وتقديم التدابير العملية اللازمة لعلاجه يكمن فى نظر مفكرى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى العودة إلى النظم الاجتماعية التقليدية المهجورة، أو فى المخططات الاجتماعية «التأملية»، وانما يكمن فى توجيه العلم نمو الاهتمام بفهم أسباب المشكلات الاجتماعية وتقديم الحلول العلمية لعلاجها.

فى أواخر القرن التاسع عشر كان الباحثون الأوربيون غارقون فى بحث مشكلة الإنتحار Suicide بوصفها أحد المشكلات الاجتماعية التى ظهرت فى المجتمع الصناعى فى أوربا فى القرن التاسع عشر، نتيجة التحول الذى طرأ على المجتمع الريفى القديم وظهور المجتمع الصناعى الحديث. ولقد حاول الكثيرون من الباحثين الأوربيين تفسير مشكلة الإنتحار فى ضوء العوامل التى نسميها «قبل الاجتماعية»،

(1) Bates, Man in...; op.cit. p. 108.

مثل الخصائص السلالية (أو العرقية) أو الخصائص الوراثية أو بعض الأمراض النفسية التى قد يمر بها الفرد. أو حتى رد هذه المشكلة إلى العوامل الكونية مثل المناخ أو درجة الحرارة ... إلخ.

وفى ذلك الحين كان دوركايم مهمتها بالتفكك الاجتماعى للمجتمع المدنى الذى كان يعيش فيه، ومن هذا المنظور وضع تصوراته الخاصة بالأنوية Egoism (الذى يقول بأن المصالح الشخصية للفرد من حيث هو كذلك تشكل أساس سلوكه كله) وبالأنومى Anomie (حالة فقدان المعايير الناتجة عن الانهيار الأخلاقى الكامل للمجتمع) ولذلك أدلى بدلوه فى دراسة مشكلة الانتحار التى كان يعانى منها المجتمع الصناعى الأوربى فى القرن التاسع عشر، وفى الواقع يعكس تناول دوركايم لتلك المشكلة رفضه البالغ لكل التفسيرات السائدة لتلك المشكلة فى ذلك الحين.

فقد رفض إرجاع هذه المشكلة إلى الخصائص السلالية على اعتبار أن اقدام المنتحر على الانتحار لايتوقف على «الدم» الذى يجرى فى عروقه أو الملامح الفيزيقية الخاصة به. وقد رفض كذلك الربط بين الانتحار والخصائص الوراثية أو الأمراض النفسية أو العوامل الكونية على اعتبار أن تلك المشكلة تعتمد على الوسط الاجتماعى الذى ينشأ فيه المنتحر، وأن المناعه ضد الاقدام على هذا الفعل انما يعتمد بالأساس على درجة اندماج الشخص فى الحياة الاجتماعية التى يحياها(٨).

لقد كانت القيمة الحقيقية لتناول دوركايم لمشكلة الانتحار تكمن فى حرصه الشديد على استبعاد العوامل «غير الاجتماعية» التى قدمها الباحثون المعاصرون له فى تفسيرهم لهذه المشكلة، فقد كان من العسير – فى رأيه – تفسير هذه المشكلة بالإشارة إلى الصور أوالأشكال الفردية التى تظهر فيها، فالانتحار فى رأى دوركايم

---

(1) Lukes, S., Emile Durkheim: His Life and Work; Penguin Books, 1981.

ظاهرة اجتماعية فريدة متميزة بذاتها Sui generis شأنها في ذلك شأن غيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى (مثل الدين واللغة والزواج والعائلة والطلاق والتعليم والقانون والمهن والظروف الاقتصادية أو السياسية وغيرها) ولذلك يجب أن نعالج على هذا الأساس(١).

وانطلاقا من هذا المنظور تمكن دور كايم من ربط مشكلة الانتحار بالعوامل الاجتماعية الأخرى (وبخاصة العوامل الدينية والعائلية والسياسية). ومعتمدا على الاحصاءات التي جمعها الآخرون والاحصاءات السرية لوزارة العدل الفرنسية ميز دوركايم بين ثلاثة أنواع من الانتحار وهي الأناني والإيثاري والإنتحار الناشيء عن الإنحراف عن المعايير الثابتة أو الخروج عليها، وقد كان الأساس الذي اعتمد عليه دوركايم في اقامة هذا التمييز بين تلك الأنماط الثلاثة هو مدى ماتتمتع به الجماعة الاجتماعية من تماسك وتضامن اجتماعي، فكلما زاد التضامن الاجتماعي في أية جماعة اجتماعية انخفض معدل الانتحار (كما هو الشأن في المجتمعات البدائية) والعكس بالعكس (كما هو الشأن في المجتمع الصناعي الحديث)(٢).

وينشأ النمط الأناني في الانتحار نتيجة لعدم اندماج الفرد في المجتمع الذي يعيش فيه. ويتمثل ذلك بشكل واضح في الحالات التي يكون فيها التوكيد على قيمة الفرد بوصفه فرداً. بحيث يصل الأمر ببعض الأفراد إلى أن يجدوا أنفسهم عاجزين عن الاستجابة لأية سلطة غير السلطة الصادرة منهم هم أنفسهم. مما يؤدى بهم في النهاية إلى انعزالهم عن المجتمع. فحين يفقد الفرد الهدف الاجتماعي، وحين تتخلخل الروابط الاجتماعية التي تشده للمجتمع، وحين يشعر كذلك بالفراغ ويفكر في المعنى المأساوي لوجوده فقد أصبح فريسة جاهزة للإنتحار، وبالتالي فاءنه يقدم عليه.

---

(1) Lukes, S.; op.cit

(٢) أحمد أبو زيد؛ المفهومات؛ المرجع السابق صـ ٨٤ .

أما النمط الإيثارى من الانتحار فهو ينشأ نتيجة لإفراط الفرد فى الإندماج فى المجتمع الذى يعيش فيه، ونتيجة لرغبته فى التضحية بحياته خضوعاً لبعض التقاليد والاعراف الموجودة فى المجتمع، سواء كانت هذه التقاليد والاعراف مستمدة من التعاليم الدينية أم من المذاهب السياسية. وينتشر هذا النمط فى المجتمعات التى لايتمتع فيها الفرد بشخصية مستقلة أو بكيان متمايز أو منفصل عن المجتمع الذى ينتمى إليه والذى يستمد منه كل مقوماته. ففى مثل هذه المجتمعات تكون حياة الفرد قليلة الأهمية بالنسبة لنفسه وبالنسبة لغيره من الناس على السواء. وإذا كان النمط الأول من الانتحار يحدث نتيجة لقلة اندماج الفرد فى الحياة الاجتماعية، فاءن هذا النمط الايثارى أو الغيرى يحدث نتيجة لفرط اندماج الفرد فى الحياة الاجتماعية أو المجتمع.

ويظهر النمط الثالث من أنماط الانتحار نتيجة اخفاق الفرد فى التوافق الاجتماعى مع المجتمع الذى ينتمى إليه، ويحدث ذلك غالبا فى حالة اختلال التوافق التقليدى القائم بين الفرد والمجتمع نتيجة لتعرض المجتمع لاحدى الهزات العنيفة (أزمة اقتصادية أو هزيمة حربية على سبيل المثال) بحيث يفقد الفرد القدرة على التكيف مع شروط الحياة الاجتماعية الجديدة. فى مثل هذه الأحوال تهتز القواعد والمعايير التى تنظم سلوك الناس وعلاقتهم الاجتماعية بحيث يفقد بعض الأفراد توازنهم وتوافقهم الاجتماعى فيقع الشرخ التاريخى، فقد أصبح من غير المستطاع أن يتهيأ الفرد للتجاوب أو ملاقاة الظروف الجديدة، واصبح من غير المحتمل أيضا أن يشاهد الفرد حياته وهى تتحطم بقسوة أمام عينيه وتفقد معناها وهنا لايجد له مخرجاً سوى الاقدام على الانتحار.

لقد مارس تناول دوركايم الوضعى لمشكلة الانتحار بوصفها ظاهرة اجتماعية تأثيرا قويا على علماء الاثنوجرافيا فى تناولهم للمشكلات الاجتماعية الأخرى، وهكذا ربط اثنوجرافيا مدرسة شيكاغوا Chicago بين «الانحراف» والتفكك الاجتماعى فى أسلوب مماثل لتصور دوركايم للأنومى Anomie) (حالة فقدان

المعايير)، واستخدام روبرت ميرتون R.Merton (١٩٣٨) هذا المفهوم للربط بين السلوك الاجتماعي والتنظيمات الاجتماعية التي يقوم بناوها التنظيمي على الكفاءة المهنية(١)، ولقد أثار هذا التناول الكثير من أوجه النقد، وسوف نتعرف عليها فيمايلي:

ثانياً: الفهم الانثربولوجي للمشكلات الاجتماعية:

وهكذا انشغل دوركايم بمعالجة مشكلة الانتحار بوصفها ظاهرة اجتماعية وضعية، وأهتم باثبات العلاقة بين السبب والنتيجة، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الاقتراحات المنهجية التي قدمها في هذا الميدان تنطوي على بعض المغالطات الابستمولوجية، فقد عادل دوركايم بين المشكلة الاجتماعية والظاهرة الوضعية، ونظرا للكائنات الانسانية بوصفها أشياء Objects يمكن أن تخضع لكل ما تخضع له الظواهر الاستقرائية، فلم يعتد دوركايم بالنظر للكائنات البشرية بوصفها أشخاص Subjects يمكن النظر لأفعالهم على أنها أفعال هادفة على الأقل بالنسبة لهم. وبالتالي لم ينظر لمشكلاتهم على أنها مشكلات إنسانية لا يمكن أن توجد مقدماً كموضوعات وضعية، وإنما توجد في الأصل كنتيجة لسلسة طويلة من الممارسات التأويلية.

فمن هنا فشل دوركايم في تقدير الوصف الدال للمشكلة الاجتماعية بوصفها شكلاً من الفعل الاجتماعي وهو الوصف الذي يستطيع تفكيك المشكلات الاجتماعية، فلم يتخل دوركايم قط عن فكرة وجود مشكلة اجتماعية وضعية تتطلب استجابة منهجية واحدة، وكما يقرر شوتز Schuts:

«هذا الأقرار للأمور يجب أن يتأسس على التسليم بأن هناك اختلاف جوهري

---

(1) Hester, S. & P. Eglin; A Sociology of Crime; Routledge, London 1992, (Chapter 1).

فى بناء موضوعات التفكير أو الموضوعات الذهنية التى صاغها علم الاجتماع الوضعى، وتلك التى صاغتها العلوم الطبيعية، فمن الواجب على العالم الفيزيائى وحده - اتسجاماً مع القواعد الاجرائية لعلمه - تحديد ميدان الملاحظة والحقائق والمعطيات والأحداث التى لها صلة وثيقة بالمشكلة التى يقوم بدراستها أو بالغرض العلمى الذى فى متناول يديه. وتلك الحقائق أو المعطيات أو الأحداث لم يتم اختيارها مقدماً، وكذلك لم يتم تفسير المجال أو الميدان الخاضع للملاحظة مقدماً، فالعالم الطبيعى كما يكتشفه عالم الفيزياء لا يعنى شيئا بالنسبة للجزئيات والذرات والالكترونات.

وعلى النقيض من ذلك فإن المجال أو الميدان الملاحظ للعالم الاجتماعى لديه معانٍ محددة وثيقة الصلة بالكائنات الانسانية التى تعيش وتتفاعل وتتصرف وتفكر داخله. وتلك الكائنات الانسانية لاتختار مقدماً وتؤول مقدماً العالم الاجتماعى الذى يختبرونه بأنفسهم بوصفه عالم حياتهم اليومية. إن هذا العالم الاجتماعى يمثل موضوعات تفكير الكائنات الانسانية أنفسهم، ويحدد افعالهم وتوقعاتهم أنفسهم.

أما موضوعات التفكير التى يقوم بتأليفها الباحث السوسيولوجى بغاية فهم هذا العالم الاجتماعى، فإنها تأسست على موضوعات التفكير التى بنيت فى الأساس وفقاً لانماط تفكير البشر الذين يعيشون حياتهم الاجتماعية داخل عالمهم الاجتماعى الخاص». [1]

وبطريقة مماثلة يقول ماتزا Matza:

«بدأ الخلط حين أساء علم الاجتماع الوضعى فهم الظاهرة الاجتماعية الخاضعة للدرس، وهى الإنسان، وميزه بوصفه موضوعا أو جماداً وليس بوصفه

(1) Hester; A Sociology of Crime; op.cit.

إنسانا، وقد كان ذلك خطأ جسيماً. وقد ظهرت نظريات عديدة تعرض للإنسان بوصفه مجرد مستجيبا للمؤثرات الخارجية Reactive وحسب، وتنكر أنه مؤلفاً Author للفعل، ولم يكن من بين هذه النظريات نظرية واحدة مقنعة. ولقد استمرت هذه النظرة التي تنتقص من قدر الإنسان بمثابة الفرضية الرئيسية الموجه للبحث، وعلى الرغم من كل الإنكارات الكلاسيكية التي قدمها ماكس فيبر M.Weberوجورج هربرت ميد G.H.Mead لوجهة النظر الوضعية فقد استمر الخطأ الأول في إنزال البلاء بعلم الاجتماع وبفروع المعارف الأخرى على حد سواء»[١].

وعلى أي حال يعتمد تصور المشكلات الاجتماعية على اهتمامات الزمان والمكان، فهي تعكس في الواقع مايعاني منه الأشخاص أو ماينظر إليه المجتمع على أنه كذلك، وهي تمتد من ضرب الزوجات حتى الأمية، ومن أبسط أشكال التمييز العنصري حتى تلوث البيئة، ومن تعاطي المخدرات وحتى الاجهاض، ومن ادمان الكحول وحتى الاغتصاب الجنسي، ومن أخف أنواع الاعاقة وحتى الاعتقال. وخلاصة القول أن مجال المشكلات الاجتماعية مجال متنوع، ومن أهم خصائصه الديناميكية، ويتأثر هذا المجال في العادة بالتغيرات الاجتماعية التي تحدث في المجتمع، والتي تؤدي في العادة إلى الشعور بالحاجة في إتخاذ موقف محدد من بعض الظواهر الطارئة وعلاجها.

إذن يعتمد ظهور أية مشكلة اجتماعية على تنظيم المواقف التي تؤكد الحاجة لتحسين بعض الظروف الاجتماعية أو تغييرها أو حتى اجتثاثها، ووفقا لما ذهب إليه سبكتور Spector وكيتيوسوس Kitususe (١٩٨٧) يمكن تحـــديد المشكلة الاجتماعية في ضوء النشاطات التي أدعت وسائل الإعلام ووكالات الرفاهية

(1) Hester; A Sociology of Crime; op.cit.

الاجتماعية والناطقين بلسان الجماهير من رجال الحكومة أو من غيرهم أنها تمثل مشكلة اجتماعية، وقاموا بتحديدها على هذا الأساس فى ضوء بعض الشروط أو الظروف الخاصة. فالمشكلة الاجتماعية هى تلك النشاطات التى يقوم بها الأشخاص والجماعات للاصرار على المظالم والشكاوى فى ضوء بعض الظروف أو الشروط الاجتماعية الخاصة، وقاموا بتدعيم ادعاءاتهم على هذا الأساس(١).

فقد اكتشف بفول Pfol (١٩٧٧) على سبيل المثال أنه لم يتم الاعتراف بـ «إساءة معاملة الأطفال» بوصفها مشكلة اجتماعية يجب إتخاذ خطوات حاسمة نحوها إلا فى بداية الستينيات، وقبل هذا التاريخ كان الأطفال يضربون، وكانت تساء معاملتهم،ومع ذلك لم يكن يمثل ذلك بالنسبة للرأى العام مشكلة اجتماعية يمكن أن تجذب اهتمامه. ولم يحدث ذلك فى الواقع إلا على أثر تصرف بعض الجماعات ذات الكيان المسموع (وكانوا فى هذه الحالة الأطباء) بطريقة فعالة جذبت اهتمام الجمهور العريض، عندئذ تم الاعتراف باساءة معاملة الأطفال بوصفها تمثل احدى المشكلات الاجتماعية العامة التى يجب اتخاذ موقف نحوها(٢).

وبالمثل فقد روى بول روك P.Rock فى كتابه وجهة نظر من الأوهام A View From The Shadows (١٩٨٦) قصة تورط إرفين والر I.Waller النائب العام فى كندا Canada فى الدعاية لضحايا العنف، وتعد تلك القضية مثالاً طيباً لكيفية ابراز المشكلة الاجتماعية بوصفها كذلك من خلال صناعة الادعاءات والدعاية لها، فقد كان هناك بالفعل اعتراف بجرائم السلب (السرقة المصحوبه بالعنف) لمدة طويلة على انها تمثل جرائم يعاقب عليها القانون، ومع ذلك لم ينظر لهذه الجرائم على انها تمثل احدى المشكلات الاجتماعية الخطيرة إلا حين

(1) Hester; A Sociology of Crime; op.cit.
(2) Hester; A Sociology of Crime; op.cit.

وصفها «والر» باسم «البلطجة العنيفة» ، وطالب الحكومة بإتخاذ الإجراءات الحاسمة وتشديد العقوبات نحو مرتكبيها، وتوسيع دائرة الموظفين المنفذين للقانون، وذلك لمعالجة فشل النظام القضائى فى كندا فى التصدى الفعال لوقف نزيف الجرائم العنيفة(١).

وتختلف وجهة النظر الانثربولوجية الاكاديمية عن وجهة نظر صناع الادعاءات فى النظر للمشكلات الاجتماعية فقد دار البحث الانثربولوجى الأكاديمى عقوداً طويلة حول مشكلة الترتيب أو التكامل الاجتماعى، أو حول الكيفية التى يصبح بها المجتمع الإنسانى واقعاً فعلياً. وهو مجال يتضمن فى الواقع الاهتمام بفهم العمليات الاجتماعية الممارسة داخل البيئات الاجتماعية المختلفة وتحديد مختلف السياقات الاجتماعية للتفاعل الاجتماعى القائم، وفى حين ينظر صناع الادعاءات للمشكلات الاجتماعية بوصفها ذريعة لطرح الأسئلة الخاصة بالأسباب والنتائج تمهيداً لعلاجها أو للقيام بشىء حولها، تنظر الأنثربولوجيا الاجتماعية الاكاديمية لها بوصفها ذريعة لطرح الأسئلة المنهجية التى يثيرها البحث الانثربولوجى تمهيداً لتفسيرها فى ضوء المعرفة الانثربولوجية.

وهذا معناه أن اهتمام الانثربولوجيا الاجتماعية الاكاديمية بالمشكلات الاجتماعية هو اهتمام منهجى وليس اهتمام علاجى أو اصلاحى، وان كان ذلك لايعنى انها لاترغب فى حلها لأن ذلك يحكم على الأبحاث الانثربولوجية الاكاديمية بعدم الاحترام، وإنما يعنى أن الانثربولوجيا الاجتماعية الاكاديمية تحرص على فصل الاهتمامات النظرية عن الاهتمامات التطبيقية، ليس بغاية اهمال الاسهام فى علاج المشكلات الاجتماعية وانما على النقيض من ذلك من أجل اخضاعها للفهم المنهجى الاكاديمى أولاً وذلك كخطوه أساسية من أجل علاجها. فإذا كانت الأسئلة التى يطرحها صناع الادعاءات تدور حول أسباب

(1) Hester; A Sociology of Crime; op.cit.

المشكلات الاجتماعية، ومايمكن القيام به لعلاجها، فاءن أسئلة صناع الادعاءات أنفسهم تعكس بالنسبة للانثربولوجيا الاجتماعية الاكاديمية وجهة نظر هى ذاتها فى حاجة للبحث المنهجى. وكما وضح روبرت بارك R.Park: «يجب على الدارس الانثربولوجى عدم الإنشغال بالمشكلات الاجتماعية التى يضطلع المجتمع المحلى عادة بحلها، وإنما عليه أن ينشغل بمشكلاته «هو» المنهجية وأن يصنعها بنفسه»(1). فعلى هذا الأساس يمكن الاستفادة من الجهود الانثربولوجية الاكاديمية فى فهم المشكلات الاجتماعية ومعالجتها ولكى نتحقق من كيفية القيام بذلك فى مجال الخدمة الاجتماعية علينا التفرقة بين الانثربولوجيا الاجتماعية البحث، والانثربولوجيا التطبيقية، وهو الموضوع الذى سنتحول إلى عرضه الآن.

ثالثاً: الانثربولوجيا الاجتماعية «العلم البحث والعلم التطبيقى»:

فى العلوم الطبيعية هناك تقسيم واضح للعمل، ولذلك هناك حدود يقينية تفصل بين المعرفة النظرية الأكاديمية وبين الممارسات التطبيقية لهذه المعرفة، وهو تقسيم يماثل - بشيء من التجاوز - تقسيم العمل الذى ساد ذات يوم فى ممارسات الاثنولوجيين الفيكتوريين والذى كان يتم التمييز فى ضوئه بين جمع الأخبار الاثنوجرافية من مختلف المناطق النائية على سطح الكرة الأرضية وبين التنظير النظرى الأكاديمى الذى كان يقوم به الاثنولوجيون المكتبيون فى جامعات أوربا. وهكذا نجد فى العلوم الطبيعية من السهل التمييز بين مجال العلم النظرى البحت، ومجال الممارسات التطبيقية لهذه العلوم. ففى حين يقوم العالم الأكاديمى بممارسة نشاطه الأكاديمى فى سياق القواعد الاجرائية للعلم داخل معامل الجامعة أو المؤسسات البحثية الأخرى، يقوم المهندس المدنى - على سبيل المثال - بتصميم الجسور وتنفيذها أو بوصف الطرق وبناء ناطحات السحاب

(1) Hester; A Sociology of Crime; op.cit.

مستفيداً من المعرفة الأكاديمية النظرية المتوفرة حول سلوك الأحجار والمعادن فى مختلف ظروف الضغط والحرارة... الخ، أو فى حين يجاهد عالم البيولوجيا لاكتشاف مبادىء علم الوراثة وقوانين التغير الاحيائى للجينات الحيوانية والنباتية يقوم المهجن الحيوانات أو المستولد للنباتات باستثمار الحقائق الوراثيه والاحيائية فى تحسين السلالات أو تطويرها لكى تلائم المناطق الجافة قليلة الأمطار أو الشديدة الحرارة.

وبالمقارنة بالاثنولوجيا الفيكتورية وبالعلوم الطبيعية يمكن القول أن الحدود الافتراضية الفاصلة بين العلم النظرى والعلم التطبيقى فى الانثربولوجيا الاجتماعية هى حدود ضبابيه إلى أبعد الحدود. فمن المعروف أن الانثربولوجيا الاجتماعية ذاتها قد نشأت وتطورت بوصفها مشروعاً تطبيقاً لفهم الشعوب البدائية بهدف إيجاد الطرق التى ستتكيف بها هذه الشعوب البدائية مع العالم الأوروبى، وحين دُعى الانثربولوجيون الاجتماعيون لمغادرة المكتبات الأوربية والتوجه نحو اجراء الدراسات التطبيقية بأنفسهم. فى ذلك الوقت لم تكن الانثربولوجيا الاجتماعية علما أكاديميا له نتائج نظرية يمكن أن يكون لها طموحات تطبيقية بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما كانت مسئوليات عملية مباشرة، وفى الواقع لم يختلف بناء مقولات الانثربولوجيا التطبيقية عما كان سائدا فى الانثربولوجيا النظرية الأكاديمية التى لم تكن تركز على تحليل الموضوعات النظرية الاكاديمية وانما اهتمت بالتحليلات العينية للمجتمات البشرية.

لقد شاع استخدام مصطلح الانثربولوچيا التطبيقية Applied Anthropology فى الدوائر الاكاديمية، وأشير كثيراً للأنثربولوجيين الاجتماعيين بوصفهم مهندسين أو استشارين اجتماعيين، وعلى الرغم من ذلك لم تنجح الانثربولوچيا النظرية الاكاديمية فى تحديد هدف تطبيقى محدد. وهذا راجع فى حقيقة الأمر الى طبيعة الأنثربولوچيا الاجتماعية الاكاديمية ذاتها. فالانثربولوچيا التطبيقية لم

تكن نمطا تطبيقياً مختلفاً عن الأنثربولوچيا الاجتماعية الاكاديمية، وانما كانت هى ذاتها، فقد اختلطت الأنثربولوچيا التطبيقية بالأنثربولوچيا النظرية الاكاديمية، وقد جاءت معظم الاعمال التى قدمها الأنثربولوجيون الاجتماعيون فى النصف الأول من القرن العشرين نتاجاً لهذا النمط من الخطاب الأنثربولوجى الذى لم يهتم بالفصل بين العلم النظرى البحت والممارسة التطبيقية.

ولذلك لم يكن بمقدور الأنثربولوجيين الاجتماعيين الحديث عن الأنثربولوچيا الاجتماعية الاكاديمية البحت كما يتحدث العلماء الطبيعيون عن المعرفة النظرية البحته، وعن طموحات الممارسات التطبيقية لديهم، وذلك لأن النشاط العلمى الذى يقوم به علماء الطبيعة يختلف تماماً عن مجال النشاط الذى يقوم به الأنثربولوجيون الاجتماعيون، فإذا كان العلماء الطبيعون يعملون فى الأصل من أجل خدمة الاكتشافات النظرية التأملية التى سبق وأن توصل إليها زملائهم فى الماضى أو التى من المحتمل أن يقوموا باكتشافها فى المستقبل، فإن العالم الانثربولوجى ليس بمقدوره بأى حال الاعتماد على الأفكار أو النظريات التى توصل إليها غيره من الأنثربولوچيين الاجتماعيين، وذلك لأن شروط الحياة الاجتماعية ليست شروطاً كونية ثابته وانما هى شروط متغيره فى الزمان والمكان، والأهم من ذلك فإن قيام العالم الأنثربولوجى بدراسته التطبيقية غالباً ما يضعه – وعلى الخلاف من العلماء الطببيعيين – فى مواجهة بعض القضايا الجديدة التى تفرض عليه الاهتمام بطرح الأسئلة النظرية الجديدة واستخلاص النتائج العلمية فى الحال. فالدارسة الأنثربولوچية التطبيقية التى يقوم بها أحد الأنثربولوچيين هى دراسة فريدة تختلف فى طابعها ليس فقط عن الدراسات التى سبق لزملائه الأنثربولوچيين القيام بها فى الماضى، وإنما أيضاً عن الدراسات التى سوف يقومون بها فى المستقبل حتى فى المجتمع ذاته.

ليس غريباً إذن أن تختلف اتجاهات الرجل العادى نحو مجال المعرفة التطبيقية

فى العلوم الطبيعية والانثربولوجيا الاجتماعية. وهكذا نجد أنه فى حين يسلم أعضاء الجمهور العادى بالخبرات النوعية التطبيقية للعلوم الطبيعية، ويعرفون على وجه التحديد الأوقات التى سوف يلجأون فيها للخبير الملائم، والنتائج التى يرغبون أن يحققها لهم - (على سبيل المثال سوف يسهل الجسر الجديد عملية الانتقال من مكان لآخر، وسوف تسمح السلاله الجديدة من القمح بإقامة المزارع فى المناطق الهامشية، وسوف يداوى المخدر الجديد الأمراض المؤلمه، أو سوف تقلل الآلات الجديده من تكاليف الانتاج ... وهكذا) فإنهم لايعتدون فى الوقت نفسه بالخبرات النوعية للانثربولوجيين الاجتماعيين أو مؤهلاتهم.

فى الواقع يعتقد كثير من أعضاء الجمهور العادى - ولو بشكل مستتر - أنهم خبراء ناضجين لاتختلف استقراءاتهم لمشكلات الحياة اليومية عن استقراءات الانثربولوجيين الاجتماعيين الاكاديميين. وفى هذه الحالة ينظر أعضاء الجمهور العادى للانثربولوجيين الاجتماعيين الاكاديميين على أنهم نقاد فنيين إذا جاز لنا هذا التشبيه، فإذا كان الرجل العادى يفترض أن التذوق الطيب للأعمال الفنية يأتى فطرياً ولايحتاج لأية مؤهلات نقدية مكتسبة، فإنه يفترض بالطريقة نفسها أن الفهم الأمثل للمشكلات الاجتماعية اليومية يمكن أن يتم دون الاستعانة بنصيحة أو مشورة الانثربولوجى الاجتماعى الاكاديمى. وإذا كان هناك بطبيعة الحال من يحرص على احترام أحكام النقاد عند تذوق اللوحات الفنية أو اكتشاف مواطن الجمال فيها فسوف يكون هناك بالمثل من بين أعضاء الجمهور العادى من سيحرص على الاستماع إلى نصائح الانثربولوجيين الاجتماعيين وتعليقاتهم حول المشكلات الاجتماعية. وهؤلاء يمثلون فى الأصل القلة التى بالغت فى عصمة الانثربولوجيين الاجتماعيين ومايمكنهم القيام به فى هذا المجال.

على أية حال تختلف مهمة الانثربولوجى الاجتماعى عن نظيره عالم الطبيعة، ففى حين لايواجه عالم الطبيعة فى الأصل مشكلة أحكام القيمة عند تأمله

لموضوع بحثه فاءن الانثربولوجي الاجتماعي لايمكن له مواجهة موضوع دراسته دون أن يقحم مشاعره وقيمة الاخلاقية سواء بالاستحسان أو السخط والاستهجان، فبينما يواجه عالم الطبيعة موضوعا جامداً لامعنى له حتى يقوم هو نفسه بإضافة المعنى عليه، يواجه الانثربولوجي الاجتماعية «مترجلا» أشخاصا أحياء لديهم عالمهم الخاص من الأفعال والمعانى، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن مهمة الانثربولوجى الاجتماعى أصعب بكثير من مهمة نظيره عالم الطبيعة، وكما لاحظ روبرت ردفيلد R.Redfield: «فى داخلى لاينفصل الإنسان والباحث الانثربولوجى قط، وقد اعتدت الاعتقاد فى امكانية القيام بمثل هذا الفصل فى البحث العلمى، والآن فإننى اعترف بأننى لم استطع القيام بذلك قط، لقد كنت اعتقد فى قدرتى على القيام بذلك، ولذلك قمت بشرح كل القواعد الخاصة بالموضوعية فى البحث العلمى، وترتيب الأدله أو الشواهد الدالة التى أثبتها الباحثون الآخرون، والشك المتواصل، واختبار كل الصياغات الوصفية التى قمت بها، والتواضع امام الحقائق، والتلهف الشديد للاعتراف النفسى بالخطأ والبدء من جديد. وقد كنت آمل أن أكون جاداً دائماً فى إطاعة هذه القواعد، ولكنى اعترف الآن بأن ما أرى البشر يفعلونه، وما أفهمه من مايقومون به من أفعال تتم رؤيته دائما فى ضوء تقييمى الشخص له، فأنا أحب وأكره مثلما يحبون ويكرهون، وتلك هى فى الحقيقة الكيفية التى وصلت بها لفهمهم»[١].

ولقد ناقش نادل S.F.Nadel فى كتاب الانثربولوجيا والحياة الحديثة Anthropology & Modern Life (١٩٥٥) العلاقة بين الانثربولوجيا الاجتماعية واحكام القيمة، وقد انتهى أن تلك الأحكام لامفر منها فى عالم الخطاب الانثربولوجى، ولكنه نصح الانثربولوجيين بضرورة التجاوز عن الآراء النقدية للسياسات الفعلية ووضع الحلول لمشاكل الوجود، ولذلك رأى أن على

(1) Firth, R.; Human Types; op.cit. (Chapter 7).

الانثربولوجيين قصر جهودهم على دراسة مواقف اجتماعية محدده دون التورط فى تقديم تقييمات علاجية صريحة، عليهم أن يلمحوا فقط إلى المظاهر المرغوب فيها، ويوصو ن ببرامج الاصلاح ويتركون للآخرين حرية الاختيار[1].

أما ريموند فيرث R.Firth فقد كان له موقفا آخر، ففى تعليقه على نادل فى كتاب الأنماط البشرية Human Types (١٩٣٨) اشار إلى أن الانثربولوجيين الاجتماعيين يضللون أنفسهم إذا اعتقدوا أن بإمكانهم البقاء كمجرد ملاحظين غير منحازين للحياة الاجتماعية، وإذا تجنبوا تحمل المسئولية عن إصرار فى رسم السياسات الاجتماعية الفعلية. على اعتبار أن من واجب الانثربولوجى الاجتماعى أن يتحمل بدرجة ما مسئولية السياسة، وذلك لأنه إذا كان يقدم بالفعل معلومات واقعية Factual حول الحياة الاجتماعية، فاءن السياسة الادارية الفعلية لن ترى ماهو قابل للتطبيق من سياسات إلا فى ضوء تلك المعلومات الفعلية التى يقدمها ، وعلى هذا الأساس لم يكن من الممكن فى نظر «فيرث» أن يتخلى الانثربولوجيون عن مسئوليتهم الأكاديمية كعلماء لتنفيذ أبحاثهم الميدانية بطريقة انسانية، وتقديم نتائج أبحاثهم فى شكل واقعى بقدر الإمكان فى ضوء السياق الاجتماعى الذى يعملون فيه. فإذا كانت المعرفة الخاصة بالمجتمعات هى معرفة قابله للتطبيق فليترك الانثربولوجى الاجتماعى وحده يقوم بتطبيقها، وليقم بذلك ليس بوصفه رجلاً فنياً يخدم الأهداف التى رسمها الآخرين، وإنما بوصفه شخصا يدعى حق الحكم على كفاءة الأهداف المرسومة ذاتها. وهذا معناه أن على الأنثربولوجى الاجتماعى أن يوصى وأن ينصح، وأن ينتقد، وأن يبدى ارائه فى صوابات السياسات الموضوعة وأخطائها، فالسياسات الموضوعة ليست أمراً مقدساً، ولهذا يجب أن تخضع للنقد الجرىء، وهذا النقد هو من أخص مسئوليات الانثربولوجى الاجتماعى وحده، ولذلك على الانثربولوجى أن يقتحم مجتلد الصراع مع رجال السياسة ورجال

(1) Firth, R.; Human Types; op.cit.

الأعمال، ورجال الأخلاق؛ وهذا الرجل العملى ليس لديه شيئا يمكن أن يخجل أو يخاف منه فأسلحته قوية بما يكفى لأن يجلب له كل مظاهر الإحترام وهو جديرا به[١].

وفى الواقع تنظر الغالبية العظمى من الانثربولوجيين الاجتماعيين لنفسها على أنهم خبراء أو مستشارين، فمن هنا فهم ملتزمون بتشخيص الأوضاع فى علاقتها بالأهداف التى تسعى السياسات الحكومية لتحقيقها. ولذلك فإن على الانثربولوجى الاجتماعى أن يعبر دائما على رأيه، مايمكن أن يحدث، ما المعوقات التى تعوق تحقيق الرغبات المعلنه، وتحديد الأسباب، وذلك من أجل تعزيز الرفاهية القومية[٢].

وعلى أى حال ليس هناك حل تام لأية مشكلة اجتماعية، وليس للخبير الانثربولوجى حظ الطبيب؛ لأنه لو استشار أحد المرضى أحد الأطباء فإن بإمكان الطبيب أن يقدم له بعضا من صنوف الدواء المحتمل قهرها للميكروب المعدى. ولكن الخبير الانثربولوجى مفروضا عليه أن يخبر أقارب المريض أن قريبهم المريض لن يمكن انقاذ حياته إلا إذا قبلوا بتر ذراعه أو إحدى رجليه، أو أن يقنعهم بضرورة التضحية بأحد الأطراف، والإشارة إلى أن المكاسب غير اليقينية تتوازى دائما مع الخسائر المؤكدة. فالخبير الانثربولوجى يماثل فى الحقيقة الطبيب الذى يتم استدعائه لأحد المرضى بعد أن يكون المرض قد تقدم جدا عن أى علاج يمكن أن يقدمه. ولذلك ففى كثير من الأحوال يعجز الخبير الانثربولوجى عن تقديم العلاج، على سبيل المثال إذا اختل التكامل الاجتماعى من الصعب جدا أن ينجح الخبير الانثربولوجى فى تقديم النصائح الخاصة باعادة علاجه. وذلك لأن أعراض

(1) Firth, R.; Human Types; op.cit.

(2) Hogbin, H.I.; "Anthropology as Public Service and Malinowski's Contribution to it" in Man and Culture; ed.by R.Firth op.cit.(pp. 245 - 264).

الخلل الاجتماعي يجب الكشف عنها مبكراً والمساعدة فى علاجها فى المراحل الأولية لها[٢٢].

رابعاً: المنظور الانثربولوجى والممارسة المهنية:

مع بداية الستينيات ونتيجة لتزايد اندماج مدارس الخدمة الاجتماعية فى الجامعات بدأ العاملون فى مجال الخدمة الاجتماعية فى تجديد التصورات الخاصة بالممارسات المهنية الدارجة، ولقد ارتكزت هذه الجهود تقريبا على مايشبه النقد الشامل أو المراجعة الكاملة للأسس النظرية والمنهجية التى تقوم عليها مناهج التعليم الأكاديمى وبرامج التدريب المهنى فى الخدمة الاجتماعية، فى رحاب هذه الحركة النقدية اتخذت موضوعات مثل: «وحدة الدراسة الأكاديمية» والتخطيط الأمثل للمناهج الأكاديمية الملائمة للدراسين من ذوى الخلفيات الدراسية المختلفة أهمية استثنائية. وانسجاما مع هذا التوجه الجديد تغيرت بؤرة الإهتمام فى مناهج الخدمة الاجتماعية، ومال المهتمون إلى التخلى شيئا فشيئا عن المنظور الإصلاحى (أو منظور المشكلة الاجتماعية / الضرر) لصالح تبنى المنظور الوقائى الشامل الذى يهتم بفهم السياقات الاجتماعية التى تظهر فيها المشكلات الاجتماعية وإلى بلورة التصورات العريضة للأدوار المهنية من هذا المنظور، وهكذا اتجهت برامج التدريب المهنى إلى الإهتمام بالمشكلات الاجتماعية (مثل الجنوح، العوز ، الاعاقة، الأمرض النفسية والعقلية، التقاعد) من منظور البيئات الاجتماعية العريضة.

ولأن الجزء الأعظم من الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية – مقارنة بالمهن الأخرى – يأخذ شكل الاحتكاك المباشر مع العملاء فقد ركزت الجهود المبذوله لتطوير الخدمة الاجتماعية على نحو أخص على تنشئة الدارس على الممارسة المهنية[٢]، وهكذا اتجهت برامج التدريب نحو تطوير الممارسة المهنية على اعتبار أنها

(1) Firth, R.; Human Types; op.cit.

(2) [illegible]; "Social Work" op.cit.

تمثل استخدام الاخصائى الاجتماعى لذاته المهنية فى إقامة العلاقات المهنية مع العملاء سواء كانوا أشخاصا أو عائلات أو جماعات اجتماعية أو مجتمعات محلية، وهكذا ركز منهج تقصى السيرة Case work على اكساب الدارس لمهارات اجراء المقابلات Interviews ودراسة تواريخ الحياة Life Histories، وكيفيه اقامة العلاقات الحميمة Napport مع العملاء والمحافظة عليها، أما منهج خدمة الجماعة فقد اعتمد على اكساب الدارس المهارات الخاصة بالتفاعل الاجتماعى مع الجماعات وكيفية القيام بالاتصالات المباشرة معهم سواء كانت الجماعة عائلة أم إحدى دوائر الموظفين أو مجموعة من الأصدقاء... وهكذا، وقد أهتم منهج تنظيم المجتمع المحلى باكساب الدارس منظور السياق الاجتماعى بوصفه الكسوة الطبيعية للمشكلات الاجتماعية، هذا بالإضافة إلى إكساب الدارس قواعد الادارة فى الخدمة الاجتماعية وكيفية إجراء البحوث العلمية فى هذا الميدان.

لقد كان أهم مايميز هذا التوجه الجديد للخدمة الاجتماعية هو النظر إلى المشكلات الاجتماعية على أنها مشكلات مبنية اجتماعيا، وانها نسبية أى تختلف من بيئة اجتماعية إلى أخرى، والإهتمام بتعليم الدراسين كيفية التفكير فى المشكلات الاجتماعية من هذا المنظور، ولم يكن هذا الطور الجديد للخدمة الاجتماعية على أى حال بعيدا عن مواد العلوم الإنسانية والإجتماعية، على الأخص تلك الموا دالتى لم تتبنى المنظور الوضعى الإصلاحى (أو منظور المشكلة الاجتماعية / الضرر) عند بحثها للمشكلات الاجتماعية، حيث لم يكن من الممكن فى ضوء هذا التوجه الجديد للخدمة الاجتماعية نسب المشكلات الاجتماعية إلى العوالم الخاصة أو العوالم الشخصية للعملاء، على اعتبار أن السياق الاجتماعى الكلى الذى تظهر فيه تلك المشكلات هو المكان الملائم لفهم الممارسات النوعية المتناقضة للسلوك الإنسانى. فلكى يعالج الاخصائى الاجتماعى الآثار المترتبة على احدى المشكلات الاجتماعية، ولتكن الاغتصاب مثلا، فإنه

لايكفى «ترميم» العالم الخاص أو الشخصى للنساء المغتصبات فقط، وإنما يجب معالجة البيئة الاجتماعية ككل، وهذا يتضمن حياة الرجال نظريتهم إلى المرأة، أسس الحياة الزوجية والعائلية موقفهم من الأطفال، التشريعات القانونية، برامج الرفاهية الاجتماعية... وهكذا حتى يمكنه الوقوف على الكيفية التى يصيغ بها السياق الاجتماعى الكلى هذه المشكلة، وذلك كخطوة تمهيدية لقهر كل العمليات الاجتماعية الفعلية أو الفعالة التى تؤدى لظهورها.

لقد تعلم العاملون فى ميدان الخدمة الاجتماعية فى الوقت الحالى كيفية النظر للمشكلات الاجتماعية بوصفها مشكلات مبنية اجتماعياً، وتبنى الكثيرون منهم منظور السياق الاجتماعى بوصفه المنظور الأمثل لرؤية تلك المشكلات، ولقد ناقش الكثيرون منهم مفهومات هذا المنظور ومناهجه، ولكن الواضح أنه لم يكن هناك منظور وحيدا للسياق الاجتماعى. ولهذا فقد تعددت مداخل السياق الاجتماعى فى فهم المشكلات الاجتماعية. وعلى أى حال سوف نكتفى فى هذا المقام بعرض مدخل التفاعلية الرمزية Symbolic Interaction ومدخل الاثنوميثودولوجيا Ethnomethodology للوقوف على كيفية فهم إحدى المشكلات الاجتماعية وهى بالتحديد مشكلة الجريمة والإنحراف.

(١) مدخل التفاعلية الرمزية:

وفقا لما ذهب إليه بلومر H.Blumer يستند هذا المدخل إلى ثلاثة مسلمات أساسية[١]:

١ - أن الكائنات الإنسانية تتعامل مع الأشياء والموضوعات وفقا للمعانى التى تمثلها بالنسبة لهم.

(٢) أن معانى الأشياء والموضوعات هى نتاج للتفاعل الاجتماعى الذى يدخل فيه المرء مع أقرانه.

(1) Hester; A Sociology of Crime; op. cit.

٣- أن معانى الأشياء والموضوعات قد تكيفت بفعل عمليات التأويل المتواصلة التى يقوم بها المرء أثناء تعامله معها.

وطالما أن مشكلة الجريمة والإنحراف هى المشكلة المعنية فى هذا السياق، فإن المسلمة الأولى لمدخل التفاعلية الرمزية تستلزم النظر إلى الفعل القائم سواء كان فعلاً إجراميا أو منحرفا أو لم يكن على أية يعتمد على المعانى التى تم نسبتها إليه. وذلك لأن الأفعال الإنسانية ليست أفعالاً إجرامية بذاتها وإنما يعتمد إجرامها أو عدم إجرامها على المعانى التى أضيفت إليها. وعلى هذا الأساس فإن الجريمة أو الإنحراف هى مسألة خاصة بالتعريف الإجتماعى البحت.

أما المسلمة الثانية التى يستند إليها هذا المدخل فهى تعنى أن المعانى الممنوحة للأفعال الإنسانية سواء كانت أفعالا إجرامية أم لم تكن لاتنشأ إلا بفعل التفاعل الاجتماعى القائم، أو لاتنشأ إلا بفعل العلاقات الاجتماعية القائمة بين الأشخاص سواء كان هذا التفاعل الاجتماعى قد قام بين المرء والآخرين أو بينه وبين نفسه. وعلى هذا الأساس قد يؤول الأشخاص فى مختلف سياقات التفاعل الاجتماعى سلوك بعضهم بعضا على أنه سلوكا إجراميا وفى الوقت نفسه قد يسلم المرء بينه وبين نفسه بوجهة نظر الآخرين فى سلوكه الشخصى بوصفه سلوكا إجراميا.

وتعنى المسلمة الثالثة أن مايُمنح دائما للفعل من معنى نوعى خاص إنما يعتمد كلية على كيفية تأويل المشاركين فى هذا الفعل له. وهذا معناه من وجهة نظر هذا المدخل أن كيفية تأويل الفعل بوصفه فعلاً إجراميا أم لا إنما يعتمد بالأساس على كيفية تحديد المشاركين فى الفعل ذاته السياق التفاعل الاجتماعى.

وعلى هذا الأساس يركز مدخل التفاعلية الرمزية كا أعلن كيتسوس Kitsuse وشيكوريل Cicourel على ثلاثة قضايا هى[1]:

---

(1) Hester; A Sociology of Crime; op. cit.

١- كيف يمكن تعريف أشكال من السلوك الإنسانى بوصفها أشكالا منحرفه فى سياق بعض الجماعات أو التنظيمات الاجتماعية، أى كيف يمكن تجريم بعض أشكال السلوك من منظور التشريع القانونى.

٢- كيف يعمل المجرمون أو المنحرفون بشكل منظم لإنتاج السلوك المنحرف بين مختلف قطاعات السكان، وكيف يقعون تحت طائلة القانون.

٣- كيف تتولد الأفعال الإجرامية بفعل الشروط الاجتماعية مثل العائلة، وتعارضات الأدوار والضغوط الموقفية، وكيف يتم وصف بعض الأشخاص بأنهم مجرمون.

لقد قدم علماء مدرسة شيكاغو دراسات اثنوجرافية عديدة للجريمة والانحراف، ولكن فعلى الرغم من التأن والإخلاص الذى اتصفت به هذه الدراسات، فإنها لم تقدم أية مناقشات حول الكيفية التى تم بها تحديد أشكال الجرائم والانحراف، وقد تعرضت هذه الدراسات للنقد اللازع من «بلومر» وذلك لاعتمداها على الميثودلوجيا الوضعية التقليدية ومنظور المشكلة الاجتماعية/ الضرر، فلم تركز هذه الدراسات على السياق الاجتماعى للإدانة والإنحراف وإنما ركزت على المجرمين أو المنحرفين أنفسهم[١] وذلك على الخلاف من مدخل التفاعلية الرمزية الذى يهتم بالتنقيب عن القرائن السياقية الضرورية، وهو المظهر الذى يميز هذا المدخل عن مدخل الاثنوميثودولوجيا وهو المدخل الذى ستنتقل إلى عرضه الآن.

(٢) مدخل الاثنوميثودولوجيا:

مع الأخذ فى الإعتبار مشكلة الجريمة والإنحراف فإن مدخل الاثنوميودولوجيا مثله فى ذلك مثل مدخل التفاعلية الرمزية يعالج الجريمة والانحراف بوصفها

(1) Hester; A Sociology of Crime; op. cit.

مسألة خاصة بالتعريف الاجتماعى البحث، أو بوصفها مسألة خاصة بكيفية صناعة «الأعضاء Members» بوصفهم يمثلون السياق الاجتماعى للفعل للأفعال الاجتماعية وتمييزها، ومع ذلك فعلى خلاف من مدخل التفاعلية الرمزية يهتم مدخل الاثنوميثودولوجيا بالنتاج الكائن من التعريفات الاجتماعية القابلة للملاحظة للأفعال، وليس بالتعريفات المفترضة فى بنية السياقات الاجتماعية.

ووفقا لجار فينكل Garfinkel (١٩٦٧) يقوم مدخل الاثنوميثودولوجيا على المبادىء التالية[١]:

١- مبدأ تصميم المتلقى، فالأفعال لم تصمم إلا من أجل متلقيها، وعلى ذلك فأى فعل ليس سوى وسيلة انتاجة.

٢- مبدأ إنتاج الفعل وتمييزه، على إعتبار أن الحقائق الاجتماعية هى منجزات تفاعلية، وحين يرى الآخرون حقائق الحياة، فإن مدخل الاثنوميثودولوجيا يرى «عملية»، وهى العملية التى من خلالها يتم تخليق المظاهر الثابتة الواعية من البيئات الاجتماعية المنظمة والمحافظة عليها.

٣- مبدأ التمييز بين الموضوع والمصدر، حيث لايهتم مدخل الاثنوميثودولوجيا بالتعريفات الاجتماعية للظواهر بغاية تفسيرها، ولايهتم بكيفية استخدام «معانى» الأعضاء بوصفها مصادر للتفسير، وإنما يهتم هذا المدخل بالبحث عن ماتكيف معه المشاركون فى الفعل فى أوساط معينة، وكيف تتدخل تلك المظاهر التكيفية أو كيف تمت صياغتها فى أفعالهم وتفسيراتهم، وبهذا تصبح «معانى» الأعضاء هى موضوع البحث وليس مصادر الرسم التفصيلى للإحالة الاجتماعية.

---

(1) Garfinkel, H.; Studies in Ethnomethodology ; Prentic - Hall, Inc. Englewood Cliffs New Jersey 1961 (chapter 1).

٤- مبدأ التصور النوعى للفاعل الاجتماعى، فعلى النقيض من المدخل السوسيولوجى الوضعى التقليدى الذى ينظر للفاعل بوصفه الشخص الذى أدمج نفسه فى ثقافته بوصفها مجموعة من القواعد التى تفرض أنماط السلوك المعيارى، والذى تصبح أفعاله نتيجة لهذا التصور أفعالا محكومه بالقانون Rule Governed - يرى مدخل الاثنوميثودولوجيا الفاعل الاجتماعى بوصفه «معجونا» ثقافيا غير مبرمج اجتماعيا. وأنه مخلوقاً موجها للقواعد داخل سياق الفعل، وأنه مخلوقا قد يقوم بتصميم أفعال محدده لكى تنسجم من القواعد.

ووفقا لهذه المبادىء فإن مدخل الاثنوميثودولوجيا فى تناوله للجريمة والانحراف يهتم بـ:

١- تحديد المناهج أو الكيفيات التى يتم عن طريقها انتاج الأفعال القانونية النوعية وتمييزها، مثل سن القوانين عقد جلسات المحاكم توجيه الاتهامات الرسمية، وسائل الدفاع أمام الجهات القضائية، وسائل التفتيش، كيفية صدور الأحكام، كيفية الحكم بعقوبة واستئناف الدعوى.

٢- تحديد المناهج التى يتم بواسطتها تنظيم المواقف القانونية، مثل استدعاء رجال الشرطة للأشخاص، الاستجوابات البوليسية، تعقب الجناه.

٣- تحديد المناهج التى يتم بها انجاز التطابقات القانونية مثل - ممارسة المحاماة، توكيل المحامين، المراقبة البوليسيه... وهكذا.

الفصل الخامس

نحو فهم الآثار الإجتماعية للتقاعد

من منظور الأنثربولوجيا الإجتماعية

مقدمة :

١ - كبار السن فى المجتمعات البدائية.

٢ - المسنين فى المجتمعات الريفية.

٣ - التقاعد والمجتمع الحديث.

٤ - الآثار الإجتماعية للتقاعد (العزلة والتفرد).

٥ - الآثار الإجتماعية للتقاعد (إنخفاض الروح المعنوية).

٦ - الحاجة للعمل الجديد.

مقدمة:

يعتبر التقاعد عن العمل من حيث هو نظام إجتماعى له قواعده المحددة ظاهرة إجتماعية حديثة، وفى الواقع لم تظهر ظاهرة التقاعد Retirement بوصفها مشكلة إجتماعية إلى حيز الوجود إلا بعد مجىء الثورة الصناعية وما صاحبها من تغيرات عميقة فى أنماط العلاقات الإجتماعية التى كانت سائدة من قبل، فقبيل مجىء الثورة الصناعية التى بدأت بوادرها الأولى فى آواخر القرن الثامن عشر ووضحت معالمها فى القرن العشرين كان النمط العام السائد للحياة الإجتماعية فى المجتمعات الغربية هو ذات النمط الريفى الزراعى الذى لا يزال يسود فى كثير من المجتمعات التقليدية فى كثير من مناطق الكرة الأرضية، والتى كانت الروابط الإجتماعية العائلية والقرابية لا تزال تلعب فيها الدور الرئيسى، وعلى الأخص الإلتزام بمساعدة المتقدمين فى العمر.

ولقد تغير ذلك كله تغيراً جذرياً بدخول التصنيع، وظهور المراكز الصناعية التى كانت ولا تزال تعد بمثابة مراكز جذب قوية للأيدى العاملة، نظراً لما تتيحه أو توفره هذه المراكز الصناعية من فرص جديدة للعمل والكسب لا تتوفر فى العادة فى المجتمعات الريفية الزراعية، فكأن التغير الذى أصاب أساليب الإنتاج الإقتصادى فى أواخر القرن الثامن عشر وما صاحبه من تطورات سريعة متلاحقة فى المجال العلمى والتكنولوجى وما ترتب عليه من تغيرات جوهرية فى البناء الإجتماعى والعلاقات الإنسانية هو الذى أدى إلى ظهور ظاهرة التقاعد والنظر إليها بوصفها مشكلة إجتماعية [١] .

---

(١) أحمد أبو زيد ؛ « الشيخوخة فى المجتمع الإنسانى المتغير » ؛ مجلة عالم الفكر ؛ العدد الثالث، المجلد السابع؛ وزارة الاعلام ، الكويت (صفحات ١٩١ – ٢١٢).

إن الإلتزام بمساعدة المتقاعدين عن العمل من المتقدمين فى العمر أو من غيرهم فى المجتمعات التقليدية الزراعية والذى ارتبط بوجود العائلة الممتدة، وبقوة الروابط القرابية فى تلك المجتمعات لم يلبث أن طرأ عليه الكثير من الضعف والإضمحلال، وذلك نتيجة تحول المجتمع التقليدى القائم على الحياة الزراعية إلى المجتمع الصناعى القائم على التنظيم الإجتماعى المعقد، ولقد أدى ذلك إلى ظهور أنماط جديدة من العلاقات الإجتماعية والقيم الأخلاقية لم تكن معروفة من قبل. فقد ترتب على الحراك السكانى من أجل الإلتحاق بالمصانع الكثير من التغيرات الإجتماعية المهمة التى تتمثل فى إنفصال الأفراد عن عائلاتهم الكبيرة الممتدة وعن شبكة علاقاتهم الإجتماعية فى مجتمعاتهم المحلية وتكوين عائلات نووية منعزلة فى مناطق العمل. وبعد أن كان أفراد العائلة الممتدة يعملون معاً فى نفس موطن الإقامة الأصلى، تبعثر أفراد العائلة الواحدة للعمل فى مهن مختلفة وفى أماكن متفرقة، وبعد أن كانت وحدة العمل والنشاط الإقتصادى تجمع بين كل أفراد العائلة الواحدة، أقيمت المصانع الكبيرة فى أماكن بعيدة عن محل إقامتهم، وكذلك أدى ظهور التخصص الدقيق فى مجال العمل بالمصانع إلى تباعد أفراد العائلة الوحدة فى عمليات الإنتاج الإقتصادى بعد أن كانت وحدة الإنتاج هى الوحدة القرابية أو العائلية [1].

لقد كانت النتيجة الحتمية لذلك كله أن أصبح المتقدمين فى العمر من المتقاعدين يمثلون عبئاً ثقيلاً على العائلة النووية الناشئة، فلم تعد العائلة النووية بحكم تكوينها وبحكم الظروف التى تعيش فيها إلى جانب عمل الزوجة غالباً

---

(1) Beth, B. Heas & Elizabeth W. Markson; An Introduction to Social Gerantology : Aging & old age; Macmillan Publishing Co. Inc., N. Y. : 1968, pp. 11 - 12.

تستطيع إعالة هؤلاء المتقاعدين من المسنين أو العناية بهم، فلم يعد هؤلاء يمثلون جزءاً من تكوين تلك العائلة، نظراً لأن الإبن ينفصل عن عائلته بمجرد أن يتزوج ذلك إن لم ينفصل عنها قبل ذلك ويرحل من أجل العمل فى إحدى المصانع البعيدة هذا إلى جانب أن الوحدة الإنتاجية فى عصر التصنيع لم تعد تقوم على أساس روابط الدم والقرابة وإنما أصبحت تقوم على أساس المصلحة. وعلى هذا الأساس فإن الرجال الذين يعملون فى أية صناعة أو أية وحدة إنتاجية لم يعد يربط بينهم إلا مصالح العمل، وفى الوقت نفسه نجد أن صاحب العمل لا يحتفظ بالعمال إلا إذا كانوا على درجة عالية من المهارة والكفاءة وإلا استغنى عنهم بحجة عدم قدرتهم على تحقيق المستويات المطلوبة للإنتاج. والغالب أن يستغنى أصحاب الأعمال عن العاملين حين يصلون إلى سن معين يفقدهم جزءاً كبيراً من قدراتهم البدنية ومهاراتهم المهنية أو التركيز فى العمل. وتلك بطبيعة الحال أمور لم تكن مألوفة فى المجتمعات التقليدية.

١ - كبار السن فى المجتمعات البدائية :

تختلف نظرة أعضاء المجتمعات البدائية إلى التقدم فى العمر إختلافاً كبيراً عن نظرة أعضاء المجتمعات الصناعية الحديثة، والسبب فى ذلك هو الظروف أو الأحوال البيئية العامة التى كانت تعيش فيها المجتمعات البدائية والتى لم تكن تسمح بنسبة ضئيلة من الأعضاء بأن تعيش حتى مراحل متقدمة فى العمر. هذا بالإضافة إلى إنعدام العناية الطبية وتفشى الأمراض والأوبئة والمجاعات التى كانت تقضى فى الغالب على نسبة كبيرة من السكان فى مرحلتى الطفولة والشباب. ولذلك كان عدد المسنين الذين يحتاجون إلى الرعاية الإجتماعية قليل ولا يمثل عبئاً على العائلة أو الوحدة القرابية إلا فى الحالات التى يتعرض فيها المجتمع إلى المجاعات. ولذلك فإن التقدم فى العمر من حيث هو مشكلة إجتماعية تحتاج إلى حل

ليست قائمة فى المجتمع البدائى بالمعنى نفسه الذى نجده فى المجتمع الصناعى الحديث الذى تؤلف فيه هذه المشكلة إحدى المشكلات الإجتماعية الضخمة التى تحتاج إلى تكاتف الجهود وتكوين المؤسسات التى تتولى أمرهم والعناية بهم أو وضع القوانين التى تنظم حياتهم.

لقد ساعد التكافل الإجتماعى القائم على الروابط القرابية والعائلية فى المجتمعات البدائية، والذى يقضى بإلزام جميع أفراد الوحدة العائلية والقرابية العناية والاهتمام بأمر المتقدمين فى السن فى حل تلك المشكلة فى هذه المجتمعات، ومما خفف من وطأة تلك المشكلة فى هذه المجتمعات، أن استقرار البناء الإجتماعى كان يرتكز على التباين القائم بين الأعضاء واختلافهم فى السن، فالسن فى المجتمعات البدائية هو مفتاح البناء الإجتماعى وأهم وسائل التمييز بين الأفراد بما فيها من صلات القرابة القائمة بينهم (٣). فالشعوب البدائية لا تنظر إلى التقدم فى العمر بوصفه عبئا ثقيلاً، وانما تنظر إليه بوصفه إنجازاً متميزاً يجلب على صاحبه الكثير من التبجيل والإحترام. فمع تقدم العمر تزداد العقول حكمة ورصانة وتهدأ العواطف وتثقل حركة الأبدان، وبذلك يستطيع المجتمع كله الإفادة من تلك الرؤوس الحكيمة المدبرة. فمن هنا كان تصريف الأمور فى المجتمعات البدائية يلقى عادة على عاتق المتقدمين فى السن (٤).

ولذلك نجد أن المجتمعات البدائية الإسترالية الأصلية لا تعرف نظام الرئاسة أو الملك ومع ذلك فإن تركيبها السياسى الأوليجاركى Oligarch (وتعنى حكم القلة) يقوم على التسليم بسلطة كبار السن من أعضاء القبيلة الذين يجتمعون عن

---

(١) أحمد أبو زيد ؛ المرجع السابق.

(٢) وليام هاولز؛ ماوراء التاريخ، ترجمة وتقديم أحمد أبو زيد؛ دار نهضة مصر للطبع والنشر؛ القاهرة، ١٩٦٥، ص ٣٠٧.

هيئة مجلس له وحدة سلطة إتخاذ القرارات دون الرجوع إلى بقية أعضاء القبيلة من الرجال الأصغر سناً. وهذا المجلس يقابل مجلس الشيوخ فى الأزمنة الحديثة، ويطلق على هذا الشكل من الحكومة أسم حكومة الشيوخ Gerantacracy، حيث يجتمع شيوخ أهالى استراليا الأصليين على هذا النحو للنظر فى أمور القبيلة، وهم يمثلون فى الغالب رؤساء العشائر الطوطمية التى تنقسم إليها القبيلة ويضطلع رؤساء العشائر من كبار السن كذلك بأعباء ومهام إقامة الطقوس السحرية التى تهدف إلى إكثار أفراد الطوطم الذى يتبعونه، أو إلى ضمان عمليات إنتاج الطعام وتوفيره لأفراد عشائرهم وإن كان يضطلع غيرهم من أفراد عشائرهم بمهمة صنع المطر كما تقضى الأوضاع الثقافية هناك [١].

وهذا معناه أن كبار السن الإستراليين الأصليين يقومون فى العادة بدور السحرة العموميين وبأداء الواجبات المقدسة مثل الإشراف على «المخزن المقدس» (وهى مغارة فى الصخر أو حفرة فى الأرض تحفظ فيها الأحجار والعصى المقدسة التى يفترض أن أوراح الناس أحياءً كانوا أم موتى ترتبط بها إرتباطاً حميماً، هذا إلى جانب الواجبات المدنية مثل تصريف شئون الحياة الإجتماعية إلى حد توقيع العقوبات على كل من يخرق التقاليد أو العادات القبلية[٢]، بحيث نجد أن المجتمع البدائى لا يشعر فى العادة بأنه يتحمل نحو كبار السن مسئوليات ثقيلة أو أنهم يشكلون بالنسبة إليه عبئاً ثقيلاً يصعب حمله، ما دامو يقومون بأداء أدوارهم ويؤدون للمجتمع تلك الوظائف الحيوية التى لا يستطيع غيرهم وحدهم القيام بها.

(1) Lewis. J.; Anthropology made simple. B. S. C., Ph. D., 1969

(2) Lewis. J.: op. cit.

ويؤكد من إرتفاع المكانة التى يحتلها كبار السن أو العجائز فى المجتمع البدائى أن السحر البدائى يتمتع بدرجة عالية من الشيوع والبقاء والاستمرار، فالسحر فى المجتمع البدائى سحر شعبى أو عام، بمعنى أنه لا يمارس من أجل تحقيق غايات خاصة بل من أجل المصلحة العامة [١]. ولقد ترتب على ذلك ظهور وظيفة الساحر المطبب الذى يلجأ إليه الناس فى وقت الأزمات ليكشف عن علة إنتشار الأوبئة أو حدوث الجدب أو القبض على المجرمين. فالسحر فى المجتمع البدائى ليس شراً، وإنما يستخدمه البدائيون كوسيلة مضمونة للتغلب على مشكلات الحياة التى لا مناص من مجابهتها والتغلب عليها [٢].

ولقد قدم لنا الكثيرون من علماء الأنثربولوجيا كثيراً من الأمثلة المأخوذة من المجتمعات البدائية حول المكانة التى يحتلها السحرة العجائز فى هذه المجتمعات، فقد ذكر لنا مالينوفسكى B. Malinowski على سبيل المثال الدور الذى يقوم به السحر فى الحياة الإجتماعية العامة لسكان جزر التروبرياند Trobriand فى غينيا الجديدة. ومن وصفه يتضح لنا أن أداء الكلمات التمويهية، أو الطقوس السحرية التى يقوم بها العجائز عادة هى الشئ الأساسى الذى يعتقد الأهالى فيه لنجاح مختلف مظاهر الحياة الإقتصادية، سواء فى مجال زراعة اليام Yam (والذى يعد الغذاء الرئيسى لسكان تلك الجزر) أو فى مجال صيد الأسماك، أو البعثات التجارية التى تتم بين تلك الجزر، فكأن تلاوة التعاويز ونطق الكلمات السحرية يمثل بالنسبة للأهالى هناك مصدر العون الأساسى الذى يستعينون به قبل الإقدام على ممارسة تلك النشاطات. ومن وصفه للدور الذى يقوم به السحر فى حياة

---

(١) وليام هارلز؛ ماوراء التاريخ؛ مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٤.

(2) Frazer, Sir J., "Preface" to : Argonauts of the Western Pacific; B. Malinowski; Routledge & Kegan Paul, London, (1922).

هؤلاء نعلم أن السحرة العجائز هم أهم الأشخاص فى تلك الجزر بحيث تأتى مكانتهم فى المرتبة التالية للمكانة التى يحتلها الزعماء المحليون أنفسهم [١].

والاعتقاد فى العناصر الغيبية والقوى السحرية للسحرة المحليين أمر شائع لدى كثير من أعضاء المجتمعات البدائية فى العالم أجمع، ويمارس العجائز أو كبار السن فى هذه المجتمعات عادة الطقوس السحرية التى تستهدف الإصلاح. فإذا نظرنا إلى الدنكا Dinka وهم مجموعة من القبائل التى تقطن أعالى النيل فى أفريقيا، سنجد أن الواجب الرئيسى للملوك ينحصر فى ممارسة السلطات الدنيوية، فالملك هناك أو رئيس القبيلة هو القاضى الفاصل فى الخصومات والمنازعات، وله الكلمة الأولى والأخيرة، وإليه ترجع سلامة القبيلة، وعلى الرغم من ذلك ونظر للمكانة الكبيرة التى يحتلها كبار السن والعجائز فى تلك القبائل فإن هؤلاء الزعماء لايعبرون فى الواقع عن آرائهم أو أحكامهم الشخصية المستقلة، وإنما يعبرون دائماً عن رأى كبار السن. فى قبائل « الدنكا » تعتبر الزعامة السياسية زعامة مقدسة ولها صفة إلاهية، وعلى الرغم من ذلك فإن الزعيم هناك لايعمل بمفرده وإنما من خلال مجلس يضم جميع العجائز وكبار السن، فهؤلاء هم الذين يتولون فى العادة الفصل فى القضايا، من خلال المناقشات، ولهم قيمتهم فيما يقومون به من مشاورات لحل النزاعات أو ما ينتهون إليه من قرارات تخرج إلى حيز التنفيذ بما فى ذلك قرار إبقاء الزعيم نفسه على رأس القبيلة أو عزله [٢]. وعلى الرغم من أن الزعيم يجمع بين السلطة الدنيوية والدينية معاً كما تقضى التقاليد الثقافية فإنه لايستطيع أداء مهامه إلا بالإستعانة بكبار السن والعجائز لتقديم

---

(1) Malinowski, B.; Argonauts of the Western Pacific; op. cit., (The Introducton).

(٢) وليام هاولز؛ ماوراء التاريخ؛ مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٦.

العون إذا لزم الأمر، يظهر ذلك بالذات فى أوقات الجدب حين يقوم كبار السن بتقديم القرابين من أجل الإستسقاء أو سقوط المطر، وللعجائز أيضاً مهمة أخرى تنحصر فى التطبيب والقيام بطقوس الأمراض وإبعاد الأرواح الشريرة، وعلى هذا الأساس احتل العجائز المطببين مكانة كبيرة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى قبائل الدنكا.

أما بين قبائل النوير Nuer فيحتل كبار السن والعجائز (من الكهنة والمختصون بالسحر الطبى ومعالجة الإصابة بالعين الشريرة) مكانة محترمة، فأهالى النوير ينظرون إلى الكهنة المتنبئين نظرة مقدسة. حيث يعتبرونهم أبناءً لآلهة السماء، ولذلك يخافهم أهالى النوير ويحترمونهم ويخضعون لأوامرهم. ويلعب الكهنة المتنبئون هناك دوراً أشبه مايكون بدور الأنبياء. وقد قام هؤلاء الكهنة المتنبئون بدور سياسى بارز حين تمركزت فى أيديهم وحدة القبائل النويرية وتضامنها بوصفهم شعب متميز عن الشعوب الأخرى، وقد مارس هؤلاء الكهنة المتنبئون سلطاتهم الشعائرية فى حروب قبائل النوير ضد قبائل الدنكا وغالباً لم تكن تبدأ الحروب إلا بإذنهم [1].

وهناك ما يعرفون باسم رجال الماشية وهم المختصون بعلاج الأبقار وإخصاب العقيم منها، ولذلك يحذرهم أهالى النوير لأن لعناتهم تصيب ماشيتهم مباشرة، أما رجال الطوطم Totem فهم العجائز المختصون بإقامة الشعائر للطوطم المحلى (كالأسد والتمساح والطيور) حيث يعتقد أهالى النوير أن روح الطوطم الذى تنتمى إليه عشيرتهم تحل بهم، أما السحرة المطببون فهم مختصون بمعالجة من

---

(١) أحمد أبو زيد : «نظام طبقات العمر : دراسة فى الأنثربولوجيا المقارنة»؛ مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية؛ المجلد ١٣ - ١٩٥٩ (صفحات ١٧١ - ٢١١)

يتعرضون للإصابة بالعين الشريرة منهم، ويخشاهم الأهالى لقوتهم السحرية والشعائرية، أما العجائز الذين يقوم كل منهم بأداء الصلوات الشعائرية الخاصة بالإستسقاء فى أوقات الجدب فإنهم يعدون من أهم الشخصيات تأثيراً فى الحياة الاقتصادية، والمهم أن هذه الأدوار التى يقوم بها كبار السن والعجائز فى تلك القبائل هى أدوار وقفاً عليهم وحدهم، فليس من المفروض أن يقوم بعلاج الأبقار أو إخصابها أو بإقامة الشعائر الطوطمية، أو بعلاج الإصابة بالعين الشريرة، أو بأداء الصلوات والأدعية وكل ما يرتبط بكل هذا من فنون وحيل سحرية إلا من يكون قد بلغ من العمر قدراً معيناً، وهذا كفيل لإظهار مدى الإحترام والتوقير والتبجيل الذى يكنه أعضاء هذه القبائل لهم.

سبق أن ذكرنا أن « السن » هو العامل الرئيس فى فهم البناء الاجتماعى للمجتمعات البدائية، ويتضح ذلك بشكل خاص فى المجتمعات البدائية التى يقوم تنظيمها الاجتماعى على مايعرف باسم نظام طبقات العمر [١]، حيث يقوم نظام التفاضل الاجتماعى بترتيب أعضاء المجتمع وبخاصة الذكور منهم على أساس العمر وحيث يتوزع الأعضاء بمقتضاه فى جماعات طبقية تعلو إحداها الأخرى، بحيث تقف كل طبقة منها موقفاً معيناً من بقية الطبقات التى تعلوها أو تأتى دونها داخل نسق التفاضل الاجتماعى القائم. ويظل الشخص مقيداً بمقتضى ذلك النظام فى تلك الطبقة طيلة حياته، وتتخذ الطبقة ككل فى العادة اسماً معيناً ويشغل جميع أعضائها المركز الاجتماعى ذاته، ويتخذ جميع أعضاء الطبقة الموقف ذاته إزاء غيرهم ممن ينتسبون إلى طبقات العمر الأخرى، وهكذا يتيح هذا النظام لكل فرد من أفراد المجتمع المشاركة فى الحياة الاجتماعية، وعلى الرغم من

(١) أحمد أبو زيد؛ المرجع السابق.

إختلاف عدد الطبقات التى تميز هذا النظام من مجتمع لآخر إلا أنها تتمحور فى الغالب حول ثلاث مراتب أساسية، وهى مرتبة البطولة ومرتبة الرجولة الكاملة ومرتبة العجائز أو الشيوخ، ولكل مرتبة منها وظائفها الخاصة. فالبطولة ترتبط بالإغارات والحروب وترتبط الرجولة الكاملة بالإشتغال بأمور الحياة المدنية ويشكل أعضاؤها مع الشيوخ المجالس الإقليمية التى تنظر فى المنازعات الداخلية وإنهائها، أما مرتبة الشيوخ فهى ترتبط بشكل أخص بالنواحى الدينية حيث يضطلع الشيوخ عادة بأمور الدين وأداء الشعائر والطقوس بوصفهم أكبر أعضاء المجتمع الأحياء سناً وأقربهم بذلك إلى العالم الآخر وأدناهم بالتالى إلى الآلهة المحليين. وإن كان ذلك لايمنع بطبيعة الحال أن يلجأ الناس إليهم فى الملمات والأزمات، ويقبلون آراءهم ومشورتهم ويخضعون لحكمهم. ولذلك يقوم الشيوخ فى المجتمعات التى يقوم تنظيمها الاجتماعى على نظام طبقات العمر بوظيفة أساسية تنحصر فى حفظ التوازن الاجتماعى وتوطيد الضبط الاجتماعى وإقرار الأمن عن طريق الأعراف التى تتواجد فى المجتمع. وعلى هذا الأساس يتغلغلون فى شتى نواحى الحياة الاجتماعية لتلك المجتمعات.

٢ - المسنين فى المجتمعات الريفية :

هذه الملامح الخاصة بالوضع الاجتماعى أو المكانة الاجتماعية المرتفعة لكبار السن والعجائز فى المجتمعات البدائية يمكن أن نجد مثيلاً لها فى المجتمعات الريفية فى البلدان المتقدمة، فقبل ظهور الثورة الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر فى أوربا وتغير ملامح العلاقات الاجتماعية والوضع الاجتماعى للمسنين كانت القرية القائمة على الإنتاج الزراعى هى النموذج السائد للإستيطان البشرى، وكانت العلاقات الاجتماعية القروية تتمحور فى الغالب حول العائلة والروابط القرابية، وقد

كان المسنين القرويون يقومون بأدوارهم فى حدود إنتماءاتهم العائلية والقرابية حيث كان يسود نمط العائلة الممتدة Extended family التى يجد الفرد فيها بصرف النظر عن عمره البيولوجى الطمأنينة والأمان والإعتراف بالكيان الذاتى، وكان المسنين من أعضاء الجماعة القرابية يقومون بوظيفة اجتماعية حيوية تتمثل فى أبسط صورها فى تقديم النصح والإرشاد وخبراتهم فى الحياة لمن هم دونهم فى السن (١).

لقد كانت العائلة الممتدة فى ذلك الحين هى التى تلعب الدور الرئيسى فى إبراز دور المسنين ومكانتهم فى الحياة الاجتماعية. حيث كانت ترتكز أساساً على مبدأ إستمرار الأجيال المنحدرة من صلب رجل واحد والمعيشة معاً، بحيث كانت تؤلف وحدة اجتماعية واقتصادية متعاونة، فلم يكن الرجل ينفصل عن بيت عائلته حين يكبر أو حين يتزوج، وإنما كان يظل محتفظاً بعضويته فيها وإنتمائه إليها. ولم تكن الزوجة تتزوج فتنتمى إلى رجل واحد، وإنما كانت تتزوج - كما يقولون - عائلة الزوج وتنتمى إليها، وبذلك كانت العائلة الممتدة تضم أعضاء ينتمون على أقل تقدير إلى ثلاثة أجيال وقد تصل إلى أربعة أو خمسة أجيال، وقد كان هؤلاء الأجيال يتعاونون معاً فى تصريف مختلف أمور الحياة الاجتماعية والاقتصادية اليومية، وكان يقوم بين كل هذه الأجيال داخل العائلة الممتدة الواحدة نوعاً من التكافل الاجتماعى الذى ينبع من شعور كل فرد فيها بصرف النظر عن الأجيال التى ينتمون إليها بالإنتماء إلى عائلة واحدة وتحمل مسئوليته نحوها. وقد كانت العائلة الممتدة حينذاك تستمد كيانها من المسنين فيها الذين كانوا بدورهم يشرفون على كل شئونها ويتحكمون فى تصرفات جميع أفرادها ممن

(1) Geertz, C.; " Village " in Intern. ency. of Soc. Scis; Vol. 18.

هم أصغر سناً، وعلى هذا الأساس كان المسنون القرويون يحظون من بقية أفراد العائلة الممتدة بالكثير من الإحترام والمهابة التى تتناسب والأدوار التى يقومون بها فى الحياة الاجتماعية(١).

لقد كشفت الكثير من الدراسات الأثنوجرافية عن القوة والتماسك والنفوذ الذى لايزال يتمتع به المسنين فى بعض المجتمعات الريفية الأوروبية، ومن هذه الدراسات الدراسة القيمة التى قام بها أرنسبرج C. M. Arensberg وكيمبول S. T. Kimbol على العائلة الممتدة فى المجتمع القروى فى ايرلندا، والتى كشفت عن المنزلة الاجتماعية العالية التى يتمتع بها المسنون فى المجعتمع القروى الايرلندى، والدور المهم الذى يضطلعون به فى الحياة الاجتماعية القروية وذلك كنتيجة طبيعية لقوة الروابط العائلية وتماسك الوحدات القرابية فى المجتمع القروى الايرلندى(٢).

لقد لاحظ الباحثان أن الفلاح الايرلندى يعيش فى العادة إلى سن متقدمة. وعلى الرغم من صعوبة ربط طول العمر بين المعمرين الايرلنديين إلى أسباب بعينها مثل العادات الغذائية التى يتبعونها، أو العناية الطبية التى يحظى بها الأوربيون عموماً أو إلى العوامل الوراثية أو المناخ فى الريف الايرلندى فإن الفلاحين الايرلنديين يعيشون طويلاً ويعمرون ويتغلبون على الأمراض التى قد تعترضهم - كما يقول الباحثان - لأن لديهم ما يعيشون من أجله، وهو كثير للغاية. فهم فى مجال حياتهم الشخصية يحظون بالكثير من التقدير والإحترام ويتمتعون بالكثير من السلطة والنفوذ، وتلك المراعاة والإحترام الذى يبديه الفلاح الايرلندى للمعمرين فى سلوكه وحياته اليومية يعد جزءاً لايتجزأ من أخلاق

(1) Shanas, E. & P. Tounsend; Old people in three Industrial societies; London, 1969, p. 3.

(٢) أحمد أبو زيد؛ « الشيخوخة فى المجتمع الإنسانى المتغير »، مرجع سبق ذكره.

المجتمع القروى الايرلندى [1].

يتعلم الطفل الايرلندى منذ نعومة أظفاره كيف ينبغى عليه أن يسلك نحو من يكبره فى السن وبخاصة العجائز والمعمرين، ليس ذلك فى نطاق العائلة فقط، وإنما فى نطاق المجتمع القروى ككل، وهذا فى حد ذاته يساعد مساعدة فعالة فى بلورة العواطف والإتجاهات والمواقف، وتحديد المراتب التى يحتلها أفراد العائلة والمجتمع المحلى بحسب تقدمهم فى السن، وعلى الأخص المتقدمين فى السن. فالمسنين أو المعمرين فى المجتمع الريفى الايرلندى يمثلون فى الواقع الحلقة الرئيسية فى حلقات نسق القيم الأخلاقية المحلية. وعلى الرغم من أن بعض الشباب القرويين الايرلنديين قد يحاولون إثبات كيانهم الخاص المتمايز عن هؤلاء المسنين، والذى قد يدفعهم فى بعض الأحيان - كما يشير الباحثان - إلى حد السخرية فى أحاديثهم اليومية من هذا الوضع، إلا أنهم لاينسون أبداً نسق القيم السائد، بحيث لايجرأون على الإفصاح عما يدور بأذهانهم وإلا تعرضوا للجزاءات التى يفرضها العرف السائد على كل من يخرج عن مراعاة القواعد السلوكية نحو المسنين [2].

وينعكس نسق القيم الصارم الذى يفرض الاحترام والتوقير للمسنين والمعمرين فى شتى ملامح وتصرفات الفلاحين الايرلنديين العاديين. ومع أن هذه التصرفات قد تبدو من الوهلة الأولى عديمة الأهمية إلا أن لها دلالاتها العميقة فى فهم المكانة التى يحظى بها المسنون والمعمرون الايرلنديون فى المجتمع القروى الايرلندى. على سبيل المثال الوضع الذى يجلس المعمر فيه بالنسبة لمن هم دونهم فى السن، أو من الذى يتكلم فى العادة فى حضورهم. وضرورة الإنصات لأحاديثهم وهكذا.

(١) أحمد أبو زيد : « الشيخوخة فى المجتمع الإنسانى المتغير »، مرجع سبق ذكره.

(٢) أحمد أبو زيد : « الشيخوخة فى المجتمع الإنسانى المتغير»؛ مرجع سبق ذكره.

لأن من الصعب على الباحث الأنثوجرافى فهم نسق العلاقات الاجتماعية السائد فى المجتمع الريفى الايرلندى إذا لم يضع مثل هذه الأمور البسيطة فى الاعتبار [1].

وعلى أية حال فإن تلك الملامح التى عرض لها الباحثان حول المرتبة التى يحتلها المعمرون والمسنون فى الحياة القروية الايرلندية يمكن أن نجد لها مثيلاً فى المجتمعات الريفية العربية التى يقوم تنظيمها الاجتماعى على أساس من روابط الدم والمصاهرة، وهى أمور شائعة ومألوفة فى ثقافتنا العربية، حيث لايزال نمط العائلة الممتدة يمثل النمط الغالب للعائلة القروية العربية. وهو النمط الذى ساعد العجائز والعمرين العرب على الإضطلاح بأدوارهم التى تتناسب وسنهم. وهو النمط الذى أجبر فى الوقت نفسه أعضاء الوحدة القرابية الواحدة على الإعتراف بهم وإحاطتهم بكثير من الرعاية والإهتمام والإحساس طيلة الوقت بالحاجة إلى وجودهم، فالمعمرين والعجائز فى ثقافتنا العربية ليسوا مجر د آباء وأجداد يجب العناية بهم لضعفهم، وإنما هم « بركة » وهبة من الله يتفانى كل من دونهم فى البر بهم. فالتقدم فى العمر فى ثقافتنا العربية ليس مجرد إنجاز حققه المعمرون أنفسهم نظراً لما يقومون به من أدوار فى الحياة الاجتماعية السائدة وقفاً عليهم كما هو الحال فى المجتمع البدائى ، وإنما هم بحد ذاتهم يمثلون قيمة اجتماعية لها أساسها الدينى العميق الذى يسارع الجميع دائماً إلى تأكيدها والمحافظة عليها.

٣ - التقاعد والمجتمع الحديث :

يواجه العجائز والمعمرون فى المجتمع الحديث العديد من المشكلات النوعية

(١) أحمد أبو زيد ؛ « الشيخوخة فى المجتمع الإنسانى المتغير » ؛ مرجع سبق ذكره.

الخاصة بهم مثل الضعف العام فى القدرات الجسمية والبطء فى الحركة وضعف الحواس وزيادة الأمراض والشعور بالإجهاد والتعب والأرق وقلة فترات النوم وضعف الإنتباه والنسيان والعصبية والحاجة إلى الشعور بالأمان والاستقرار. ويأتى على رأس تلك المشكلات التقاعد Retirement ومايصاحبه من إحساس المرء بالعزلة الاجتماعية والتفرد وزيادة وقت الفراغ ونقص الداخل [١].

ويشكل التقاعد للمرء نوعاً من التحدى لنمط جديد من الحياة يختلف كل الإختلاف عن النمط المألوف الذى اعتاده المرء فى حياته العاملة النشيطة، وفى الواقع يمثل التقاعد للمرء لطمة اجتماعية كبرى، ذلك لأنه يغير من حياة المرء تغيراً جذرياً ويقلل من مركزه الاجتماعى وهيبته، ويسبب له الفقر ويبعده عن الصداقات ويمحو من أمامه الفرص الملائمة لشغل أوقات فراغه. وقد يؤدى التقاعد إلى التدهور المفاجئ فى قدرات المرء الجسمية، وإلى إصابته بكثير من الأمراض النفسية كنتيجة لشعور المرء بعدم القيمة ونبذ المجتمع له وعدم الرغبة فيه، أو إحساسه بالملل لأنه أصبح عبئاً ثقيلاً على نفسه وعلى ذويه[٢].

وعلى الخلاف من الرجال لايمثل التقاعد للمرأة العاملة المعنى ذاته، ذلك أن النساء ترى دائماً العمل الخارجى مكملاً فقط لعملهن داخل المنازل. فالعمل الخارجى بالنسبة للنساء ليس سوى عملاً تكميلياً لا أهمية له بالنسبة إليهن، بحيث يمكنهن دائماً الإستغناء عنه دون أن يسبب ذلك لهن أية مشكلات، وذلك باستثناء الأحوال التى يشكل فيها الدخل الذى تحصل عليه المرأة من عملها الخارجى المصدر الرئيسى لميزانية الأسرة. ففى هذه الأحوال قد يسبب

(1) Tounsend, P.; The Family Life of Old People, Penguin Books, London, 1963; p. 157.

(2) Tounsend, op. cit., p. 161.

التقاعد بالنسبة للمرأة ذات المشكلات المصاحبة له بالنسبة للرجل [١].

وعلى هذا الأساس ينظر الكثيرون من الرجال دون النساء إلى التقاعد بخوف وقلق شديدين. فالإقتراب من التقاعد يشعر المرء دائماً بالخوف من فقدان الدور الاجتماعى النشيط الذى يقوم به من خلال العمل [٢]. وعلى الأخص بعد أن تأثر دور الأب كثيراً داخل العائلة، وذلك نتيجة لظهور الفرص الجديدة لإلتحاق الأبناء بالتعليم، وإندثار النظام الحرفى القديم الذى كان يقوم على نظام التلمذة الحرفية، والذى كان الأبناء يتوارثون بمقتضاه حرف آبائهم. ففى ظل نظام التلمذة الحرفية كان الآباء يشعرون دائماً أن أبناءهم سوف يواصلون حياتهم المهنية أو الحرفية من بعدهم، والآن بعد أن توارى نظام التلمذة الحرفية فإن هذا الأمان الذى كان يشعر به الآباء قد فات أوانه، فبعد أن هجر الأبناء مهن الآباء لم تعد الخبرات العملية التى اكتسبها الآباء الحرفيون أثناء حياتهم العملية تنفعهم، حيث تغيرت الأوضاع المهنية والتعليمية فى الوقت الحاضر إلى حد بعيد.

فى الأشهر الأولى بعد التقاعد لايجد المرء مايفعله، اللهم إلا مقابلة بعض زملاء العمل القدامى لتذكر الماضى الذى ذهب، ولكن صداقات العمل فى العصر الحديث لاتدوم، ولاتعوض المرء عن السعادة التى كان يشعر بها أثناء العمل مهما كان شاقاً. ولذلك كثيراً ما يعترف المرء بعد التقاعد بأن حياته كلها قد انتهت وليس عمله فقط، وكثيراً ما تصبح حياة المرء بعد تقاعده تعبيراً صريحاً عن الأفكار الكئيبة التى تعبر صراحة عن شعوره بالملل وبعدم القيمة وإنتظار قضاء الأجل. وذلك نظراً للتغيرات العنيفة التى تطرأ على حياته.

---

(1) Tounsend, op. cit., p. 170.
(2) Blan, Zena S., Old Age in a Changing Society, N. Y., 1973, p.28.

٤ - الآثار الاجتماعية للتقاعد (العزلة والتفرد) :

لقد تحطم الرجل حين أحيل للتقاعد.

لقد تمزق الرجل حين ماتت زوجته.

إنه لايرغب فى مواصلة الحياة ولن يمضى وقت طويل حتى يلحق بها.

من الصعب تجاهل التعليقات أو الملاحظات التى تقال حول المتقاعدين أو المترملين من المسنين، لأنها تمثل فى الواقع المشقات التى يصادفها المسنون فى التكيف مع الأنماط الجديدة من الحياة بعد التقاعد أو الترمل، وتعنى احتمال تدهور صحتهم الجسمانية والعقلية ككل وعدم رغبتهم فى مواصلة الحياة. وفى مواجهة مثل هذه التعليقات أو الملاحظات يصبح من المهم فهم الآثار الاجتماعية التى يواجهها المسنون بعد التقاعد أو الترمل. والتى تتمثل فى العزلة الاجتماعية والتفرد.

والمقصود بالعزلة الاجتماعية هو قلة إتصال المسن مع أفراد عائلته أو أقاربه أو مع الآخرين، بينما يشير التفرد إلى الشعور الكئيب الذى يصاحب المسن بسبب الحرمان من الصحبة. وعلى ذلك يكون للعزلة الاجتماعية جانب موضوعى ويكون للتفرد جانب ذاتى، والجانبان لايتطابقان [١].

ليس من السهل تحديد الأشخاص المنعزلين اجتماعياً ذلك أن الرجل قد يكون لايزال يعمل ويعيش مع زوجته وأطفاله ومع ذلك لايقوم بزيارة أبنائه المتزوجين، ولايقضى عطلة نهاية الأسبوع مع أصدقاءه وقد يكون الرجل متقاعداً ويعيش بمفرده بعد وفاة زوجته ولكنه يزور ابنته المتزوجة كل يوم، ويقضى عطلة

---

(1) Fownsend, op. cit., pp. 189 - 190.

نهاية الأسبوع مع ابنه ويقابل أصدقائه باستمرار إذن كيف يمكن لنا فهم وضع هذين الرجلين فى ضوء مفهوم العزلة الاجتماعية والتفرد.

تماثل مشكلة تحديد المنعزلين اجتماعياً مشكلة تحديدِ الفقراء، فالفقر مفهوم نسبى، وإكتشاف مدى الفقر فى أحد المجتمعات المحلية يمر بمرحلتين : **المرحلة الأولى** وهى تتضمن تصنيف الأفراد فى مستوى اقتصادى معين وفقاً لدخولهم، أما **المرحلة الثانية** فهى ترتبط بكيفية رسم الخط الذى يعبر عن الفقر، بحيث يعتبر كل من يصنفون تحته من الفقراء. وعلى هذا الأساس يمكن قياس درجة العزلة الاجتماعية وفقاً لمرحلتين، المرحلة الأولى وتتضمن ترتيب الأفراد وفقاً لدرجات عزلتهم الاجتماعية، أما المرحلة الثانية فهى تتضمن رسم الخط الذى يعبر عن العزلة الاجتماعية بحيث يدرج الأفراد الذين يقعون دونه فى نطاق مقولة المنعزلين اجتماعياً [1].

ويعتمد هذا المنهج فيما يتعلق بتحديد المنعزلين إجتماعياً من المسنين على المعلومات الخاصة بإتصالاتهم الاجتماعية وعلى الأخص مع أفراد عائلتهم وأقاربهم الذين إعتادوا على تحمل مسئولية رعايتهم. والمقصود بالاتصال الإجتماعى هو المقابلة التى تتم فى العادة بين المسن وأحد أبنائه أو أقربائه سواء داخل المنزل أو خارجه، وهو يعنى ما هو أكثر من الإلقاء العابر للتحيات، مثل مدة إستغراق المقابلة. ومعدلات المقابلات، وهل هى مقابلات منتظمة أم غير منتظمة وأسباب ذلك مثل : القرب المكانى بين محلات الإقامة، وغير ذلك من المقابلات اليومية التى تتم مع الجيران أو أصدقاء العمل القدامى التى تمثل الجزء الأكبر من العالم الإجتماعى للمسنين. ولذلك فإن معدل الإتصال الإجتماعى الأسبوعى

(1) Tounsend, op. cit., p. 192.

لكل مسن يمثل فى الواقع درجة إنعزاله عن أفراد عائلته أو أقربائه أو أصدقائه ومدى مشاركتهم فى عالمه الإجتماعى.

ومن الحقائق المدهشة التى أشارت إليها الأبحاث التى أجريت على المسنين المنعزلين إجتماعياً أنهم كانوا من العزاب، وكانوا يفتقرون إلى وجود الأقرباء الباقين على قيد الحياة وخصوصاً الأقرباء الذين ينتمون إلى أجيال متوالية. أو أنهم كانوا من المتزوجين ولم ينجبوا أطفالاً، أو من الذين لديهم أبناء ذكور وليس لديهم بنات إناث، أو لم يكن لديهم أشقاء أو شقيقات أصغر سناً، أو ليس لديهم أصدقاء أو يعيشون بين جيران لا تعجبهم تصرفاتهم، وأن معظم المسنين الذين يعيشون فى عزلة إجتماعية لا يعترفون فى العادة بأنهم فى عزلة.

وعلى أى حال لا يمكن النظر للعزلة الإجتماعية التى يعانى منها المسنون أنها النتيجة المباشرة للظروف الإجتماعية (الموضوعية) التى أشرنا إليها. لأن العزلة الإجتماعية فى نهاية الأمر هى إستجابة فردية للمرء نحو الموقف الإجتماعى الخارجى، والذى يستجيب له المسنون بأساليب مختلفة وفقاً لأوضاعهم التى يتواجدون فيها. والإستثناء الرئيسى وربما الوحيد لذلك يتمثل فى الحرمان الذى يعانيه المسن من مشاركة أقرب الأقرباء إليه نتيجة الوفاة أو العجز أو المرض الشديد أو الهجرة فالتغيرات القهرية التى قد تحدث فى حياة المسن تؤدى حتماً إلى الشعور بالوحدة والوحشة والتفرد، أى يصبح المسن محروماً من رفقة من يحبهم ومن السعادة فى صحبتهم [1].

والوحدة أو الوحشة أو التفرد هى أسوأ ما يمكن أن يعانى منه المرء فى حياته، فأنت لا تشعر بالحنين والإشتياق إلى من تحبه حتى تفقده، أنه شيئاً مخيفاً بالفعل

---

(1) Tounsend, op. cit., p. 197.

أن يفقد المرء شخصاً قريباً إلى قلبه ووجدانه. وفقدان شريك الحياة لا يمثل كارثة بالنسبة للمرأة الأرملة مثلما يعد كذلك بالنسبة للرجل الأرمل وبخاصة المسن، لأن المرأة لا تعتمد على زوجها بالدرجة ذاتها التى يعتمد بها زوجها عليها، وتخفف الأرملة عادة عن نفسها فقدان شريك حياتها عن طريق زيارة عائلتها وأقاربها، ومع ذلك فإنها تشعر بالوحدة والوحشة عقب وفاة شريك حياتها أو منعها العجز عن صحبه الأبناء والأحفاد، أو عدم إنجابها، وذلك على الخلاف من الرجل الأرمل الذى يدرك بعد وفاة شريكة حياته أنها هى التى كانت تحقق الترابط بين أفراد الأسرة، وقد اعتاد أن يأتى أبناؤه إليه بإستمرار وشريكة حياته على قيد الحياة ليقوموا برعايتهما والإطمئنان عليهما. وعلى أى حال كلما كثرت الفترة التى مرت على وفاة شريك الزواج كلما ازدادت معاناة الشريك الباقى على قيد الحياة من الوحشة أو الوحدة أو من التفرد [١].

٥ - الآثار الإجتماعية للتقاعد (إنخفاض الروح المعنوية) :

لأن التقاعد الإختيارى أمر نادر الحدوث فمن المتوقع أن يكون للإعتزال القهرى للعمل أثر شديد على الروح المعنوية للمتقاعدين من الرجال دون النساء، وهذا راجع فى حقيقة الأمر إلى إختفاء الأدوار الإجتماعية الرئيسية التى كان يقوم بها الرجل قبل التقاعد وإعتزاله العمل. ومن النادر أن يكون إنخفاض الروح المعنوية لدى الرجل هو نتيجة للتقدم فى السن وذلك لأن التقاعد وليس كبر السن هو السبب الرئيسى لإنخفاض الروح المعنوية لدى المسنين.

وبطبيعة الحال فإن إنخفاض الروح المعنوية فى مرحلة الشيخوخة يحدث لكل من الرجال والنساء، ولكن فنظراً لإرتباط الأدوار الإجتماعية للرجال والنساء

(1) Tounsend, op. cit., p. 200.

بالكيان الجنسى أو النوعى لكل منهما، ونظراً لأن إختيار النساء للعمل أو للتقاعد يتم وفقاً لإختيارهن، لأن عمل الأزواج أو تقاعدهم وليس عمل الزوجات أو تقاعدهن هو الذى يحدد الوضع الإجتماعى للعائلة التى ينتمين إليها. فإن العلامات الأولى لإنخفاض الروح المعنوية لدى النساء فى مرحلة الشيخوخة نادراً ما تكون ناجمة عن التقاعد أو حتى لكبر سنهن.

تنخفض الروح المعنوية لدى النساء ويقفن على مشارف الشيخوخة فى العادة حين يتوقف الحيض، وحين يرحل آخر الأبناء أو البنات عن المنزل، لأن ذلك يعنى بالنسبة إليهن إنتهاء مسئوليتهن التربوية كأمهات. فالدموع التى تظهر فى عيون الأمهات لزواج الإبن أو الإبنة كتعبير عن فرحة المناسبة، هى فى الوقت نفسه دموعاً تعبر عن حزنهن لأن المصدر الأساسى لعلاقتهن التربوية بأبنائهن قد إنقطع، وأن العش قد أصبح خالياً، ويشير تعبير «العش الخالى» هذا إلى حالة الإكتئاب والحزن التى تصيبهن بعد رحيل الأبناء عن المنزل [١].

إذن فإن إختفاء الأنشطة التربوية من حياة الأمهات يشير إلى المعنى الذى يشير إليه التقاعد وإعتزال العمل بالنسبة للآباء، وفى الواقع فإن تخلى الأمهات عن القيام بمثل هذه الأنشطة الحيوية يمارس ضغوطاً وجدانية عنيفة عليهن تماثل فى حدتها وقسوتها الضغوط الوجدانية التى يمارسها التقاعد وإعتزال العمل على الرجال. وعلى الرغم من ذلك فإن الكثيرات من الأمهات – على الخلاف من الآباء – يجدن أدواراً تربوية جديدة فى حياة أبنائهن أو بناتهن، وبخاصة بعد إنجابهن، حيث تبدأ الأمهات حين ذاك بوصفهن جدات فى تكوين علاقات جديدة مع أحفادهن وحفيداتهن. حيث يقمن بنفس الأدوار التربوية التى سبق وأن قمن بها مع أولادهن، وعلى الرغم من أن الدور التربوى الجديد لا يتطابق مع

(1) Blan, Zena S.; op. cit., p. 23.

الدور التربوى القديم حيث لا يكون للجدات فى العادة مسئوليات أولياء الأمور أو سلطاتهن، إلا أن وجود الأحفاد والحفيدات فى حياتهن يخفف دائماً من حدة الضغوط الوجدانية الناجمة عن فقدانهن لدورهن التربوى القديم، وهذا فى حد ذاته يعنى فى نظرهن إستمراراً للعائلة[١].

وتنخفض الروح المعنوية لدى الرجال نتيجة التقاعد وإعتزال العمل بطبيعة الحال، ولكن هذا الإنخفاض ليس ناجماً عن إعتزال العمل بذاته أو التخلى عن الدور الوظيفى الذى كان يقوم به المرء فى حياته العملية بقدر ما هو ناشئ عن غياب مجموعة التوقعات الإجتماعية التى تدعم الوضع الجديد للمسن بعد التقاعد[٢]، حيث يمارس التباين الشديد الذى يصادفه المتقاعد بين الأنشطة التى كان يمارسها والعلاقات الإجتماعية التى كان طرفاً فيها وبين إختفائها إختفاءً قهرياً ضغوطاً وجدانية شديدة عليه. ولذلك فمن المتوقع من الشخص الذى كان لديه بعض الإهتمامات خارج نطاق عمله أن ينجح فى التغلب على تلك الضغوط وتطوير نمط جديد ملائم من الحياة وبخاصة إذا كان لهذا الشخص أصدقاءً يشاركونه إهتماماته.

فالوظيفة تحمى الروح المعنوية للمرء عادة، وبخاصة إذا كان يستمتع بأداء عمله، أما إذا كان المرء لا يستمتع بالعمل الذى تفرضه الوظيفة، أو يشعر على الأقل بعدم الرغبة فى الإستمرار فى تلك الوظيفة، فإنه يميل إلى الإهتمام بنسج شبكة من العلاقات الإجتماعية فى مكان العمل، وذلك بصورة أكبر مما يفعله نظيره الذى يستمتع بعمله ولذلك ترتفع نسبة المشاركة الإجتماعية وقوتها من جانب هؤلاء الأشخاص الذين لا يشعرون بالرضا أو الإشباع الكامل لروحهم المعنوية فى العمل، وذلك فى مقابل أولئك الأشخاص الذين يستمتعون بعملهم

(1) Blan, Zena S.; op. cit., p. 25
(2) Blan, Zena S.; op. cit., p. 31

ويحقق لهم إشباعاً لروحهم المعنوية. ولذلك تستخدم «المشاركة الإجتماعية» كعملية من عمليات التكيف الإجتماعى للمتقاعدين فى مرحلة الشيخوخة وبخاصة هؤلاء الذين كانوا يشعرون بالنفور وعدم الرغبة فى عملهم، ولكن هذا لا يعنى أن المتقاعدين من الذين كانوا يحبون عملهم ويتقنونه لا يهتمون بإقامة العلاقات الإجتماعية فى مرحلة الشيخوخة وبالتالى ينعزلون، لأن مثل هؤلاء الموظفين كانوا يحظون بالإحترام الشديد من جانب زملائهم فى العمل، ولكن حاجاتهم إلى الإختلاط بالآخرين وإقامة العلاقات الإجتماعية مع زملاء العمل لم تكن كبيرة بنفس الدرجة التى كان عليها نظرائهم الذين يجبرهم عدم ميلهم للعمل أو عدم الرغبة فى مواصلته على تعويض ذلك بالبحث عن مصادر أخرى لإشباع روحهم المعنوية[١].

وطالما استمر المرء بعمله فى البناء المهنى أو الوظيفى فإنه سيكون قادراً بالتالى على تدعيم روحه المعنوية، ولكن التقاعد يحرم هذا الشخص من هذا الإشباع الوجدانى أكبر مما يحرم الشخص الذى كان يشعر بالنفور تجاه عمله واتجه إلى إرساء علاقات اجتماعية فى نطاق العمل. وإن كان ذلك لايعنى أن التقاعد يحرم فقط الشخص الذى كان يستمتع بعمله من مصدر إشباع روحه المعنوية (وهو دور العمل) لأن التقاعد يحرم أيضاً الشخص الذى كان ينفر من عمله من فرص تدعيم العلاقات الاجتماعية والصداقات التى سبق وأن أرساها أثناء عمله، وبالتالى سوف يعزله التقاعد عن الآخرين. بل أن إنخفاض الروح المعنوية لمثل هذا الشخص غير الراغب فى العمل يكون أشد من نظيره الذى كان يستمتع بالعمل ويجد فيه إشباعاً، وبخاصة إذا استطاع هذا الشخص أن يواصل عملاً اجتماعياً نشيطاً بعد تقاعده. وباختصار فإن تناقض فرص الصداقة عقب التقاعد يمثل العامل الرئيسى

(1) Blon, Zena S.; op. cit., p. 41.

لانخفاض الروح المعنوية لدى الشخص غير الراغب فى العمل. وإذا استطاع المحافظة على نشاطه فى المجال الاجتماعى فسوف تستمر درجة روحه المعنوية هى ذاتها مثلما كانت أثناء العمل.

ولكن المتقاعد الذى كان يستمتع بعمله يواجه فى الواقع مشكلات أخرى بعد تقاعده، لأن فقدان دور العمل لمثل هذ المتقاعد يؤثر على روحه المعنوية بدرجة أكبر من تأثير فقدان نظيره الذى لايحب عمله لدور العمل. وعلى الرغم من أن العلاقات الاجتماعية الممتدة قد تؤدى إلى المحافظة على الروح المعنوية للمتقاعدين عموماً، إلا أن تلك العلاقات ليست بديلاً فعالاً للوظيفة التى كرس لها الشخص حياته العملية. فإرتباط مثل هذا الشخص بالعمل وبالأداء الكفء للواجبات يضره أشد الضرر وقت التقاعد فبالنسبة للشخص المرتبط بالعمل فإن فقدان العمل الذى يشكل بالنسبة له مصدر جوهرياً للإشباع الذاتى لا يمكن أن يعوضه أى فرص أخرى فى مجال العمل الإجتماعى بعد التقاعد[1].

فالضغوط المثيرة للإستياء التى تترتب على التقاعد لا تعادلها ضغوط حتى ولو كان ذلك وفاة شريك الزواج. وهذا ناشئ فى الواقع عن طريقة حدوث الأمرين. ففقدان شريك الزواج يعد حدثاً طبيعياً قهرياً تحدده قوى خارجية لا يمكن لأى من كان التحكم فيه، بينما يرتكز التقاعد على الحكم الإجتماعى القهرى والحرص على رعاية مصالح المجتمع. ولذلك يهدد التقاعد إحترام الشخص لذاته وكيانه الإجتماعى. وبينما يؤدى وفاة شريك الزواج إلى تمزيق علاقة إجتماعية واحدة، فإن التقاعد يدمر معظم العلاقات الإجتماعية للمرء، وقد يؤدى إلى إنهاء العلاقات الإجتماعية المرتبطة بالعمل.

---

(1) Shanas, E. & P. Tounsend, op. cit., p. 6.

وبإختصار فإن الآثار الإجتماعية الضارة التى يمارسها التقاعد على الروح المعنوية للمتقاعد متعددة ولذلك يتعرض الأشخاص الذين مروا بهذه التجربة لإنخفاض واضح فى الروح المعنوية. وذلك لأن هذه التجربة تعنى إنتهاء الدور الحيوى الذى يؤديه المرء فى النسق الرئيسى للمجتمع. فطالما استمر المرء فى أداء دوره فى إطار هذا النسق – سواء بلغ عمره السبعين أو الثمانين عاماً، فإنه لايختلف سيكولوجياً وإجتماعياً عن الشخص الذى لا يزال يعمل فى سن الأربعين أو الخمسين من عمره.

٦ – الحاجة للعمل الجديد :

وبعد، فبعد أن عرضنا الآثار الإجتماعية لإعتزال العمل والضغوط المثيرة للإستياء التى يمارسها التقاعد على المسنين فإننا ندرك مدى حاجة المسنين من الرجال إلى القيام بالأعمال، ونظراً لأن التقاعد الإختيارى (فى عصر البطالة) أمر نادر الحدوث فلا بد للجهات الرسمية وغير الرسمية فى الدولة وضع السياسات للإحتفاظ بالمتقاعدين من الرجال، وزيادة عدد الوظائف التى تلائم أوضاعهم وإيجاد طريقة ما لتخفيف أعباء العمل عليهم. ولكن المشكلة هى أنه مهما كانت التسهيلات التى يمكن أن تقدمها الدولة أو أصحاب الأعمال من القطاع الخاص للمتقاعدين الأصحاء، فإن هناك الكثيرون منهم ليس لديهم الصحة الكافية للقيام بالأعمال لفترات محدودة من اليوم بأجور منخفضة. وأن البعض منهم يحتاج إلى وظائف خاصة تحوطها الرعاية وأن البعض الآخر يحتاج للإعانات وهى حاجات تقوم الجهات المسئولة برعاية المسنين بتقديمها إليهم.

وعلى أى حال يمكن أن تتكاتف الجهود فى :

١ – العمل على إستمرار المتقاعدين من الرجال فى أعمالهم ولو لبعض الوقت طالما أنهم لا يرغبون فى التقاعد.

٢ – تخصيص بعض الأعمال الجزئية لهم فى ضوء الرعاية الإجتماعية الرسمية للمسنين.

٣ – تهيئة الظروف الملائمة (عن طريق الدعم الرسمى) لحصول المتقاعدين من الرجال غير القادرين على العمل على أجور كافية لإحتياجاتهم.

٤ – تخصيص بعض الأعمال للمتقاعدين الذين يلازمون المنازل لظروف صحية قاهرة.

رقم الإيداع ٥٦٧٩ / ٩٨

الرقم الدولى .I. S. B. N

977 - 19 - 6012 - 1